العلم النافع

سبيل النجاة

محاضرات سماحة

آية الله العظمى

السيد محمد تقي الحسيني المدرسي

دام ظله الوارف

بسم الله الرحمن الرحیم

العلم النافع سبيل النجاة

كاتب:

صادق حسينى شيرازى

نشرت فى الطباعة:

ياس الزهراء عليها السلام

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

العلم النافع سبيل النجاة

اشارة

اسم الكتاب: العلم النافع سبيل النجاة

المؤلف: حسينى شيرازى، صادق

الموضوع: فقه

اللغة: عربى

عدد المجلدات: ۱

الناشر: ياس الزهراء(ع)

مكان الطبع: قم

تاريخ الطبع: ۱۴۲۹ ق

الطبعة: اول

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه:

«»

و وقفوا اسماعهم على العلم النافع لهم

المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين.

وبعد.. لقد تظافرت الروايات الشريفة فى الدعوة لحضور مجالس العلماء للاستفادة من علومهم والاسترشاد بتعاليمهم الروحية والفكرية والخُلُقيـة؛ فعن رسول الله صـلى الله عليه وآله أنّه قال: «مجالسة العلماء عبادة». وعن أمير المؤمنين سـلام الله عليه أنّه قال: «العقل ولادة، والعلم إفادة، ومجالسة العلماء زيادة».

كما حثّت الروايات على تدوين العلم وتقييده بالكتابة، مثل قول النبى صلى الله عليه وآله: «قيّدوا العلم» قيل: وما تقييده؟ قال: «كتابته».

ومن بين تلك المجالس المليئة بالمعارف والعبر، مجالس سـماحة المرجع الدينى آية الله العظمى السيّد صادق الحسينى الشيرازى دام ظله، الـذى طالمـا أتحف مستمعيه بالنكات الخفيـة والمعارف الدقيقـة الكامنـة فى طىّ كلمات أهل البيت سـلام الله عليهم وسـيرتهم، فكانت مجالسه تُعَدُّ بحقّ منابع تربويّة كفيلة بأن ترشد المؤمنين إلى الاقتداء بأهل البيت سلام الله عليهم وتحثّهم فى السير على نهجهم، عقيدةً وفكراً، وأدباً وخُلُقاً.

فمن منطلق العمل بالأحاديث الشريفة الداعية إلى الاستفادة من مجالس العلماء ونشرها باشر قسم الترجمة والتحقيق فى مؤسّسة الرسول الأـكرم صـلى الله عليه وآله بعون الله تعـالى وتوفيقه بتـدوينها وتتبع مـداليلها الروائيـة والتاريخيـة عبر مظانّها، فكانت (نفحات الهدايـة) المجموعة الأولى التى قدّمناها للقرّاء الكرام، والتى ضمّت طائفة قيّمة من أحاديث سماحته التربوية فى مناسبات مختلفة.

ثم جمعنا ما أفاض به سـماحته من الإرشادات التربوية والخلقية فى شرح بعض مقاطع دعاء «مكارم الأخلاق» للإمام زين العابدين على بن الحسين سلام الله عليهما، فكان كتاب (حلية الصالحين).

وكنّا قد واعدنا قرّاءنا الأعزّاء بباقى محاضـرات الأخلاق التى كان يلقيها سماحته يوم الأربعاء من كلّ أسبوع على طلاب العلوم الدينية،

فكان هـذا الكتاب الـذى يضمّ بين دفّتيه هذه المحاضـرات التى يعود زمن إلقائها لفترات مختلفة تمتدّ من عام ۱۳۹۶ إلى عام ۱۴۲۰ه، وفصـلًا ثانيـاً اشـتمل على كلمـات ووصايـا قيّمـهٔ لسـماحته خلال لقـائه بوفود من أهـل العلم من أساتـذهٔ وطلاّب الحوزات والمعاهد والجامعات وأئمّهٔ الجمعهٔ والجماعهٔ والمبلّغين من إيران والعراق وأقطار أخرى زوّدَنا بها قسم التحرير فى موقع سـماحته، ورأينا إلحاقها بهذه المحاضـرات، للمناسـبهٔ التى بينها وهى كونها تربويهٔ أيضاً وتخاطب بالدرجهٔ الأولى رجال العلم والدين من حوزويين وجامعيين، أساتذهٔ وطلّاباً.

وفى الختـام لاـ يسعنا إلاّـ أن نتوجّه بالشـكر إلى كـلّ الإـخوهٔ الـذين سـاهموا فى إعـداد وإخراج هـذا الكتاب لاسيّما الأخ عبدالرضـا افتخارى، والسـيّد خلـدون العسـكرى، والأسـتاذ علاء حسـين. نسأل الله العلىّ القدير أن يسدّدنا وإيّاهم ويوفّقنا لتقديم المزيد على هذا الطريق ولكلّ ما يحبّه ويرضاه، وصلّى الله على سيّدنا ونبيّنا محمد وآله الطيّبين الطاهرين.

قسم الترجمهٔ والتحقيق

فى مؤسّسهٔ الرسول الأكرم ? الثقافيهٔ

الفصل الأوّل: المحاضرات

(۱) العلم والأخلاق

(۱) العلم والأخلاق

روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «نوم مع علم خير من صلاهٔ مع جهل».

هـذه الروايـهٔ من الروايات التى يجـدر الوقوف عندها والتأمّل فيها. وذلك لأنّ الهدف من خلق الإنسان هو العبادهٔ؛ قال الله تعالى?: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إلاّ لِيَعْبُـدُونِ، ?والصـلاهٔ رأس كلّ العبادات وأهمّها، بل هى العبادهٔ التى «إن قُبلت قُبل ما سواها، وإن رُدّت ردّ ما سواهـا»، فالطاعـات والعبادات جميعها مرهونـهٔ بمـدى قبول الصـلاهٔ أو ردّها، ومع ذلك نرى النبىّ صـلّى الله عليه وآله الـذى به عُرفت الصـلاهٔ وحقـائق العبـادهٔ، وكـان منطقه منطق القرآن والوحى، وحكمه الحقّ يخبرنـا أنّ نوم العـالِم خير من الصـلاهٔ وهى أهمّ الطاعات والعبادات إن كانت مع جهل. فكيف يكون ذلك؟

إنّ نوم العالِم ليس تركاً محضاً بل هو مقدّمـهٔ وجود؛ لأنّ العالِم إذا نام استراح، واستراحته هـذه تمثّل مقدّمـهٔ للخدمـهٔ والهدايهٔ وإرشاد الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور. فنوم العالِم حسنهٔ إذاً.

أمّا الجاهل فإن لم يصلّ الصلاهٔ الواجبهٔ فتلك سيّئهٔ، وإذا صلاّها مع الجهل بها، يكون قد أذهب فضلها. حينها يستوى فى ذلك مع من لم يأت بها.

صحيح أنّ القاصـر لا شـىء عليه، لأنّ من أصول الإسـلام العدل، والله سـبحانه وتعالى عادل، ومن عدله أن لا يعذّب القاصر، فمن وُلد فى مكان أو زمان أو ظرف بحيث كان قاصـراً على الإحاطهٔ بأىّ خطاب أو بلاغ، لا يُعذَّب ولا يُعاقَب ولا تكتب له سيّئهٔ، إلاّ أنّ القاصر يستوى مع المقصّر من حيث الحرمان من ثمار الواجب الذى أُمرَ به المكلف. لذا فنوم العالِم أفضل من صلاهٔ الجاهل سواء كان قاصراً أو مقصراً؛ لغياب الثمرهٔ من صلاتهما.

أمّا الجاهل المقصّر فقد ذهب المحقّقون الأعاظم من الفقهاء والأصوليين إلى أنّ حكمه حكم العالِم العامد خطاباً وعقاباً.

فكمـا أنّ العـالِم العامـد أى الـذى يعمـل عملًا ويعلم أنّه حرام قـد توجّه الخطاب إليه أمراً ونهياً، فكـذلك الجاهل المقصّـِر يتوجّه إليه الخطاب، ويستحقّ العقاب على المخالفهٔ، دون أن يكون فيه إشكال عقلاً.

قد لا يوجد فى صـفوف أهل العلم جاهل قاصر، فإنّه لا يُقصد بالجاهل المقصّر مَن كان مستواه الدراسى أدنى أو كانت معلوماته أقلّ،

بقدر ما ينطبق هذا الوصف على طالب العلم الذى يجهل بعض أحكام الله تعالى بسبب تقاعسه، فيعمل الحرام وهو لا يعلم تقصيراً منه أنّ عمله هذا حرام، وكان بمقدوره أن يعلم أنّه حرام فيجتنب عنه.

فمادام المؤمن باذلاً ـ عمره فى سبيل الله سبحانه وتعالى، منفقاً وقته وساعاته ودقائق حياته فى طاعة الله، مصلّياً أو صائماً أو حاجّاً أو معتكفاً أو قارئاً للقرآن، فليخصّص حظّاً منه للعلم، وأعنى به العلم بأصول الدين وأحكام الإسلام وأخلاقه وآدابه.

وعلينا بعلم الأخلاق أيضاً، فليست أخلاق الإسلام وآدابه كلّها لا اقتضائيّة حسب الاصطلاح العلمى أى مستحبّات ومكروهات، بل إنّ فيها الواجبات والمحرّمات أيضاً. فهذا كتاب جامع السعادات، وكذلك باب الأخلاق فى كتاب بحار الأنوار، وتلك كتب الأخلاق الأخرى راجعوها تجدوها مليئة بالواجبات والمحرّمات.

العلم ينقذ

ولكى ندرك أهمّية العلم أكثر وأنّه كيف صار النوم مع علم خير من صلاة مع جهل، أنقل لكم هذه الحكاية وقد سمعتها من أحد العلماء الذين عاصروا الشيخ عبد الكريم الحائرى؛ فلا يزال بين ظهرانينا اليوم جملة من الذين عاصروه، وممّن تجاوزت أعمارهم السبعين، وينقل بعضهم عنه قصصاً من دون واسطة.

حدّثنى ذلك العالِم قائلًا: نزل أحد أصدقاء الشيخ عبد الكريم الحائرى ضيفاً عنده، ولم يكن معهما ثالث، ومُدّ خوان متواضع وجاء الشيخ بما كان عنده من طعام عادىّ وبسيط فى بيته، وأخذ الضيف يأكل والشيخ كذلك. ولكن فجأة سحب الشيخ يده للحظات وتأمّل، ثم مدّ يده ثانية إلى الطعام واقتطع قطعة من اللحم، وقام ودخل إلى غرفة فى الدار ثم عاد بعد ذلك واعتذر للضيف قائلًا: لقد انتبهت فجأة أنّ كلّ اللحم الذى اشتريته اليوم قد طهته زوجتى ووضعتْه أمامنا، ولما كانت الزوجة واجبة النفقة علىَّ، فقد أحسستُ أنّى ربّما وقعت فى مشكلة شرعية نحوها، فقلت لنفسى: أن أعتذر للضيف خير لى من أن أقع فى مخالفة شرعيّة؛ كان الخوف الذى تملّكنى من هذه الناحية هو أن أترك زوجتى هكذا من دون طعام، لأنّ هذا العمل خلاف للمروءة، بل لعله ترك للواجب، خاصّة وهى التى قامت بذلك العمل بنفسها وهيّأت لنا هذا الطعام، فينبغى لى أن أكون منصفاً.

انظروا إلى ورع الشيخ وكيف أنقذه علمه!

إنّ الكرم خصلة محمودة، وكذا السخاء والإنفاق وإقراء الضيف، فكلّ ذلك عمل محبّب ومقبول، ولكن إلى حيث لا يؤدّى إلى ترك واجب أو ارتكاب محرّم. ولعلّ كثيراً منّا لا يعلم أنّ مثل التصرّف الذى قام به الشيخ الحائرى قد يكون واجباً. فها هنا يأتى دور العلم لينفع صاحبه ويقول له: إنّ إقراء الضيف محدود بعدم ترك الواجب، ولو أنّ أحداً نزل به ضيف ثم قام بجلب طعام مَن تجب نفقته عليه وقدّمه بين يدى الضيف من دون رضا واجب النفقة ومن دون وجود طعام فائض، فإنّ إقراءه هذا غير جائز، باتفاق العلماء.

إذاً، علم الشيخ الحائرى قد نفعه. فهذا هو الذى صلاته مع العلم لا يعادلها شىء؛ لأنّ الإنسان الذى عنده علم، لا يعمل الحرام فى سبيل ترك مكروه، ولا ـ يترك واجباً من أجل الإتيان بعمل مستحبّ، وهو يتحمّل ما يُخجل عند الناس ولا يعمل ما يُسخط الله تعالى. ولاشكّ أنّ الشيخ عبد الكريم قد خجل وشعر بالحرج تجاه ضيفه، ومن المؤكّد أنّ هذا الموقف لم يكن على الشيخ سهلًا، ولكنه مع ذلك لم يبال، لأنّ ما هو أخطر منه فى نظره أن يقع فى معصية مولاه عزّ وجلّ، وكان لعلمه الأثر المهمّ فى تورّعه. فلو كان جاهلًا بالقضية لما تصرّف هكذا.

وقد ينطبق على الجاهلين بالأحكام الشرعية قول الله تعالى فى كتابه الكريم?: وَبَدَا لَهُم مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ.?

صحيح أنّ صدر الآية ورد فى الظالمين، ولكن ثمّة تفاسير تقول: إنّها أيضاً فى فريق من الناس يظنّون أعمالهم فى الدنيا حسنات لكنّها تظهر لهم فى الآخرة سيّئات، كما فى إقراء الضيف بطعام واجب النفقة من دون رضاه، مثلًا.

أهمية العلم للواعظ

كان هذا مثالاً واحداً تبرز فيه أهمية العلم وتفضيل نوم صاحبه على الصلاة مع جهل، وإلاّ فإنّ أكثر أعمال الجاهل المقصّر سيّئات. فلو أخذنا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من باب المثال أيضاً، لرأينا الشىء نفسه؛ لأنّ الجاهل إذا لم يأمر بالمعروف وينهَ عن المنكر وكان واجباً عليه فقد ارتكب سيّئة، وإن أمَر ونهى فلا يبعد أن يكون أمره ونهيه سيّئة، لأنّه لا يعلم الكيفية والوقت والأسلوب اللازم للأمر والنهى الواجبين عليه، بل قد يقول عن المكروه: إنّه حرام، أو عن المستحبّ: إنّه واجب، فيصدر منه والعياذ بالله الحكم بغير ما أنزل الله سبحانه.

لقد شاهدتُ أحد الأشخاص يعظُ فى مجلس حضره أحد مراجع التقليد، فذكر مكروهاً من المكروهات وقال عنه أنّه حرام؛ اعتماداً على رواية طالعها. فكان من بين الحضور رجل كبير السنّ يعرف شيئاً من المسائل الشرعية انتابه الشكّ، فذهب إلى المرجع وسأله عن الموضوع، فقال له المرجع: كلّا إنّ هذا الأمر مكروه وليس حراماً. فجاء الرجل إلى الواعظ الذى كان يرشد الناس وقال له: لقد سألت المرجع وأخبرنى أنّ ما حدّثت عنه أنّه حرام ليس حراماً بل مكروه.

فتأثّر ذلك الواعظ وجاء إلى المرجع وعاتبه بأنّ كرامته أُهدرت أمام ذلك الشخص؛ لإخباره بخلاف حديثه.

فأجابه المرجع قائلاً: لقد فكّرت فى كلامك ورأيت أنّه خلاف الإجماع، أى إنّ المسألة لم تكن خلافية؛ يقول أحد العلماء بكراهيتها والآخر بحرمتها، وإنّما أُجمع على جوازها ولم يقل أحد بالحرمة فيها على الإطلاق.

فردّ عليه الواعظ: لكنّى وجدت رواية تنهى عن ذلك.

فقال له المرجع: ليست كلّ رواية فيها نهى، دالّة على الحرمة.

إنّ المجتهدين يُتعبون أنفسهم عدّة سنين لأجل أن يعرفوا هل النهى الفلانى يدلّ على الحرمة أو الكراهة، وهل الأمر الفلانى دالّ على الاستحباب أو الوجوب؟

فهذا مثال واضح لمن يتصوّر أنّه محسن دون أن يعى أنّ عمله عين الإساءة.

وعليه، فلا أتصوّر أن يوجد بيننا جاهل قاصر إلاّ قليل، والجاهل المقصّر كما قلنا كالعالِم العامد خطاباً وعقاباً، إن لم يأت بالواجب فتلك سيّئة، وإن أتى به ولكن مع المنافيات مقصّراً غير عالم بها فتلك سيّئة أيضاً.

موعظة تاريخية

تأمّل فى هذا الحديث الصحيح الأعلائى:

يقول الراوى: «كنت عند أبى جعفر الثانى عليه السلام إذ دخل عليه صالح بن محمد بن سهل وكان يتولّى له الوقف بقم فقال: يا سيّدى اجعلنى من عشرة آلاف فى حلّ، فإنّى أنفقتها. فقال له: أنت فى حلّ، فلمّا خرج صالح قال أبو جعفر سلام الله عليه:

أحدهم يثب على أموال حقّ آل محمد وأيتامهم ومساكينهم وفقرائهم وأبناء سبيلهم فيأخذه ثم يجىء فيقول: اجعلنى فى حلّ، أتراه ظن أنّى أقول لا أفعل؟ والله، ليسألنّهم الله يوم القيامة عن ذلك سؤالاً حثيثاً».

انظر كيف أنّ الإمام المعصوم يقول: «أنت فى حلّ» ثم يخبر أصحابه أنّه لا فائدة من ذلك. وسببه أنّ الرجل لا يخلو إمّا أن يكون عالِماً عامداً أو جاهلاً مقصّراً، ولا يمكن أن يكون غير ذلك، وما أخذه من الإمام إنّما أخذه حياءً؛ لقوله عليه السلام: «أتراه ظنّ أنّى أقول لا أفعل؟».

إنّ المطلوب هو العلم، فإنّ الإنسان لا يدرى بم سيُبتلى وكيف ينبغى له أن يتصرّف، وكيف يتحدّث لئلّا يكون من الذين وصفهم الله تعالى بقوله?: وَبَدَا لَهُم مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ?فيعمل ويتصوّر أعماله حسنات، ثمّ ينكشف له بعد ذلك أنّها كلّها كانت سيّئات، لذا فأهل العلم أَولى بالانتباه إلى هذا الأمر الخطير.

الهلاک خیرٌ من الافتراء

عن محمـد بن إبراهيم بن إسحاق الطالقـانی قال: «كنت عنـد الشيخ أبی القاسم الحسين بن روح رحمه الله مع جماعـهٔ فيهم علی بن عيسی القصری، فقام إليه رجل فقال له: إنی أريد أن أسألک عن شیء»....؟

فقام الرجل فسأله عن أشياء. فقال له أبو القاسم الحسين بن روح: «افهم عنّی ما أقول لک» ... وأجابه إجابات مفصّلهٔ شافيهٔ.

قال محمد بن إبراهيم بن إسحاق: «فعُدت إلی الشيخ أبی القاسم بن روح من الغد وأنا أقول فی نفسی: أتراه ذكر ما ذكر لنا يوم أمس من عند نفسه؟

فابتـدأنی فقـال لی: يـا محمّـد بن إبراهيم، لأن أخرّ من السـماء فتخطفنی الطير أو تهوی بی الريـح فی مكان سـحيق، أحبّ إلیّ من أن أقول فی دين الله عزّ وجلّ برأيی أو من عند نفسی، بل ذلک عن الأصل، ومسموع عن الحجّهٔ».

ضرورهٔ التعبئهٔ العلميهٔ والأخلاقيهٔ

قـال لی أحـد طلبـهٔ العلم: سـألنی شـخص ذات يوم عن الـدليل علی وجود الله سـبحانه وتعالی، ففكّرت قليلًا ثمّ رأيت أنّه لا ينبغی أن أتحـدّث هكـذا مـن دون علـم، ثـمّ يظهر للشـخص أنّنی لـم أكن أعرف شـيئاً، فخلّصت نفسـی من البدايـهٔ وقلت له: إنّ هـذا ليس من اختصاصی!

فهل هذا يليق برجل علم؟ أليس من واجباته إرشاد الجاهل؟ أوَ ليس وجود الله تعالی وتوحيده أساس كلّ الدين وأصل أصوله؟

إنّ كثيراً من مطالب أصول الـدين يشـعر الفرد بل حتی كثير من أهل العلم بالحاجهٔ إلی تعلّمها سواء بالدراسهٔ أو المطالعهٔ أو المباحثهٔ، وكذا الحال بالنسبهٔ لكثير من الأحكام الشرعيهٔ.

كما أنّنا بأمسّ الحاجـهٔ إلی تعبئهٔ علميهٔ لمعرفهٔ كثير من الأحكام الشـرعيهٔ وبالأخصّ تلک التی هی محلّ ابتلائنا، وهكذا الأمر فی مقام الهدايهٔ والإرشاد وتعليم الأحكام، ومواجهـهٔ أصـحاب الديانات والمذاهب الباطلهٔ والأفكار المنحرفهٔ. فهذا كلّه يعدّ من الواجبات العينيهٔ التی يجب علی الفرد المسلم السعی لتعلّمها.

لقـد ورد فی الحـديث المـأثور عن النـبیّ صـلی الله عليه وآله قـوله: «اطلبوا العلم ولو بالصـين». وتعلمون كـم هی المسافـهٔ بين الحجـاز والصـين، ومـدی صـعوبهٔ قطعها، خاصّـهٔ فی مثل تلک الأيام؛ وغايته الوصف بأبعد مسافهٔ متصوّرهٔ حينذاک، لما لطلب العلم من أهميهٔ شرعيهٔ وعرفيهٔ فی حياهٔ الإنسان.

ولا ينبغی لطالب العلم (لكی يصـدق عليه أنّه طالب علم) أن يقتصـر علی الدرس أو التدريس برههٔ من الزمن فحسب وإن كان هذا لا بـأس فيـه بـل علی المرء أن يتعلّم، إلی جنب دروسه، كـلّ أحكـام الحلال والحرام، بالإضافـهٔ إلی أصـول الـدين والأخلاق والآداب الإسلاميهٔ.

فلا يتصوّر أحد أنّ الأخلاق الإسـلاميهٔ كلّها علوم لااقتضائيهٔ، فكثير مما يعبّر عنه اصـطلاحاً بالأخلاق إنّما هو من الواجبات، وضدّه من المحرّمات، فإنّ التكبر والعُجب مثلًا ليسا من المكروهات بالمعنی الأخصّ بل هما من المحرّمات، وكذلک المِراء وهو الجدال بالباطل وغير ذلک ممّا يوصف بالأخلاق الذميمهٔ.

فمثلاًـ لو قـال أحـدنا كلمـهٔ وكـانت مطابقـهٔ لما عناه حقّاً، وكان يعلم أنّها كـذلک، ثم عارضه أحـد، فنوی ردّه، فإن كان ردّه لمجرد إثبات الغلبهٔ أو الفضـيلهٔ، فهذا هو المراء الذی ورد التأكيد فی النصوص والأخبار علی حرمته مادام مصحوباً بهذه النيّهٔ وإن كان لإثبات حقّ ودفع باطل، إلّا أن يكون الردّ بهدف إثبات الحقّ لأجل الحق نفسه، فلا خلاف فی صحّته، بل قد يكون واجباً عينياً.

وهنا تتبيّن أهميـهٔ العلم وكيف أنّ النوم مع علم خير من صـلاهٔ علی جهل. فهـذه صورهٔ من المسائل الأخلاقيـهٔ؛ ولذا لا ينبغی أن نضـع درس الأخلاق جانباً بذريعهٔ أنّه لا يخرج عن دائرهٔ المستحبّات والمكروهات.

لقد ذكرت لأحدهم مرّة، عن كتب الأخلاق، فقال لی: أنا مشغول بالفرائض. فقلت له: وكتب الأخلاق مشحونة بالفرائض.

فلنخصّص بعض أوقاتنا وبأقصى ما نستطيع لتعبئة أنفسنا بالعلم فی كلّ مجال مشروع وفی مجال العلم الدينی خاصّة، ولنعلم أنّ موسم الدرس مناسبة جيّدة، وأنّ التسهيل من الله تعالی.

نعم، لننتهز كلّ فرصة ولا نضيّع حتی دقيقة واحدة، ولنحمل معنا الرسالة العملية التی قرأناها فی أيّام شبابنا من أوّلها إلی آخرها، فربّ كثير منّا لا يتذكّر كثيراً منها، أو ربّ أمور لم يعد كثير منّا ملتفتاً إليها، فإذا ما أُتيحت له فرصة ولو بمقدار خمس دقائق، قرأ ولو صفحة واحدة منها، حتی إذا تكرّرت يكون قد تخلّص مما كان عنده من جهل مركّب فی بعض المسائل، حيث كان يتصوّر أنّه يعرفها مع أنّه لم يكن يعرفها علی الوجه الصحيح.

نقل لی أحد المبلّغين الذين كانوا يبيّنون المسائل العلمية قال: كنت ذاهباً إلی الحجّ وكان الناس يسألوننی عن مسائل فأجيب عليها، وكنت أتصوّر أنّ إجابتی لبعض المسائل صحيحة، لكنّنی لم أكن مطمئنّاً فيها، غير أنّی استحييت أن لا أجيب، فأجبت ثم كتبت الإجابات علی ورقة لكی أراجعها بعد عودتی من الحجّ.

يقول: عندما راجعت المسائل لاحظت أنّی أخطأت فی اثنتی عشرة مسألة خالفت فيها الإجماع، أی أنّنی قمت بتعليم الناس اثنتی عشرة مسألة بصورة خاطئة!

إنّ كلّ طالب علم دينیّ معرّض اليوم وغداً وفی أیّ وقت لهذه الأمور والحالات، فليهتمّ بتحصيل العلم أكثر.

صحيح أنّ لديكم اهتماماً بالعلم، ولكن ليزدد اهتمامكم، واعلموا أنّ العلم يعنی النجاة من كلّ طارئ، فإنّ الزمان قصير حقّاً نسبة لتلك الأمور. ولو أنّ أحدنا يعمّر مئة سنة، فهو قليل تجاه ما يجب عليه، فكيف وأعمارنا أقصر من ذلك؟!

(۲) العلم نور

(۲) العلم نور

قال رسول الله صلی الله عليه وآله: «العلم نور يقذفه الله فی قلب مَن يشاء».

ينبغی لأهل العلم أن يعرفوا أنّ الدراسة شیء والعلم الذی يبتغيه الله تعالی شیء آخر، فإنّ الدراسة مهما كانت واسعة وعميقة ومستوعبة فإنّها تصلح بحدّ ذاتها أن تكون مقدّمة للعلم فقط. فلو أنّ شخصاً درس عشرات السنوات وتعلّم العربية والمنطق والفقه والأصول والفلسفة والبلاغة وغيرها، يكون قد حصل علی معلومات، أمّا العلم الذی يريده الله وتواترت الأحاديث الشريفة فی فضله، فهو ذلك النور الذی يقذفه الله فی قلب مَن يشاء؛ والله تعالی يقول?: وَمَن لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُورٍ?

قد يكون شخصٌ شديد الذكاء وكثير الدراسة ويعرف أموراً كثيرة، أمّا أن يُكتب عالماً عند الله وحسب ما وردت به الأحاديث الشريفة فليس بالضرورة؛ فقد نقل فی الحديث أنّ رسول الله صلی الله عليه وآله قال: «فضل العالم علی العابد كفضلی علی أدناكم»، فهل يعقل أن يكون هذا الفضل العظيم لصاحب المعلومات الكثيرة فقط؟!

إنّ التحصيل العلمی مقدّمة لحصول الإنسان علی مطلق العلم. أمّا ذلك النور نفسه وهو ما تريده الأحاديث الشريفة فهو شیء آخر، وهو من قبيل ما يدرَك ولا يوصف.

ويمكن تقريبه للذهن من خلال مثال: إنّ هناك فرقاً بين المأكل اللذيذ واللذّة؛ فإنّ الأوّل مقدّمة للثانی، ولكن ليس بالضرورة أن تتحقق اللذّة كلّما توفّر الأكل اللذيذ. كما لو جلس شخص إلی مائدة فيها ألذّ أنواع الطعام ولكنّه كان مشغول البال أو يعصره ألم شديد لدرجة أنّه لا يدری ما يأكل، فهل مثل هذا الشخص تتحقق له لذّة من تناول الأكل، مهما كان الطعام الموضوع أمامه لذيذاً؟ فی حين إنّ الإنسان قد يلتذّ أحياناً بتناول طعام بسيط كالخبز والملح، ويشعر نتيجة ذلك بلذّة عظيمة إذا كان جائعاً وقنوعاً ومرتاح البال.

فكما أنّ هذه اللذّة قد تتحقّق عبرالطعام اللذيذ وقد لا تتحقّق، بل قد تتحقّق فی طعام بسيط، فكذلك حال العلم. فربّ إنسان أصبح عالِماً من خلال معلومات أقلّ من تلك التی انطوى عليها شخص آخر ولم يصبح كذلك، بل ربّما كان هناك شخص عنده معلومات كثيرة جداً ولا يعدّ عند الله عالماً، وذلك بسبب ما ركبه من هوى نفسه فاستلبه كلّ علمه، فلم يعد يشعر به، فكان من الغاوين؛ قال تعالى?: وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِیَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ.?

إذاً، العلم كما يستفاد من الأحاديث هو أن يلتزم الإنسان بما عَلِمه جيّداً «من عمل بما يعلم ورّثه الله علم ما لا يعلم»، وإن لم يحصل هذا عند الإنسان، فهذا يعنی أنّ ذلك النور لم يحصل بعد، وتبقى معلوماته مجرّد قدرة وإمكانية محدودتين كالمال والسلطة و...

فكما أنّ السلطة والمال يكسبان صاحبهما مكانة وشخصية خاصّة فكذلك حال صاحب المعلومات ومَن يُصطلح عليه ب «عالم» تجوّزاً إذا لم يكن عنده ذلك النور الذی عبّرت عنه الأحاديث بأنّه «يقذفه الله فی قلب مَن يشاء». ومشيئة الله سبحانه ليست اعتباطية، فإنّ الله تعالى لا يشاء شيئاً من غير مرجّح، لأنه محيط بكلّ الجهات وقادر على كلّ شیء.

ولنذكر هنا بعض قصص العلماء الماضين لنعتبر:

ولا تبخسوا الناس أشياءهم

«جواهر الكلام» كتاب لا يستغنی عنه أیّ فقيه إمامیّ حتى اليوم، فهو دورة كاملة وواسعة أی مفصّلة فی الفقه الاستدلالی، إلی جانب كثير من الدورات الفقهية كشرح اللمعة، ورياض المسائل وغيرهما، ولكن كتاب الجواهر إضافة إلی كونه دورة كاملة فی الفقه الاستدلالی فهو يمتاز بالسعة والتفصيل، وقد بذل مؤلّفه الشيخ محمد حسن النجفی الجواهری قرابة ثلاثين سنة من عمره فی تأليفه كما يظهر من بعض التواريخ التی سجّلها فی نهايات فصول الكتاب.

ويذكر أن الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر كان عالِماً متبحّراً ذكياً حافظاً متقناً، وكان هو المرجع الدينی فی النجف الأشرف. اتّفق يوماً أن جرى الحديث فی مجلس كان يضمّه وعلماء آخرين عن مسألة فقهية، فأدلى كلُّ عالم بدلوه وأعطى كلّ صاحب رأی رأيه، لكنّ صاحب الجواهر اكتفى بالقول أنّه قد ذكر المسألة فی كتاب الجواهر، وأنّ رأيه موجود هناك.

وكان فی المجلس عالِم أو بالأحرى: دارس! قد التفت إلی صاحب الجواهر وقال: لو تعطی جواهرك للعطّارين ليستفيدوا من أوراقه فی لفّ التوابل، يكون أفضل!

وكأنّه يريد بقوله هذا: إنّ كتاب الجواهر لا يستحقّ القراءة أو أن يُنقل عنه شیء، وأنّ الأوراق التی كُتبت عليه خسارة وتبديد للثروة، لأنّ ما كُتب عليها لا ينفع.

لقد ذهب صاحب الجواهر ولكن بقی اسمه وكتابه الجواهر يدلّ على نور علمه، أمّا ذلك الرجل فقد ذهب اسمه بذهابه، ولا يعرفه اليوم إلاّ من ينبش الكتب التی أرّخت لحياة العلماء، فالملاحظ أنّ هذا الرجل مع أنّه كان عالِماً وبتعبير أدق: دارساً هو الآخر، ولكنه كان يفتقد لذلك العلم الذی عبّر عنه الحديث بأنّه «نور يقذفه الله فی قلب مَن يشاء»؛ لأنّ ذلك العلم يكون مصاحباً للفضيلة، وصاحب الفضيلة لا يبخس الناس أشياءهم ولا يقول مثل هذا القول لعالم أتعب نفسه زهاء ثلاثين سنة حتى كتب ذلك الكتاب النادر فی تاريخ الفقه.

دع المراء وإن كنت محقّاً

دار فی أحد الأيام نقاش بين أحد العلماء المجتهدين وبين أحد تلاميذه حول نصّ من النصوص كان الأستاذ يعتقد أنّه ليس روايةً، وأنّه لم يجده فی كتب الأحاديث، وكان تلميذه يقول: إنّه مرویّ.

لم يتوقّف الأمر عند إبداء كلّ من الأستاذ والتلميذ لوجهتی نظرهما، بل أصرّ الأستاذ على أنّه غير موجود وأنّه أتعب نفسه فی كتب

الحديث ولم يعثر عليه وأنّه لو كان لوجده، فيما أصرّ التلميذ أنّه موجود وأنّه وجده بنفسه، وردّ على أستاذه بالقول: إذا لم تجد شيئاً فإنّه لا ينبغى أن تقول أنّه غير موجود، وإنّما ينبغى أن تقول أنّك لم تجده. وعاد الأستاذ للقول: لا بل إنّه غير موجود وإنّى أتحدّاك فى ذلك. وهكذا حدثت مشادّة كلامية بينهما. فما كان من التلميذ إلاّ أن ذهب على الفور وجاء بالكتاب الذى يوجد فيه الحديث وأخرجه للأستاذ والتلاميذ!

ومن هنا أستطيع القول: إنّ نور العلم الذى جاء فى الحديث لم يكن متوافراً كما ينبغى لا عند الأستاذ ولا عند تلميذه!

فما كان ينبغى للأستاذ أن يتحدّى تلميذه ويقطع بعدم وجود الحديث هكذا وإن أمضى عشرات السنين فى البحث والتحقيق دون أن يعثر على ذلك الحديث، وكذلك ما كان ينبغى للتلميذ أن يعامل أستاذه بهذه الكيفية وعلى مرأى ومسمع من الآخرين!

إنّ للمعلم حقّاً، يقول الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه عن ذلك الحقّ: «مَن تعلّمتَ منه حرفاً صرتَ له عبداً»، وكذا للتلميذ حق، ينبغى لمعلّمه ألاّ يوهن رأيه أو يردّ استنتاجه بتهكّم؟

علينا أن نتعلّم من رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام ونتأدّب بآدابهم، لنحصل على نور العلم?، وَمَن لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ?وما لم يكن ذلك النور موجوداً فلا فائدة ترتجى وإن كانت الدراسة متحقّقة عند الشخص وكان يجيد الكلام والمنطق ويتقن الخطابة أو التأليف ويملك معلومات كثيرة وجيدة.

الأخلاق من دلالات النور

هناك أمثلة كثيرة لمَن درسوا حتى بلغوا مراحل عالية فى الاجتهاد، ومن جملتهم أحد مراجع التقليد ممّن أدركتُهم فى النجف الأشرف، والذى كان قد ألّف ونشر فى أيام مرجعيّته كتاباً لا غبار عليه من الناحية العلمية.

ويذكر أنّ طالباً كان قد طالع الكتاب آنذاك فرأى حسب زعمه أنّ فى الكتاب نقاط ضعف، وربما تصوّر أنّه يمكنه إثارتها للتشكيك فى علمية ذلك المرجع، فانتهز فرصة جلوس المرجع فى بيته لاستقبال الوافدين، إذ حضر هو أيضاً، ثم انبرى بعد أن استقرّ به المجلس، مخاطباً المرجع بلهجة تهكّم، قائلاً: أتدرى أىّ جناية ارتكبتَ بنشرك هذا الكتاب؟ لقد شوّهت سمعة مدينة النجف الأشرف ومكانتها العلميّة التى اكتسبتها من كتب الشيخ الأنصارى وأمثاله!

يريد بذلك: أنّ الذى تخرّج من حوزة النجف الأشرف ينبغى أن تكون مؤلّفاته بمستوى مؤلّفات الشيخ الأنصارى، أمّا هذا الكتاب فسوف يحطّ من مستوى حوزة النجف لعدم ارتقائه لمستوى كتب الشيخ الأنصارى!

وأضاف: لقد تلاعبتَ بكتابك هذا بكرامة النجف العلمية وحوزتها الدينية!

أتدرون ماذا كان ردّ فعل ذلك المرجع؟

أجابه قائلاً: وأين أنا من الشيخ الأنصارى، بل إنّى لأفخر أن أفهم كلمات الشيخ الأنصارى رحمه الله، وأستطيع أن أشرحها. لقد كان الشيخ الأنصارى أستاذ الفقهاء، أمّا أنا فأتمنّى لو كنت تلميذاً للشيخ الأنصارى، وفى مثل هذه الحالة ربما صدرت منّى هفوات أو نقاط ضعف لم أنتبه لها خاصّة وأنّى إنسان ولكلّ إنسان زلاّت. لذا أرجو منكم أن تنبّهونى عليها وسأكون شاكراً لكم.

تأمّلوا فيما حدث: لقد ذهب هذا الرجل إلى المرجع لكى ينال منه ويقلّل من شأنه، ولكنه خرج وهو يغبطه.

ومن يسمع بالقصّة يقول: إنّ تصرف هذا المرجع إنما ينمّ عن نورانية لا توجد عند بعض من بلغوا مراحل عالية من العلم دون أن يحصلوا على نوره، فإنّه كان بإمكان هذا المرجع أن يردّ ذلك الطالب ردّاً علمياً يؤهّله له مستواه، وردّاً اجتماعياً بسبب المنزلة التى يحظى بها بين الناس، كأن يقول له: ومَن أنت لكى تزكّينى؟ أو هل فهمت كتابى لكى تنتقده هذا الانتقاد؟ ولكنّه مع ذلك لم يقل له شيئاً من هذا القبيل، لأنّ ذلك النور الذى غمره جعله يبتعد عن أمثال هذه الردود.

وكان الأَولى بذلك الطالب أيضاً أن يعرض ما بدا له من نقاط ضعف فى الكتاب عرض المستفهِم المؤدَّب، كأن يدوّنها مثلاً ثم

يطلب من المرجع أن يلاحظها ليجيبه عليها، فذلك خير من الاستخفاف بجهود مرجع أتعب نفسه عشرات السنين حتى توصّل إلى هذه الآراء ثم طرحها فى كتاب رجاء القبول! هب أنّ الحقّ مع المعترض فى بعض ما زعم، ولكن هل اعتبر نفسه معصوماً أو حاكياً عن اللوح المحفوظ، ليصدر حكمه بحقّ آراء الآخرين ابتداءً! مع أنّه كان الأولى به أن يعرض إشكالاته ويناقشها معه حتى يتبيّن له وجه الصواب فى كلّ نقطة على حدة. ولكن يبدو أنّه لم يكن متنوّراً بنور العلم، الذى لا يأتى مع كثرة الدراسة ولا بكثرة التعلّم بقدر ما يأتى مع التحلّى بالفضائل والعمل بمقتضاها.

وليس المقصود أن لا ـ يبذل الطالب جهداً فى الدرس، بل المقصود أن يؤطّر دراسته بمجمل الفضائل التى ترقى به لأن يحصل على نور العلم.

من قصص العلماء

كان الشيخ على القمىّ رحمه الله عالِماً زاهداً يعيش فى النجف الأشرف، توفّى قبل زهاء نصف قرن. ولم يكن مرجعاً لكنّه عُرف بالعدالة لدى كلّ العلماء وعامّة الناس حتّى أنّ والدى رحمه الله نقل: أنّه مَن كان يتحفّظ فى الصلاة خلف أىّ عالِم، لا يتردّد فى الصلاة خلف الشيخ على القمّى، لما عُرف عنه من ورع وتقوى. فكان مسلَّماً بعدالته لدى الجميع، ويظهر من كلمات السيّد الوالد رحمه الله أنّه كان ملتزماً بالصلاة خلفه.

يقول الرجالىّ المعروف الشيخ آقا بزرگ الطهرانى: لقد زاملت الشيخ على القمّى رحمه الله عشر سنوات ودرسنا معاً عند السيد محمد كاظم الطباطبائى صاحب (العروة الوثقى) والشيخ محمد كاظم الخراسانى صاحب (الكفاية) والشيخ محمد تقى الشيرازى رضوان الله عليهم جميعاً. وكنت أعرفه فقيهاً متبحّراً ومحقّقاً ولكنّه كان يتعمّد أن لا يشترك فى النقاشات التى تطرح فى المجالس العامّة لكى لا يُظهر درجته العلمية وهذا أمر صعب جداً فكان إذا سئل عن شىء أجاب، وإذا عرضتْ مسألة ودار حولها النقاش بقى ساكتاً يظنّه الرائى أنّه إنسان عادى لا يعرف شيئاً ممّا يدور.

ثم يضيف الطهرانى: كان الشيخ على القمّى عالماً متبحّراً وأنا على معرفة تامّة به، فهو زميلى، ولكنه لم يكن يتكلّم فى مثل هذه المجالس حتى أنّ علماء النجف كانوا يتصوّرون أنّه رجل عادل وزاهد ولكنّه ليس عالماً، لأنّه كان لا يُظهر من علمه شيئاً إلاّ عند الضرورة.

وهذا الأمر يتطلّب نورانيّة خاصّة تمكّن الإنسان أن يضبط نفسه هكذا، فلا يخوض فى حالات الجدل العقيم ولا يصرف الوقت والجهد على أمور لا ـ ثمرة فيها، سوى رغبة كلّ طرف فى إظهار نفسه من خلال إثبات صحّة مدّعاه، كأن يقول شخص: إنّ النصّ الفلانى موجود فى الكتاب الفلانى، فيحاول الآخر أن يثبت أنّه موجود فى غيره، مع أنّ الأمر لا ـ يغيّر من الواقع شيئاً، ممّا يكشف عن عدم وجود نور العلم وفضيلته. والله تعالى لا يعطى هذا النور اعتباطاً ومن دون استحقاق، وكما فى المروىّ عن أميرالمؤمنين عليه السلام: «هيهات لا يُخدع الله عن جنّته».

وليست العبرة فى قصّة الشيخ القمّى أن لا نشارك فى الحديث الذى يجرى فى النوادى العلمية، إذا كان غايته إحياءً لأمر الشريعة، أو بقصد التمرّن ليعرف الطالب مواطن الخطأ أو الضعف من مواطن الصواب أو القوّة، الذى تكشفه كثرة المناقشات والمباحثات، وإنّما العبرة أن لا يكون الهدف إظهاراً للذات أو تخطئة المقابل بأىّ ثمن. فهذا هو المراء بعينه والمشهور فى فتاوى الفقهاء أنّه حرام، وإذا كان الشىء حراماً فارتكابه مخلّ بالعدالة كسائر المحرّمات.

ومثاله: أنّك تقرأ مسألةً فى كتاب ما ك (العروة الوثقى) مثلاً، وتسمع بعد ذلك زميلاً ـ لك ينسب المسألة إلى كتاب آخر ك (توضيح المسائل) فتقول له: إنّ هذه المسألة موجودة فى كتاب العروة وليس توضيح المسائل، ولكنّه يؤكّد لك أنّه قرأها فى توضيح المسائل فتأتيه بنسخة من الكتاب وتطالبه بأن يدلّك على موضع المسألة؛ فإن كان هدفك فى مثل هذه الحالة نبيلاً كبيان حقيقة تتعلّق

بذلك فهذا مما لا إشكال فيه، أمّا إذا كنت تريد فى ذلك تسجيل فوز ونصر لذاتك، فذلك هو المراء السيّئ المشهور بين العلماء أنّه من المحرّمات.

ولا شكّ أنّنا لا يمكننا أن نتّهم كلَّ مَن يريد إثبات شىء ما بالمراء؛ لأنّ نيّته قد تكون سليمة وهدفه قد يكون صحيحاً، ولكن المهمّ أن نربّى أنفسنا على تجنّب المراء والجدال الذى لا يراد به وجه الله تعالى. وهذا الأمر لا يتطلّب دراسة عميقة بل تكفيه لحظات تأمّل والتفات مع مراقبة النفس وضبطها.

هذه قضيّة اُخرى أنقلها عن السيد الوالد رحمه الله: فقد تتلمذ المرحوم والدى عند خاله الشيخ محمد تقى الشيرازى رحمه الله، وبعد وفاة خاله انتقل إلى النجف الأشرف وحضر عند جملة من العلماء منهم الميرزا النائينى قدس سره.

عندما أصدر الوالد رسالته العملية استجابة لإصرار بعض مقلّديه، تعجّب أحد علماء النجف الأشرف ممّن كان يحضر معه درس الميرزا النائينى وذلك عندما رأى رسالة السيّد الوالد، وقال: لم نكن نتصوّر هذا الشخص عالِماً، فقد كنّا نراه يحضر درس الميرزا النائينى يومياً ولكنه لم يكن يتكلّم بشىء من أوّل الدرس حتى آخره، بل كان يجلس ويستمع فقط، فكنّا نتصوّره أحد قرّاء القرآن على القبور وقد آثر أن يحضر الدرس للتبرّك مثلاً، فكيف استطاع أن يضبط نفسه كلّ هذه المدّة ولم يظهر شخصيته العلمية مع أنّه كان فى مستوى المراجع؟!

كانت تلك قصص مَن مضوا، فلننظر كيف سنكون، ولنعلم أنّ العلم لا يأتى من فراغ، ولا من كثرة الدراسة وحدها. نعم، قد تصلح الدراسة لجعل الإنسان متفوّقاً على أقرانك فى المباحثة، ولكنها لا تمنحه منفردة ذلك النور الإلهى المنشود، بل قد تكون فى بعض الأحيان وبالاً عليه والعياذ بالله.

لو نصحت أحداً يوماً ما، فحاول أن تطبّق ما نصحته به على نفسك أوّلاً، بل حاول أن تطبّق كل ما تعتقده فضيلة ولا تيأس مهما فشلت فى ذلك.

رأيت كتاباً مطبوعاً فى الأصول واستفدت منه أيّام دراستى، ولكن ما لفت انتباهى فيه أنّ مؤلّفه إذا جاء بابتكار من نفسه أو تصوّر أنّه كذلك يشيد به كثيراً ويقول: إنّ هذا من ابتكاراتى التى حصلت عليها على أثر سهر الليالى، ثم يدعو بالويل والثبور واللعنات وأن يفعل الله كذا وكذا بكلّ مَن ينقله دون أن يذكر اسمه (أى اسم المؤلِّف)!

هب أن الإنسان قد ابتكر فكرة أو أفكاراً، فما الداعى لأن يتعامل معها هكذا، فى حين إنّ الشيخ الأنصارى قدس سره كان يطرح ابتكارات عظيمة ضمن بقيّة كلماته دون أن يتباهى بها، ودون أن يُشعر القارئ بأنّها من ثاقب أفكاره، مع أنّها كانت تمثّل عصارة علمه، وقد أتعب نفسه حتى وصل إليها، حتى إنّ الشيخ لم يضمّن كتاباته بكلمات من قبيل: اغتنِم ونحوها

والآن عندما نلاحظ الواقع نرى أنّ كتب الشيخ الأنصارى تملأ الحوزات والمكتبات وما تزال تُطبع كلّ عام فى مختلف الأماكن بينما ذلك الكتاب الذى ذكرتُه لم يسمع به كثير من أهل العلم مع أنّه حقيق بالدراسة أيضاً.

إنّ النور الذى أضاء جوانح الشيخ الأنصارى هو الذى جعل كلماته تدور على ألسن العلماء، وكتبه تدرّس فى كلّ الحوزات العلمية، وذِكرُه سائراً بين الناس.

هذا، ونور العلم ليس حكراً على الأسر العلمية، بل قد يكون الشخص سليل عائلة علمية ولكن الله لا يمنحه هذا النور، وقد يقذف الله نور العلم فى قلب ابن عطّار أو مزارع أو بقّال أو تاجر أو حمّال! وهذا يتّضح لمن طالع تاريخ العلماء.

انظروا إلى كتب الشيخ الأنصارى وأمثاله من السلف الصالح فهى عبرة لنا، فهؤلاء العلماء يبدأون كتبهم بالبسملة والحمد والصلاة على النبى وآله واللعن على أعدائهم، ثم ينتقلون مباشرة إلى المطالب ويختمون الكتب بها دون أن يفخروا أنّها لهم.

والآن يمرّ أكثر من قرن على وفاة الشيخ الأنصارى وها هى كتبه فى الفقه والأصول تدور عليها كلّ الحوزات العلمية الشيعية.

إذاً، علينا أن نسعى لتحصيل ذلك النور إلى جانب تلقّى الدروس ومطالعة الكتب والحضور عند الأساتذة؛ فإنّ المعلومات وحدها قد

تجلب الغرور للإنسان، ولنعرف أنّ الغرور ونور العلم لا يجتمعان، فلنحارب الغرور فی أنفسنا ونتواضع لله سبحانه سائلين منه أن يجعل لنا لسان صدق فی الآخرين.

(۳) العلم النافع

(۳) العلم النافع

ورد فی الحديث الشريف: «ليس العلم بالتعلّم وإنّما هو نور يقع فی قلب مَن يريد الله أن يهديه».

الكيف هو المطلوب

يتناسب حظّ الإنسان طردياً فی الوصول إلی غاياته مع ما يبذله من جهد غالباً؛ فالساعی وراء المال يحصل علی كمّية مضاعفة لو ضاعف من ساعات عمله، وهكذا الحال فی الأمور المعنوية، فإنّ مَن يتعب نفسه أكثر فی سبيل العلم والمعرفة فإنّ نصيبه يكون أكبر فی ذلك السبيل.

غير أنّ الفارق بينهما، أنّ الأمور المعنوية يعتبر فيها الكيف أهمّ من الكمّ. فلو أراد شخص مثلًا أن يكون محبوباً لدی شخص آخر، وصار يطيل الجلوس عنده؛ طمعاً فی لفت انتباهه ليقرّبه إليه، فإنه ربّما يواجه بردّ فعل معاكس من قبل ذلك الشخص؛ وقد يثير بذلك نفوره منه فيزداد بذلك بعداً عنه. وربما لو جلس مدّة أقصر، لكان أفضل؛ ما يعنی أنّ الأمور المعنوية يكون المقياس الأهمّ فيها هو الكيفيّة لا التعب والكمّ.

لا شكّ أنّ علی طلّاب العلوم الدينية أن يجدّوا ويجتهدوا ويتعبوا أنفسهم ويفرغوا طاقاتهم فی سبيل العلم، حتی قيل: إنّ لسان حال العلم لطالب العلم هو: «أعطنی كلّك أُعطك جزئی» ولكن حيث إنّ المطلوب هو العلم النافع (وهو العلم الذی ينتفع منه طالبه كما ينتفع منه غيره، فی الدنيا والآخرة) لذا صار لا يقاس بالتعب وكثرة التعليم وإن كانا مطلوبين أيضاً.

الاعتبار سبيل النجاة

الشيخ محمد شريف المازندرانی الملقّب بشريف العلماء هو أحد علمائنا الأجلّاء، عاش قبل قرن ونصف، وقيل إنّه هو أوّل مَن أسّس أو روّج درس «بحث الخارج» فی الحوزات العلمية، بالنحو الذی نعهده اليوم، حيث يبحث الأستاذ المجتهد فی القرآن الكريم والتفاسير وكتب الأحاديث والدراية وأصول الفقه وكتب الرجال وغيرها، كما يستعرض أقوال الفقهاء المختلفة ثم ينقل ما وصل إليه بحثه الفقهی إلی الطلاب الذين يحضرون درسه.

وممّا يزيد فی مقام هذا الرجل أنّه بلغ مرتبة عالية فی العلم وهو فی عمر الشباب، فلم يعمّر أكثر من خمس وثلاثين سنة، ومع ذلك كان يحضر درسه نحو ألف مجتهد، وربی تلاميذ فطاحل يكفی أن نعرف أنّ من بينهم الشيخ مرتضی الأنصاری رضوان الله عليه الذی ما زالت الدراسات الحوزوية فی الفقه والأصول تدور علی كتبه.

وكان من تلاميذه أيضاً عالِم آخر زميل للشيخ الأنصاری وبمستواه العلمی علی التقريب، ولا أريد أن أذكر اسمه لأنّ به مدار الاعتبار فی هذه القصّة قد بلغ فی العلم والتحقيق درجة بحيث استطاع أن يستخرج من رواية واحدة سبعمئة قاعدة فی الفقه والأصول.

قد يُتعِب العلماء أنفسهم ويأتون لاستدلالهم بطائفة من الآيات القرآنية والأحاديث والروايات مع مناقشة جادّة لأقوال الفقهاء حتی يستخرجوا قاعدة واحدة من القواعد الفقهية أو الأصولية كأصل الاستصحاب، أو أصل الصحّة، أو قاعدة التجاوز أو قاعدة الفراغ، أو البراءة أو غير ذلك؛ فی حين إنّ هذا الرجل استطاع أن يستنبط من رواية واحدة حسب ما جاء فی حالاته سبعمئة قاعدة فقهية وليس

قاعدة واحدة وحسب.

أمّا الرواية التى استنبط منها سبعمئة قاعدة فهى المنقولة عن الإمام الباقر عليه السلام من قوله: «رأى رسول الله صلى الله عليه وآله نخامة فى المسجد فمشى إليها بعرجون من عراجين ابن طاب فحكّها ثم رجع القهقرى فبنى على صلاته». ولقد نظم السيّد بحر العلوم قدس سره إجمال ما يُستفاد من هذه الرواية فى منظومته الفقهية وقد جاء فيها:

ومشىُ خير الخلق بابنِ طاب يُفتح منه أكثر الأبواب

أى: إنّه يمكن الاستفادة من هذه الرواية عدّة أمور؛ منها مثلًا أنّه يجوز للمصلّى أن يمشى وهو فى حال الصلاة، ومنها أنّه يجوز له أن ينحنى لا بقصد الركوع لحمل شىء أو وضع شىء وتبقى صلاته صحيحة، وهكذا.

والذى يُذكر أنّه أخذ هذا المعنى من حديث الإمام الصادق عليه السلام فى قوله: «وهذا يفتح من الصلاة أبواباً كثيرة»، كما أخذه هذا العالم أيضاً وتوسّع فيه وتعمّق زماناً حتى استخرج منه سبعمئة قاعدة فى الفقه والأصول، فهل يُشكّ فى علميّته بعد ذلك؟!

إنّنا لم نسمع مثل هذا التعمّق حتى عن الشيخ الأنصارى مع أنّهما كانا زميلين يحضران درس أستاذ واحد فى وقت واحد ويجلسان معاً تحت منبر واحد. ولكن العجيب أنّ علم هذا العالِم فُقد بينما علوم الشيخ الأنصارى ملأت الحوزات العلمية يتلقّاها الطلاّب جيلًا بعد جيل.

وهنا محلّ الاعتبار. فأين التعب الذى تعبه ذلك العالِم؟ ولماذا لم يعُد له عين ولا أثر. أنا شخصياً عندما قرأت ذلك فى سيرة حياته بحثت كثيراً لعلّى أعثر على كتابه أو إفاداته ولكن دون جدوى!

أمّا الشيخ الأنصارى رضوان الله عليه فحتى الكرّاس الصغير الذى كتبه فى العدالة، قد لا تجد فقيهاً لا يشير إليه عند بحثه فى باب العدالة رغم صغر حجمه ومرور أكثر من مئة سنة عليه، ولكن بقى مع ذلك مصدراً يشار إليه، بينما ذهب علم ذلك العالِم بذهابه! مع أنّه كان عبقرياً فى فكره، وما أصعب أن يُستنبط من الحديث المذكور آنفاً سبعمئة مسألة؛ فكيف بسبعمئة قاعدة، ولم يبلغنا أنّ أحداً من العلماء الكبار الذين نقلوا هذا الحديث إلينا منذ ألف سنة كالشيخ المفيد والشيخ الكلينى والشيخ الطوسى والعلاّمة الحلّى والمحقّق الحلّى والعلاّمة المجلسى رضوان الله عليهم أجمعين استنبط منه سبعمئة قاعدة.

فلماذا إذاً لم يبق علم هذا العالم وذهبت أتعابه دون أن تصل إلينا؟ إذا أردتم أن تعرفوا الجواب فسأذكر لكم قصّة أخرى عنه ذُكرت فى سيرته أيضاً ولعلّها السبب فى الحيلولة دون وصول علومه للأجيال التى تلته.

ممّا يروى فى أحوال شريف العلماء رضوان الله عليه أنّه كان يستغلّ كلّ أوقاته فى مجال العلم، حتى أوقات سفره لم تكن ترفيهية محضة، بل كان إذا أراد السفر أخبر تلاميذه ليرافقه جماعة منهم لكى يستثمروا الزمن الذى يقطعونه فى السفر بالبحث والنقاش العلمى المثمر.

وفى إحدى سفراته لزيارة الإمامين العسكريين سلام الله عليهما ومقام الحجّة المنتظر عجّل الله تعالى فرجه الشريف فى مدينة سامراء المشرّفة مروراً بالإمامين الكاظمين سلام الله عليهما فى بغداد اكترى تلاميذه الدوابّ والخيام وأخذوا معهم الغذاء والماء استعداداً للسفر، وتحرّكوا فى مجمع علميّ أو قل مدرسة متنقّلة من كربلاء المقدّسة إلى الكاظمية ومنها إلى سامرّاء المشرّفتين. وكانوا كلّما نصبوا فى الطريق خيامهم للاستراحة وتناول الغذاء وما أشبه، طرح شريف العلماء بحثاً بينهم للمناقشة.

يقول الراوى: عندما خيّموا فى إحدى المناطق على طريق سامرّاء وكانت الخيام قد بلغت العشرات كان كلّ جماعة فى خيمة، يستفيدون من وقت استراحتهم فى النقاش العلمى، وبينما هم كذلك إذ احتدم النقاش بين صاحب السبعمئة استنباط قاعدة من رواية واحدة وبين تلميذ آخر من تلاميذ شريف العلماء، ولكن النقاش خرج عن السياق العلمى وتحوّل إلى صراخ فسباب فعراك، حتى اضطرّ أن يفرّ محاوره من خيمته ليلوذ بخيمة أستاذهما شريف العلماء، لكن صاحبنا (العالِم!) حمل عليه بالسكّين حيث ملاذه مما حدا بالأستاذ أن ينهره ويردعه عن سوء فعله، حتى خجل ورجع!

ربما لمثل هذا السبب وغيره لم تعد قواعد هذا العالم وعلومه موجودة، أمّا آثار الشيخ الأنصارى فقد بقيت متلألئة دون أن تبلى؟!

أدب العالم يكشف عن إخلاصه

إذا أردتم أن تزدادوا معرفة بالأسباب التى ميّزت الشيخ الأنصارى قدس سره عن غيره، فانظروا إلى عباراته فى ردوده على مَن لا يتّفق معه فى الرأى كما تظهر فى كتبه وقارنوها بعبارات الردود الأخرى التى تلاحظونها عند غيره، سواء فى ذلك علماء الفقه والأصول أو سائر العلوم.

إنّ الشيخ رضوان الله عليه يردّ بأدب بالغ وتواضع جمّ، فتراه رغم قناعته التامّة بصواب رأيه وخطأ رأى المقابل، إلّا أنّه لا يستخدم ألفاظاً من قبيل: «خطأ» أو «اشتباه» أو «سوء فهم» أو «قبيح» أو ما أشبه بل يستعمل عبارات من قبيل: «هذا ما أفهمه»، أو «يرِد عليه كذا». إلى غير ذلك من الألفاظ الحسنة.

حدّثنى أحد العلماء المعاصرين، قال: كنت فى شبابى أحضر درس الأستاذ الفلانى وسمّاه لكنّى بعد مدّة انقطعتُ عن الحضور، ثم لقينى الأستاذ ذات مرّة وسألنى عن سبب غيبتى، فقلت له: شبهة حصلت عندى. قال: وما هى؟ قلت: لأنّكم عندما تناقشون الرأى المخالف لرأيكم تناقشونه بأسلوب يترك لدى السامع انطباعاً أنّ صاحب ذلك الرأى ليس عالِماً أصلًا! أى يخلق تشكيكاً بعلميّته؛ حتى لو كان الشيخ الطوسى أو الشيخ المفيد أو العلاّمة الحلّى أو الشيخ الأنصارى. فخشيت أن يتزلزل اعتقادى بعلم كلّ العلماء جرّاء ذلك، ولذلك تركت الحضور عندك!

ثم أضاف ذلك العالم الذى حدّثنى بهذه القضية قائلًا: كنّا نحضر درس آية الله البروجردى رضوان الله عليه، فكان إذا أراد أن يردّ علَماً قال: لا أدرى هل هذا ما يقصده الشيخ الفلانى مثلًا من عبارته؟ أو: لعلّى غير ملتفت لأبعاد رأيه.. وهكذا. فكان يعظّمه فى نظرنا أوّلًا ثم يبيّن لنا رأيه المخالف بعبارات من قبيل: يبدو لى كذا، أو أرى أنّ الصحيح كذا، والعلم عند الله. فكنّا ننفضّ من مجلس آية الله البروجردى معتقدين بصواب رأيه، دون أن تتزعزع فى أنظارنا المكانة العلمية للعلماء الآخرين.

فعلى طالب العلم أن يتعب نفسه قدر الإمكان فى سبيل الدراسة، ولا يكون كسولًا أو خاملًا بل يعبّئ كلّ طاقاته كما ينبغى، ويسأل الله أن ينظر إليه بعين رعايته، فمن دون هذه النظرة لا فائدة من كثرة التعلّم. ولا نريد بقولنا هذا ترك الدراسة، بل أنّ الدراسة وحدها غير كافية وإنّما هى إحدى الأعمدة لرقىّ الإنسان، مادام يصحبها بمكارم الأخلاق.

قبس من سيرة العلماء

السيّد على الشوشترى من تلاميذ الشيخ الأنصارى، وكان له فى كلّ أسبوع يوم يلقى فيه درسَ أخلاق، فكان الشيخ الأنصارى يحضر درسه الأخلاقى! فما أعظم تواضع الشيخ! ابحثوا فى كلّ كتب السير والتراجم، هل تجدون مثل هذا الأدب الذى وصل بصاحبه إلى نكران الذات؟ ولو وُجدت حالة مشابهة، فتظلّ مع ذلك من الحالات النادرة؛ فعلى الرغم من أنّ الشيخ الأنصارى كان مرجعاً عامّاً للشيعة، ومع ذلك كان يحضر درس الأخلاق لدى تلميذه السيّد الشوشترى، ممّا يدلّ على أنّه قد وضع «الأنا» جانباً، الأمر الذى نفهم من خلاله أنّ الشيخ الأنصارى لم يكن ليُعرف بالشيخ الأعظم اعتباطاً، ولا صار كذلك بعلمه فقط، بل بالتسديد الذى يكون لأمثاله من الملأ الأعلى، نتيجة لما روّض عليه نفسه.

كما ينقل التاريخ أنّه حلّ وباء حينذاك بمدينة النجف الأشرف، وكان مَن يُبتلى به يموت عادة، وكان السيّد الشوشترى واحداً من الذين أصابهم الوباء، فأعجزه عن حضور درسه الأخلاقى، وبعد أن أنهى الشيخ الأنصارى درسه فى أحد الأيام قيل له: إنّ السيد على الشوشترى قد ابتلى بالوباء، فعزم مع بعض تلاميذه على زيارته وعيادته. وعندما استقرّ بهم المقام عند السيّد الشوشترى وكان أستاذاً أخلاقياً ألزم الشيخ الأنصارى نفسه بحضور درسه مع أنّه كان أستاذه فى الفقه ومرجع عصره، كما ذكرنا التفت السيّد الشوشترى للشيخ

الأنصاری وقال له: إنّی میّت الیوم أو غداً ولی عندک رجاء وطلب، وهو أن تتولّی أنت الصلاة علی جنازتی إذا أنا متُّ.

فحاول الشیخ أن یطمْئنَ السید ویطیّب خاطره قائلاً له: لا تقل ذلک، ستشفی إن شاء الله وتعود للدرس فنحضر درسک ثانیهٔ.

ولکن السیّد عاد فی طلبه قائلاً: لا تبتعد عن الموضوع، إنّ هذه وصیّتی لک وأطلب منک تنفیذها.

لم یقبل الشیخ الأنصاری بالوصیهٔ وظلّ یتعلّل، ویؤمّله ویدعو له ویقول ملاطفاً: لیس کلّ مَن یُبتلی بالوباء یموت حتماً. ولکن السیّد الشوشتری رغم ذلک کان یصرّ علی الشیخ ولم یتخلّ عن طلبه.

حقّاً عندما ینظر المرء إلی هذین العظیمین ثم ینظر إلی نفسه، یدرک السرّ فی لطف الله بهما وإفاضته ما أفاض علیهما.

لقد کان الشیخ الأنصاری یصلّی فی العادهٔ علی الأموات، فما الذی یمنعه من استجابهٔ طلب السید الشوشتری؟

عندما أصرّ السید الشوشتری، قال الشیخ الأنصاری فی جوابه: لقد سألتُ الله تعالی أن تکون أنت الذی تصلّی علی جنازتی، واستجاب الله دعائی!

لا غرابهٔ فی دعاء الشیخ الأنصاری سائلاً من الله تعالی ما سأل، فهذا أمر مفهوم بالنسبهٔ لنا، ولکن المثیر للتأمّل هو قوله: «واستجاب الله دعائی»؛ فکیف عرف ذلک؟

من الواضح أنّ هذا لا یحصل بالتعب وحده وصرف المزید من الوقت، ولا یأتی نتیجهٔ الدراسهٔ وحدها مهما بلغت، بقدر ما یأتی عبر اقتلاع صفهٔ ال «أنا» من النفس وأن یحاول الإنسان إصلاح نیّته، لا ـ أن یکون باعثُه الحقیقی من العمل والسعی أن یُنشر اسمه فی الأرجاء أو تتناقله الألسن، أو تُجبی إلیه الأموال أو تُقبَّل یداه أو یقوم له الناس فی حلّه وترحاله، بل إن خطر إلی ذهنه شیء من ذلک القبیل أنّب نفسه وعاد إلی ربّه.

فإنّ الناقدَ بصیرٌ

قد ینجح الإنسان فی غشّ من لم یعرف نوایاه وما یدور فی ذهنه، ولکن هیهات أن یغشَّ من یعلم خائنهٔ الأعین وما تخفی الصدور.

وإذا کنّا نتعامل فیما بیننا حسب قناعتنا الشخصیهٔ فلا نساوی بین مَن یخلص إلینا ومَن یغشّنا، فلماذا نعترض علی الله تعالی أن یعاملنا کذلک؟!

فمثلاً: لو أقسم لک شخصٌ قائلاً: إنّی مخلص لک. ولکنّک لم تکن مقتنعاً بصدقه؛ لما تری من سلوکه أو ما خبرته من نوایاه، فهل ستعامله معاملهٔ مَن تعتقد إخلاصه؟ کلّا بالطبع، بل ربّما تتظاهر معه وتجامله وتعامله بالمثل، ولکنّک فی اللحظات المصیریهٔ والمواقف الحسّاسهٔ سوف تعامله حسب قناعتک، فإن کنت شاکّاً به، فإنّک لا تودعه أسرارک، ولو سألک عن السبب، فستحوّل مجری الکلام، وقد تخبره أنّک لا تثق به.

فإذا کانت هذه موازیننا فی تعامل بعضنا مع بعض ونری أنّها حقّ، فلماذا نعترض علی الله فی الحقّ نفسه، ونتوقّع أن یعاملنا معاملهٔ المخلِصین، ونحن لم نخلص له فی نوایانا؟! لا شکّ أنّ الله سبحانه لا یساوی بین المخلص وغیره، فهل یحقّ أن یستوی عنده سبحانه مَن یعمل وهدفه منافع دنیویهٔ أعمّ من أن تکون مالاً أو شهرهٔ وسمعهٔ أو شیئاً آخر ومَن یکون عمله خالصاً لله وحده، ولا یفکّر فی سواه؟

وقد یُسأل: إذا کان العلم نوراً کما ورد فی الأحادیث فلماذا لا یقذفه الله فی قلوب العباد کافّهٔ، مع أنّ الله سبحانه وتعالی لا تزیده کثرهٔ العطاء إلّا جوداً وکرماً. ویداه مبسوطتان؟ إنّ أیّاً منا إذا أنفق، نقص منه شیء لا محالهٔ، حتی لو أنّه بذل نصف ساعهٔ من الوقت فی تدریس أو محاضرهٔ فإنّ ذلک یعنی نقصان نصف ساعهٔ من عمره، وکذا لو أعطی مالاً ـ مهما قلّ فإنّه یعنی نقصان أمواله بذلک المقدار، أمّا الله سبحانه وتعالی فلا ینقص من ملکه شیء مهما أعطی. إذاً لماذا لا یقذف نور العلم فی قلوب کلّ عباده؟

الجواب: لأنّ «الناقد بصیر» أی الذی یتولّی النقد یمیّز بین المخلص وغیره، فیعطی مَن یخلص له ما لا یعطی غیره.

و «بصير» صيغة مبالغة لأنّه على وزن «فعيل» كما فى ألفية ابن مالك:

فعال أو مفعال أو فعول فى كثرة عن فاعل بديل

فيستحقّ ما له من عمل وفى فعيل قلّ ذا وفعل

فكيف نغفل عن هذه الحقائق ونتصوّر أنّا نخلص عندما نتظاهر بأنّ أعمالنا لله، مع أنّنا نخدع أنفسنا فى الواقع ولم نعمل لله؟!

ومن هنا نستطيع أن نفهم السرّ الذى انتشرت به كتب الشيخ الأنصارى، وبقى اسمه، وكذلك سرّ ما قاله للسيد الشوشترى: إنّ الله استجاب دعائى، والكيفية التى أدرك بواسطتها أنّ الله قد استجاب دعاءه.

وبالفعل قد وقع ما قاله الشيخ الأنصارى، فقد شفى الله السيّد الشوشترى وتحسّنت حالته واستأنف الدرس والتدريس، فحضر الشيخ الأنصارى محاضراته الأخلاقية، واستمرّ هو يدرس عند الشيخ الأنصارى إلى أن توفّى الشيخ بعد مدّة وصلّى السيّد على جنازته، كما أخبر الشيخ قدس سره.

فهل لله تعالى صداقة تربطه مع بعض عباده كالشيخ الأنصارى ليميّزه هكذا اعتباطاً؟ أم أنّ الأنصارى وهذا هو الصحيح أخلص لله تعالى فكافأه الله كذلك؟ إنّ الشيخ الأنصارى عرف الطريق المؤدّى إلى الله تعالى وسلكه، وهو طريق الإخلاص المقترن بنكران الذات والتخلّى عن الأنا وتوابعها.

وكلّ مَن أراد أن يصل إلى ما وصل إليه الشيخ الأنصارى عليه أن يسلك الطريق نفسه، فكما أنّ مَن يريد كسب المال ينظر إلى الناجحين فى هذا المضمار فيذهب إلى السوق ويبيع ويشترى ويتعب نفسه حتى يصل إلى مقصوده، أو مَن يريد أن يكون مدرّساً ناجحاً أو طبيباً حاذقاً أو خطيباً مفوّهاً وهكذا فى كلّ شؤون الحياة عليه أن يقتفى أثر الناجحين فى ذلك المضمار ويسلك طريقهم لكى يصل إلى ما وصلوا إليه، فكذلك هو الحال من يريد أن يكون مستجاب الدعوة وموقناً بالإجابة، فليحذُ حذو الشيخ الأنصارى بعد أن يقرأ سيرته ويطبّقها على نفسه، فلقد كان رحمه الله النموذج الناجح فى هذا المجال.

وحياة الشيخ الأنصارى كما تظهر لمن تتبعها فيها بندان:

البند الأوّل: العلم.

البند الثانى: الصدق مع الله، المتمثّل بصدق الفطرة وصدق الوجدان وصدق القلب وصدق النية.

فما أدرانا والله العالم بعدد الدعوات التى دعا بها الشيخ الأنصارى وعلِمَ من الله استجابتها، ولكنّ الشيخ الأنصارى لم يصرّح بها، بل لولا اضطراره فى المورد المذكور آنفاً لما ذكر ذلك أيضاً، ولكن إصرار السيد الشوشترى وهو فى حالة خاصّة ألجأت الشيخ الأنصارى للتصريح بهذه الحقيقة.

أمّا لماذا لم يخبر الله عامّة الناس فى حال استجابته دعوتهم كما أخبر الشيخ الأنصارى؟ فلعلّه لو كان الشخص يعلم عن طريق الغيب بحادثة ستقع فى المستقبل لما استطاع الكتمان بل من المرجّح أنّه كان سيجعل من الأمر سوقاً رائجة لنفسه، فلا يدَع أحداً إلّا وأخبره، طمعاً فى اشتهاره بين الناس، بينما الأمر عند الشيخ الأنصارى سيّان، فلم يكترث سواء عرفه الناس أو لم يعرفوه، فلا تزيده معرفة مَن لم يعرفه عزّة، ولا جهل مَن جهله وحشة.

فلا شكّ أنّ البند الثانى من حياة الشيخ الأنصارى والذى عليه المعوّل هو ذاك الذى ضيّعهُ زميله ذو السبعمئة قاعدة؛ فضيّع بإضاعته كلّ أتعابه وآثاره، بينما بقيت آثار الشيخ الأنصارى بحيث لا تجد كتاباً فى الفقه والأصول إلّا وفيه ذكر للشيخ الأنصارى، ولا تحضر درس الخارج فى الفقه والأصول لدى أىّ أستاذ إلّا وتسمع فيه اسم الشيخ الأنصارى يُذكر مجللاً.

إنّ للفقه والأصول والنحو والصرف والبلاغة والمنطق والفلسفة وغيرها من العلوم، كتباً خاصّة، أمّا الصدق مع الله سبحانه فلا يدرَّس فى الكتب، وإنّما يتلخّص فى شىء واحد، وهو التخلّص من عقدة ال «أنا» وهذا أمر لا يخلو من صعوبة ولكنه فى الوقت نفسه ممكن تطبيقه، ولا يعنى ذلك أن تذلّ نفسك عند هذا أو ذاك، بل المطلوب أن تُشعر قلبك أنّك محتاج إلى الله دوماً وأنّ الآخرين غير

قادرين على أن ينفعوك بشيء لم يُرده الله، ولا أن يضرّوك إلّا بإذن الله، لتقطع بذلك أمَلك عمّا سوى الله، وبعدها لا تعود تفكّر فى نيل الحظوة عند الناس، وأن تحذر الشيطان دوماً، فإنّك قد تريد الخلاص من هاوية فيرديك فى هاوية أخرى، فمثلاً تريد أن تتواضع وتتخلّى عن الكبر فإذا به يوقعك فى الذلّ والهوان.

إذاً، ليس المقصود من التخلّى عن «الأنا» امتهان الذات، بل المقصود أن يكون العمل لله وحده. فلو أصبح أحدكم مدرّساً أو خطيباً أو إمام جماعة فى يوم من الأيام، فعليه أن يضع «الأنا» جانباً وبقناعة، لا أن يتظاهر بذلك وقلبه ممتلئ تكبّراً وحُبّاً للظهور.

الإخلاق طريق النجاة

يحكى أنّ أحد العلماء الزهّاد سافر إلى بلد ما، وكان معروفاً فطلب منه أهل ذلك البلد أن يؤمّهم فى الجماعة طيلة المدّة التى يقيمها عندهم، فلبّى طلبهم وذهب ليصلّى فى المكان المقرّر، وكان المصلّى بعيداً عن بيته فاستقلّ دابّته واتّجه لأداء الصلاة، ولكن الدابّة عثرت به وسط الطريق فسقط وشجّ رأسه، فعادوا به إلى البيت، وضمّدوا جرحه، ومكث فى البيت مدّة لا يستطيع الخروج ليؤمّ المصلّين.

وبلغه خلال هذه المدّة أنّ الحسّاد الذين كانوا منزعجين ومتضايقين لموافقته أن يكون هو الإمام قد أشاعوا بين الناس أنّ الشيخ قد جُنّ على أثر الضربة التى أصابت رأسه عندما عثرت به الدابّة!

وخبر كهذا عادةً ما يكون ثقيلاً على شخص كهذا؛ فبعد خمسين سنة من التعب والدراسة وعناء الاستقامة ثم يقال عنه: مجنون. كما أنّ انطلاء مثل هذه الإشاعة على كثير من الناس يكون أسرع من النار فى الهشيم، لأنّ بعض صور الحدث كالسقوط وشجّ الرأس إضافة إلى عدم حضوره للصلاة، يقوّى ميل كثير من الناس للتصديق بمثل هذه الإشاعات.

ولكن بعد أن تماثل الشيخ للشفاء وعاده بعض أصدقائه وعرضوا عليه أن يعود ويلبّى طلبهم فى امامة الجماعة، وطمأنوه أنّ الإشاعة لم تؤثّر فى الناس، استجاب الشيخ لرغبتهم وركب دابّته متّجهاً إلى المسجد، فهاله حشود الناس مجتمعين بأعداد غفيرة على جانبى الطريق لاستقباله، فتوقّف قليلاً ثم طلب من مرافقيه أن يسمحوا له بالعودة إلى بيته لتراجعه عن عزمه فى إمامة المصلّين، ولم تنفع معه توسّلات المتوسّلين وقولهم له أنّ الناس ينتظرونه ولا يصحّ منه التراجع. مكتفياً بالقول أنّ حاله ليس على ما يرام، وأنّه لا يستطيع الاستجابة.

وبعد أن عاد إلى البيت جاءه بعض أصدقائه المقرّبين وسألوه عن السبب الذى دعاه للانصراف، وأصرّوا عليه فى ذلك. فقال فى جوابهم: عندما خرجت من البيت متّجهاً لأداء الصلاة، ورأيت الألوف من الناس بانتظارى قلت مع نفسى: أين أولئك الذين أشاعوا أنّنى صرت مجنوناً؟ فليأتوا ويروا بأمّ أعينهم كيف أنّ الجماهير لم تصدّق أكاذيبهم، ولم تؤثّر فيهم إشاعتهم، وها هى تستقبلنى بالألوف.

يقول: ثم انتبهتُ فجأة وخاطبتُ نفسى قائلاً: يا شيخ! أتصلّى لله أم للناس؟! فقرّرت أن لا أحضر تلك الصلاة.

إنّ نكران الذات والإخلاص لله تعالى هو الانتباه لمثل هذه الحالات، فإنّ هذا العالم إنّما رفض أن يؤمّ المصلّين الذين كانوا بانتظاره لمجرّد أنّ خاطراً شيطانياً خطر إلى ذهنه، فحاربه لأنّه كان يدرك أنّ هذا هو الذى يهدم كلَّ ما بناه.

من أمثال هذا يمكن أن نفهم قول الإمام السجاد سلام الله عليه: «إنّ العلم إذا لم يعمل به لم يزدد صاحبه من الله إلّا بعداً».

فإن كان العلم موجوداً وهو نتيجة أتعاب خمسين سنة أو أكثر ولكنّه كان من دون عمل فإنّه سيكون وبالاً على صاحبه.

ولا نعنى بالعمل أداء المستحبّات فضلاً عن الواجبات كصلاة الليل وزيارة المعصوم، وإن كانت مطلوبة أيضاً، وإنّما المقصود اتّخاذ الموقف الصحيح المستند إلى العلم، كما فى المثال المذكور آنفاً، وإلّا لو خُلّينا والفهم السطحى للحديث فإنّ ذلك العالم كان تاركاً للعمل المستحبّ وهو إمامة الجماعة، ولكن الحقيقة أنّه كان يعرف أنّ فى عدم الذهاب محاربة لنفسه وعدم الاستجابة لخواطرها

الشيطانية، وهذا هو المقصود بالعمل في قول الإمام سلام الله عليه. فليكن الإنسان هو الحكم على نفسه فكلّ إنسان على نفسه بصيرة وليفكّر بعقله ويستنبط الموقف الصحيح ويحاول أن يُطبّقه على نفسه، بمقتضى تشخيصه وعلى قدر وسعه? لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا. ?فإنّ الله لم يُرد من الشيخ الأنصاري مثلًا إلّا بالمقدار الذي كان يشعر به ويتوصّل إليه، وكذلك لا يريد منكم إلّا المقدار الذي تتوصّلون إليه؛ لأنّ المهمّ في الأمر أن يطبّق الإنسان علمه على نفسه متحرّياً الإخلاص في كلّ حال وأن لا يكون همّه الناس وما سوى الله، وأن يَعلم بعد ذلك «أنّ الله يغفر للجاهل سبعين ذنباً قبل أن يغفر للعالِم ذنباً واحداً». وليس المقصود بالعالِم مرجع التقليد فقط بل كلُّ عالم على قدره.

النتيجة

لقد ترك كلّ واحد منكم وراءه العشرات بل المئات من القضايا والاحتياجات المالية والعائلية والاجتماعية وغيرها، إضافة إلى غضّ النظر عن أمور أخرى مختلفة، كلّ ذلك في سبيل العلم، ونِعم ما تفعلون، وأبارك لكم هذا التوفيق، وحقّاً إنّه لتوفيق عظيم. فما أكثر الناس المحرومين من هذا التوفيق الذي وفّقكم الله له، ولكن حاولوا أن تستفيدوا من هذا العناء وهذه التضحيات، واعلموا أنّ ذلك لا يتأتّى عن طريق العلم وحده، فليس بالعلم الاكتسابي فقط تُنال الدرجات، بل العلم الحقيقي هو ذلك النور الذي يقذفه الله عزّ وجلّ في قلب من أراد الهداية وسعى لها.

المطلوب أن لا يستعظم الإنسان نفسه إذا ازداد علماً، بل عليه أن لا يجد فرقاً بين اليوم الذي كان يدرس فيه كتب المقدّمات واليوم الذي أصبح فيه مرجعاً للتقليد أو مدرّساً كبيراً في الحوزة العلمية أو غير ذلك.

قد يكون الإنسان ذكيّاً ولا يدَع أحداً من الناس يعلم أنّ فيه كبراً مثلًا لكنّه هو يعلم ذلك من نفسه، فالله تعالى أعلم بما توسوس به نفوسنا، وكما ورد في وصية لقمان لابنه: «الناقد بصير» وإنّه سيكافَأ كلٌّ منّا على قدر إخلاصه الذي يثبت عند الله وليس الذي يدّعيه الشخص أو يصوّره للناس، ولذلك أُعطِي الشيخ الأنصاري ما اضطرّ إلى التصريح ببعضه مرّة في قصّة السيّد علي الشوشتري كما تقدّم فهل نكون كذلك أم نصاب لا سمح الله بالغرور الذي يُنسي ذكر الله تعالى فينسينا أنفسنا.

(۴) الفرق بين الأخلاق والعلوم الأخرى

(۴) الفرق بين الأخلاق والعلوم الأخرى

هناك فروق واضحة بين الأخلاق والعلوم الأخرى، نذكر فيما يلي بعضها:

۱. رمزية الأخلاق

إنّ مَن يتخصّص في علم واحد ويستفرغ كلَّ وسعه وجهده يبلغ أعلى الدرجات فيه ويتفوَّق غالباً على مَن كان ذلك العلم أحد اهتماماته، والأخلاق تحتاج إلى التفرّغ والجدّ والمثابرة من أجل بلوغ المراتب العالية فيها. فالمستوى الذي يبلغه الأخلاقي وطالب العلم الدينيّ خاصة يؤثّر في أداء دوره في المجتمع. فقوله وفعله وسيرته وتاريخه يشجّع الناس نحو الفضائل الأخلاقيّة والاجتناب عن رذائلها إذا كان هو من أهل الفضيلة، ولكن إن كان عكس ذلك فسيدفع الآخرين إلى العكس أيضاً.

يقول الشهيد الثاني الشيخ زين الدين العاملي قدس سره الشريف في كتابه منية المريد:

«واعلم أنّ المتلبّس بالعلم» أي طالب العلم الديني «منظور إليه» أي ينظر إليه الناس «ومتأسّىً بفعله وقوله وهيئته» أي يُتخذ أسوة وقدوة «فإذا حسن سمته، وصلحت أحواله، وتواضعت نفسه، وأخلص لله تعالى عمله، انتقلت أوصافه إلى غيره من الرعية، وفشا الخير فيهم

وانتظمت أحوالهم. ومتى لم يكن كـذلك» أي لم يلتزم بالفضائل «كان الناس دونه في المرتبة التي هو عليها» أي أنّ الناس لا يلتزمون حينئذ حتى بالواجبات والمحرّمات، «فكان مع فساد نفسه، منشأً لفساد النوع وخلله» خلافاً لعامّة الناس. «وناهيك بذلك ذنباً وطرداً عن الحق وبعداً».

ثم يقول بعد ذلك:

«وقد قال بعض العارفين: إنّ عامّة الناس أبداً» أي دائماً «دون المتلبّس بالعلم بمرتبة» أي: هم أدنى منه بدرجة.

«فـإذا كـان» طـالب العلم «ورعـاً تقيّاً صالحـاً» أي ملتزمـاً بالفضائـل فوق التزامه بالواجبات والمحرمات «تلبّست العامّـة بالمباحات، وإذا اشتغل بالمباح تلبّست العامّة بالشبهات، فإن دخل في الشبهات تعلّق العامّي بالحرام، فإنْ تناولَ الحرام كفَر العامّيُّ».

إذاً لاـ ينبغي لطـالب العلم أن يفعـل المكروهـات بـدعوى أنّ كلَّ مكروه جائز، ولا يترك المسـتحبّات بـدعوى أنّ كلّ مسـتحبّ جائز الترك؛ لأنّ ذلك سيكون سبباً في تساهل العاميّ حتى في الواجبات والمحرّمات.

أمّا إذا عمل طالب العلم بالفضائل أي إنه ترَك المكروهات وأتى بالمسـتحبّات ولم يتوقّف عند مسـتوى التقيّد بالواجبات والمحرّمات فقط فهذا يوجب أن تكون العامّة عدولاً، أي ملتزمين بالحدود الشرعية بأجمعها.

لاـ ينبغي لطـالب العلم الـديني أن يقـول: إنّ حسن الخُلـق جيّـد ولكنه ليس بـواجب فلمـاذا ألـتزم به؟ أو إنّ سوء الخُلق في حـدود منه مكروه، فلماذا ألتزم بتركه؟ والصـلاة في أوّل الوقت فضـيلة ولكنه ليس بواجب، فلا يخلّ بعـدالتي لو تسامحتُ به، وهكـذا ... متذرّعاً بالقول: «إنّ أتقى الناس مَن عمل بالواجبات».

فلو توقّف العالِم أو طالب العلم عنـد هـذا الحدّ، فإنّ الوسط الذي يعيش فيه والأشـخاص الذين يشـهدون سـيرته لا يتوقّفون عند ذلك الحـدّ، لأنهم دونه بدرجـة، وليست تلك الدرجة هنا إلّا التورّط بالمعاصـي وترك الواجبات؛ لأنّ العامّي إذا رأى قدوته يصـلّي صـلاة الصبح قبيل طلوع الشمس بلحظات مثلاً فسيستهين هو بالواجب نفسه، وإذا رآه يفعل مكروهاً، فإنّه سيتهاون بالحرام ولسان حاله يقول: هذا رجل عالِم أو سيّد فاضل وهو يفعل كذا أو يترك كذا، فماذا يُنتظر مني؛ وأنا شخص عادي؟

أمّا لو تورّط المتلبّس بلباس أهل العلم بترك الواجب أو فعل المحرّم، كما لو قتل إنساناً ظلماً أو اغتاب أو اتّهم مؤمناً، فإنّ عامّـة الناس سيكفرون حينئذ.

إذاً على طـالب العلم أن يولي الالـتزام بالفضائل والأخلاق عنايـة خاصّـة لأنّه كلّما ارتفع مسـتواه فيهما ارتفع مسـتوى التزام الناس بهما بالتبع.

وهذا أحد الفروق التي تميّز الأخلاق عن سائر العلوم والفنون كالفقه والأصول والبلاغة والفلسفة والخطابة وغيرها.

۲. صعوبة الارتقاء

الفرق الآخر بين الأخلاق والعلوم الأخرى يكمن في صعوبته قياساً بها، فالرقيّ في الأخلاق أصـعب منه في العلوم الأخرى. فهو أصعب حتى من الفقه الذي يُعدّ من أصـعب العلوم؛ لسـعة آفاقه وكثرة مسائله. ولذلك ترى الفقيه يتفرّغ خمسـين سـنة للفقه ومع ذلك عندما تسأله عن بعض المسائل يقول لك يلزم أن أراجع. ونادراً ما تجـد فقيهاً مجتهـداً بالفعل في جميع مسائل الفقه أي يملك قوّة اسـتنباط فعلية بحيث عندما تعرض عليه أيّة مسألة يتمكّن أن يخرجها حالاً.

لقـد رأيت عـدّة مجتهدين معروفين بالفقه طُرحت عليهم مسائل ولم يتردّدوا في قول «لا أدري»، مع أنّ بعضـهم قضـى ثمانين سـنة في الفقه، فكيف لا يدري وماذا كان يعمل طيلة هذه المدّة؟

الجواب: إنّ الفقه واسع وعميق، ولـذلك ترى الألوف من طلاب العلوم الدينيـة يبدأون دراسـتهم مؤمّلين أن يصـبحوا فقهاء مجتهدين متبحّرين، ولكن كلّما يتقدّمون في مسـيرتهم يجدون صـعوبات وصعوبات، فيتناقص العدد المتّجه إلى هذا الهدف، فينحو أكثرهم نحو

التخصّص في مجالات أخرى كالخطابة أو التأليف أو التدريس، مثلاً.

فلو فرضنا أنّ الذين بدأوا بهذه النيّة كانوا ألفاً فإنّ مئة منهم سيتركون مواصلة الدراسة بعد مرور سنتين، وهكذا يستمرّ العدد بالتناقص مع مرور السنوات حتى لا يبقى من الألف الذين بدأوا دراستهم بهذه النيّة سوى عشرين أو ثلاثين شخصاً فقط.

قال لي شخص قضى عشرين سنة في الدراسة: لقد يئست من أن أكون مجتهداً، لأن كلّ مسألة أواجهها أجد فيها صعوبة بالغة. فقلت له: لا تيأس.

إنّ من جملة ما جعل مرتبة الاجتهاد الفقهي صعبة المنال كون النتيجة فيه لا تحصل بسرعة، قياساً بالفنون الأخرى، فإنّ الدراسة والتفرّغ والتركيز لمدّة سنتين قد تكفي لأن يصبح الشخص الذكيّ خطيباً يرتقي المنبر ويستمع إليه الألوف من الناس.

وهكذا الحال بالنسبة لوكلاء المراجع. فمَن أراد أن يصير وكيلاً في منطقته أو مدينته، يأتي إلى إحدى الحواضر العلمية كقم المشرّفة فيدرس خمس سنوات أو عشراً مثلاً يتعلّم خلالها الرسالة العملية وشرائع الإسلام والعروة الوثقى وبعض الأخلاقيات ويصبح رجلاً صالحاً ثم يعود إلى بلده بعد أن يعطيه أحد المراجع وكالة عنه، وهكذا يحصل على نتيجة أتعابه بعد عشر سنين.

أمّا إذا أردت أن تصير فقيهاً فإنّ ذلك يتطلّب منك دراسة متواصلة لمدّة عشرين وربّما ثلاثين سنة، لا لكي تلمس النتائج بل لتواجه المشاكل أوّلاً. وهذا يتطلب حقّاً شخصاً لا طمع له في أيّ نفع أبداً، بل يثابر على الدرس ولا ييأس. ومن هنا كان الاجتهاد في الفقه عملاً بالغ الصعوبة.

ولكن رغم ذلك تجد أنّ الأخلاق أصعب من الفقه لأنّ الأخلاق تعني تهذيب النفس وبناءها، وقد قال بعض اهل الخبرة: من الصعب أن يصبح المرء مجتهداً ولكن من الأصعب أن يصير إنساناً. وبعضهم قال: بل من المستحيل. ولا شكّ أنّ المقصود بالاستحالة هنا ليس الاستحالة العقلية بل كون القضية بالغة الصعوبة.

إنّ الارتقاء في الأخلاق والفضائل أصعب من الاجتهاد في الفقه؛ وإنّ ثمرته ونتيجته أبعد منالاً وأعسر حصولاً من الفقه. فلا يلمس المرء نتيجة سعيه إلّا عندما يصبح ذا قلب سليم وتصبح الأخلاق والفضائل ملكات لديه، عندها يشعر بلذّة الأخلاق والوصول إلى مراتبها العالية، وعندها يعرف قيمة ترويض النفس ومخالفة الشهوات.

ولا تصبح الأخلاق ملَكة عند الشخص إلّا بعد أن يحارب نفسه ويخالفها، ويستمرّ في مخالفتها حتى تنمو عنده ملَكة حبّ الخير في كلّ أبعاده. فإذا حصل على الملَكة شعر باللذّة وبدأ يلمس نتيجة أتعابه في مجال الأخلاق والفضائل. وهذا لا يحصل بصورة سريعة بل هو بحاجة إلى وقت يستغرق عمر الفرد؛ لذلك أصبح الارتقاء في مدارج الأخلاق صعباً بل أصعب من الاجتهاد في الفقه. وخير دليل على ذلك، ما نلمسه في الواقع الخارجي، حين نرى أنّ عدد مَن بلغوا مرتبة الإنسان المتّزن أندر من عدد المجتهدين.

فالتحلّي بالأخلاق أمر صعب وروّاده قليلون. وإلّا فمَن من الناس لا يحبّ أن يصبح ذا فضائل، ولكن صعوبة الطريق وطول أمده في الوصول إلى النتيجة المرجوّة تصرفهم عن الاستمرار في المواصلة، لأنّ الإنسان بطبعه يتعجّل النتائج.

ولا نقصد بصعوبة الأخلاق صعوبة تلقّي دروسها كمطالعة كتاب جامع السعادات أو إلقاء المحاضرات الأخلاقية أو الاستماع إليها.. فهذه إنّما تمثّل علم الأخلاق، ولكنّ المقصود صعوبة العمل.

كما لا يعني أن ينصرف المرء عن الأخلاق لصعوبتها، وإنّما يلزم أن يهتمّ بها أكثر، لأنّ الطالب إذا استسهل الأخلاق وتهاون بها، لا يستطيع مواصلة المشوار؛ لما سيواجه من صعوبات. فإنّنا ننبّه في البداية على الصعوبات وطول الطريق ليأخذ الطالب استعداده ويشمّر عن ساعد الجدّ ويحسب للأمر حسابه؛ فإنّ نتيجة الأخلاق لا تظهر سريعاً، ولذّة الإحساس بالسموّ الروحي لا تحصل إلّا بعد عناء وصمود.

۳. فقدان عامل التشجيع

من الفوارق الأخرى بين الأخلاق والعلوم الأخرى أنّ الإنسان قد جُبل على حبّ التشجيع، ويكفى به وازعاً لتقدّمه فى مختلف مجالات الحياة، غير أنّ مَن يسلك طريق الرقيّ فى الأخلاق عليه أن لا يترقّب التشجيع من أحد، بل ليتوقّع التثبيط أيضاً. فهذا حال المجتمع فى الغالب.

فطالب العلم قد يعكف على مادّة درسه عدّة ساعات حتى يتقنها، ثم يأتى فى اليوم التالى ليجيب على أسئلة أستاذه، فيعرف الأستاذ حينها ومن خلال الإجابة أنّ هذا الطالب قد طالع درسه بدقّة حتى استوعبه، فيشجّعه بالقول: أحسنت، اِستمرَّ على هذا المنوال، وكلّما حصل لديك سؤال حاول أن تطرحه للمناقشة. وهكذا يستمرّ الطالب بالتشجيع حتى يتفوّق، ثم يقوم بتدريس المادّة نفسها بعد أن يبلغ فيها المستوى المطلوب.

أمّا فى الأخلاق والالتزام بالفضائل فالأمر مختلف تماماً، لأنّ معظم الناس يثبّطون المرء ولا يشجّعونه فى الاستمرار. مثلاً، لو حدث شجار بينك وبين أحد أرحامك، وأردت أن تضغط على نفسك لتصله، وقرّرت أن تزوره لتسدل الستار على ما حدث بينكما، فإنّ معظم من يحيط بك قد لا يشجّعك بل يضع أمامك مختلف الأعذار والعراقيل.

•يُذكر أنّ أحد مراجع التقليد ابتلى بشخص كان يشتمه ويسيء الأدب فى الكلام معه حتى فى المجالس العامّة، ويبدو أنّه كان من حاشيته. فاتّفق يوماً أن رأى المرجع وحيداً، فانتهز الفرصة وشكا له الحاجة إلى المال، حينها لم يبخل عليه المرجع بل أغدق عليه ولم يردّه، ولكنّ العجيب أنّ هذا الشخص لم يكفّ عن سوء أدبه مع المرجع والجرأة على انتقاصه، بل أخذ يقول: إنّ فلاناً أعطانى المال ليسدّ فمى، وإنّ عطاءه هذا لم يكن لله، وليته يعلم أنّ فمى لا يغلقه المال!

وعندما بلغ الخبرُ بعض أصحاب ذلك المرجع، تأثّروا كثيراً وعقدوا العزم فى انتداب أحدهم ليكلّم المرجع.

وبالفعل توجّه المنتدَب إلى المرجع وسأله إن كان قد أعطى فلاناً مالاً؟!

فقال: ولِمَ؟ وما الذى حدث؟

عندها قال الشخص: أتعلمون سماحتكم أنّه كان يشتمكم؟

قال: نعم.

قال: وتدرون أنّه لا يزال يشتمكم ويدّعى أنّكم لم تعطوه المال قربةً لله بل ثمناً لسكوته أو رياءً؟

وأضاف مسترسلاً: هب أنّا لا نقول أنّك عالِم دينىّ ومرجع تقليد، أفلا نقول أنّك رجل مؤمن؟ أفيصحّ تشجيع مَن يسبّ مؤمناً؟ ألا يعدّ إعطاؤكم المال لذلك الشخص تشجيعاً له؟! أليس فى عملكم هذا اغواء له على إهانة العلماء وتشجيع للآخرين لكى يحذوا حذوه، فتستمرّ هذه الطريقة حتى بعد وفاتكم؟ و ...و...

وهنا رفع المرجع رأسه وقال: أنا أسألك عن شيء: هل هذا الرجل متزوّج؟

أجاب: نعم، وله أولاد.

قال المرجع: وكيف وضعه المادّى؛ أهو فقير أم غنىّ؟

قال: بل فقير، لا يملك داراً، بل هو مستأجر لها.

فقال المرجع: لنفرض أنّه ارتكب حراماً إذ شتمنى، ولكن ما ذنب زوجته وأطفاله إذا كان سيعود إليهم فى المساء ولا مال عنده يقوتهم به؟!

•ثمّ مثال آخر: لماذا نرى عدد طلاب العلوم الدينية قليلاً جداً بالقياس لعدد طلّاب العلوم الحديثة؟ هل لأنّ الأمّة فى غنى عن المرشدين وأنّ الحاجة إليهم أقلّ من العدد الموجود؟!

إنّ السبب هو أنّ التشجيع نحو طلب العلم الدينى أقلّ من التشجيع نحو طلب العلوم الحديثة. فلو أراد أب إرسال ولده الى الحوزة لتلقّى العلوم الدينية فإنّ أغلب أفراد العائلة والأقارب سيعارضون أو يبدون عدم ارتياحهم، وربما نجحوا فى ثنيه عن قراره، ولكن لو

انصرف الابن إلى التحصيل فى المدارس الحديثة وأراد أن يتعلّم إحدى المهن مثلاً فإنّ جلّ أفراد العائلة والأقرباء يشجّعونه ويقولون: إنّ من الضرورى له ذلك لكى يتخرّج مهندساً أو طبيباً وما أشبه. وهذا يدلّ على أنّ التشجيع نحو المدارس الحديثة موجود، خلافاً للمدارس الدينية حيث تنتظر التثبيط أكثر من التشجيع! ناهيك عن الضمان الاجتماعى الذى تمنحه الدولة لموظّفيها، بينما هذا القدر غير متوفّر لطالب العلم.

وهكذا هو واقع الحال بالنسبة للأمور الأخلاقية. فلو نوى الإنسان أن يصبر أو يصدق فى الحديث أو يفى بالوعد فى الموارد التى تتزاحم مع مصالحه الشخصية، أو تتعارض مع أهواء الناس وميولهم غير المشروعة، فإنّ معظمهم يحاولون ثنيه؛ ولذلك يحتاج الالتزام بالأخلاق والفضائل والرقىّ فيهما إلى تقوى وصبر وصمود وتركيز ومثابرة.

۴. التمويه ومحاولة الإيقاع فى الشبهات

فرق آخر بين الأخلاق وغيره هو مزاحمة الشبهات وانقلاب كثير من الفضائل رذائل، وهذا ما يستغلّه المثبّطون عادة للتمويه على من يريد التحلّى بإحدى الفضائل إلى. فمثلاً الصبر فضيلة ولكن قد يُقلب إلى ذلّ، والذلّ رذيلة. فإذا عزم المرء على الصبر فى موقف ما وكان صحيحاً وفى موضعه، قد يجد من يقول له: صحيحٌ أنّ الصبر حسنٌ ولكن هذا ليس موضعه، بل هذا ذلّ منك، وربّما ذكر له الحديث المروىّ عن الإمام الصادق سلام الله عليه: «إن الله عزّ وجلّ فوّض إلى المؤمن أموره كلّها، ولم يفوّض إليه أن يكون ذليلاً». حقّاً هذا هو الفخّ الذى هلك فيه خلق كثير.

مثال آخر: الكرم خلق محمود. ولكن ما أكثر الحالات التى يقوم المرء فيها بعمل كريم وفى موضعه، ولكن يرى كثيرين يصوّرونه له من الإسراف والتبذير الممقوت.

أتذكّر أن أحد الإخوان أهدى دورة من كتاب بحار الأنوار إلى مكتبة عامّة فى كربلاء المقدسة، ولم تكن الدورة مطبوعة بالكامل يومذاك بل لم تبلغ مجموع الأجزاء الصادرة عشرين جزءاً، ولم تزد قيمتها على عشرة دنانير، وكان الراتب الشهرى للطالب يومذاك ديناراً واحداً، فكان ذلك الأخ يوفّر بعض راتبه لشراء الكتب ومنها اشترى هذه الأجزاء التى أهداها للمكتبة. فانبرى شخص من أهل العلم موجّهاً الى الشخصَ المُهدى تأنيباً شديداً قائلاً له: أتزعم أنّك قمت بعمل جيّد؟ وهل هذا مطلوب منك؟ من المفترض أن تتعلّم موضع الكرم أوّلاً! ... واستمرّ فى تقريعه كأنّه ارتكب إثماً.

وهكذا الحال لو أراد الإنسان الإيثار أو التحلّى بأىّ من الأخلاق الحميدة، ربّما لا يدَعه مَن حوله حتى يشتبه عليه الأمر.

وهذا الفرق يختلف عن السابق لأنّه كان تثبيطاً مجرّداً، أمّا هذا فتمويه أيضاً.

وهنا يكمن منشأ كثير من البدع الموجودة، وما نشهده من صراعات بين المؤمنين، فهل تظنّون أنّ أطراف الصراعات كلّهم يدركون نتائج عملهم، ويعلمون أنّه عصيان؟! كلّا، بل كثير منهم يزيَّن له أسلوبه ويتصوّر أنّه على حقّ.

قيل: إنّ شخصاً كان يقول: أنا أتجاوز عن كلّ من يغتابنى إلاّ الذى يفسّقنى أوّلاً ثم يغتابنى، فإنّى لا أتجاوز عنه.

فبعض الناس لو قلت له: لماذا تغتاب، أجابك: ماذا نفعل وقد اعتدنا على ذلك، ثم يستغفر الله تعالى. ولكن بعضاً آخر قد يدّعى أنّ هذا من مستثنيات الغيبة، وأنّ الشخص الذى يغتابه فاسق متجاهر بالفسق وأنّه من الذين تجوز غيبتهم ليحذّر الناس منه، أو يصوّر لك الرجل الذى يغتابه مبتدعاً من دون قرينة أو دليل وقد يأتيك بحديث «باهتوهم كيلا يطمعوا فى الفساد فى الإسلام، ويحذرهم الناس ولا يتعلّموا من بدعهم»، ليدعم به غيبته.

الخلاصة

هذه بعض الفوارق بين علم الأخلاق وبين العلوم الأخرى، ولكى نجنّب أنفسنا من الوقوع فى الشبهات نحتاج مع السعى الى قسط وافر

من التوسل إلى الله تعالى والاستمداد منه. لأننا من دون عون الله تعالى وحفظه وعصمته، لا نستطيع أن نعمل شيئاً ولا أن نصل إلى نتيجة.

وينبغى أيضاً أن نركّز على الأخلاق حتى نصبح كذى الفنّ الواحد، لنحصل على ملَكة الفضائل، والقلب السليم، فإنّه الاستثناء الوحيد النافع فى الآية المباركة?: يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ? إلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ. ?فبهذا القلب السليم نستطيع تخطّى تثبيط الناس وتمويه النفس الأمّارة بالسوء.

فمتى أيقنّا أنّ طريق الأخلاق صعب وشائك وأنّه بحاجة إلى صبر واستمداد من الله قبل ذلك كلّه، وأنّ علينا أن نحذر الانزلاق دوماً، فلنعلم حينئذ أنّنا قد بدأنا بسلوك الطريق، وأنّنا سوف نصل بالتوكل على الله تعالى إلى الغاية المتوخّاة من بعثة الرسول الأعظم، فلقد قال صلى الله عليه وآله: «إنّما بُعثتُ لأتمّم مكارم الأخلاق».

(۵) بالعمل يكون التأثير للقول

(۵) بالعمل يكون التأثير للقول

قال الله تعالى فى كتابه الكريم?: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ? كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ.?

المفهوم من الآية الكريمة أنّ الله تعالى يمقت الذين يقولون ما لا يفعلون. بيد أنّ ههنا مسألتين لا ينبغى الخلط بينهما:

الأولى: أخلاقية، وهى قبح مناقضة القول للعمل.

أمّا المسألة الثانية: فهى مسألة شرعية، وهى عدم سقوط وجوب القول بذريعة عدم العمل به.

فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبان حتّى على الشخص الذى لا يعمل بالمعروف ولا ينتهى عن المنكر. ولنأخذ الصلاة مثالاً للمعروف، وشرب الخمر مثالاًـ للمنكر. فإنّ على كلّ مكلّف فى كلٍّ منهما واجبين: الإتيان بالصلاة والأمر بها، وترك شرب الخمر والنهى عنه. فمَن ترك الصلاة ولم يأمر بها ارتكب إثمين، ومَن شرب الخمر ولم ينه عنه أتى بمعصيتين، وإن كان مَن يأمر بالصلاة وهو تارك لها، أو ينهى عن الخمر ولا ينتهى عنه، قد استحقّ سخط الله؛ لقوله تعالى?: كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ، ?إلاّ أنّ ذلك لا يعنى سقوط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بحال، فهما واجبان برأسهما يحاسب المكلّف على تركهما كما يحاسب على ترك سائر الواجبات وارتكاب سائر المحرّمات.

اقتران القول بالعمل

ذكرنا هذا لبيان حقيقة شرعية قد تغيب عن بعض الأذهان. أمّا الحقيقة الأخلاقية التى ينبغى الإشارة إليها فى ظلّ الآية المباركة فهى أنّ القول الذى لا يعمل به صاحبه لا يكون منبعثاً من القلب، وما لم يكن منبعثاً من القلب لا يقع فى القلب، أى لا يؤثّر غالباً.

وقيّدنا ب «غالباً»، لما روى فى الحديث الشريف: «أنّ أناساً من أهل الجنّة اطّلعوا على أناس من أهل النار، فقالوا لهم: قد كنتم تأمروننا بأشياء عملناها فدخلنا الجنّة. فقالوا: كنّا نأمركم بها ونخالف إلى غيرها». وهذا يدلّ أنّ القول قد يؤثّر أحياناً وإن لم يكن صاحبه عاملاً به.

ولكن ينبغى أن يُعلم أنّ هذا الحديث لا يتنافى مع الأحاديث التى تقول: إنّ القول الذى لم يعمل به صاحبه لا يؤثّر فى غيره؛ ذلك أنّ المقصود منها الغالب، أو أنّ مثل ذلك القول بمفرده لا يربّى.

ولكن يبقى هذا الحديث نذيراً لأهل العلم والمتصدّين لهداية الناس، بل هو من قواصم الظهر حقّاً إن لم يُلتفت إليه!

إنّ كثيراً من العبارات الجميلة التى تُنسب لبعض الحكماء أو المفكّرين ترى لها أصلاً فى كلمات أئمّة أهل البيت سلام الله عليهم، فإن

لم تکن بـالنصّ فبـالمعنى؛ ذلک أنّ أهل البیت سـلام الله علیهم ما ترکوا شـیئاً حسـناً وجمیلاً إلاّ أمروا به ودعَوا إلیه، وما من سیّئة إلاّ ذمّوهـا ونهوا عنهـا، ولـذلک یجـد الباحث کلّ العبارات الصائبـة والجمیلـة للحکماء مقتبسـة من کلمات الرّسول وأئمّـة الهـدى علیهم الصلاة والسلام.

إنّ الناس لا یکونون کما تقولون، بقدر ما یکونون کما تکونون، إنّهم یأخذون من سیرتکم أکثر ممّا یأخذون من أقوالکم.

وهـذا ما یراه کلّ منّا فی نفسه، فإنّ الأشـخاص الـذین نراهم طیّبین أو کنّا نراهم کـذلک وانتقلوا إلى الدار الآخرة إنّما تأثّرنا بسـیرتهم أکثر ممّـا تأثّرنـا بکلمـاتهم، ومـا تأثُّرنا بکلماتهم إلاّ لأنّها طابقت أفعالهم. وبعبارة: إنّ کلماتهم التی نعتقـد أنّها تتطابق مع سـیرتهم هی التی أثّرت فینا وربّما غیّرتنا.

بین التربیة والترویض

إنّ الآیـة التی صـدّرنا بهـا الکلام لا تعنی الکفّ عن القول مطلقاً بل هی بصـدد تحریضـنا على العمل إلى جانب القول. فالقول شـیء سهل، ولکن الالتزام به والعمل بمقتضاه ربّما کان صـعباً یحتاج إلى إرادة قویة وممارسة وسـعی دون یأس أو فتور إلى جانب الاستعانة الصادقة بالله سبحانه وتعالى.

روى الـدیلمی فی «إرشـاد القلوب»؛ قال: «کان بعض العلماء یقـدّم تلمیـذاً له على سائر تلامیـذه. فلاموه على ذلک، فأعطى کلَّ واحد منهم طیراً وقال: اذبحه فی مکان لا یراک فیه أحد، فجاءوا کلّهم بطیورهم وقد ذبحوها، لکن ذلک التلمیذ جاء بطیره وهو غیر مذبوح، فقال له: لِمَ لم تـذبحه؟ قال: لقولک: لا تـذبحه إلاّ فی موضع لا یراک فیه أحـد، وما من مکان إلاّ یرانی فیه الله. فقال له: أحسـنت. ثم قال لهم: لهذا فضّلته علیکم ومیّزته منکم».

یظهر أنّ هـذا الأسـتاذ کان مربّیاً ولیس أسـتاذاً فی الـدروس المقرّرة کالفقه والأصول والنحو حسب، فلم یکن یرى واجبه منحصـراً فی إلقاء الدروس وإنما بتربیة التلامیذ أیضاً. ولهذا کثیراً ما نقرأ عن بعض العلماء الماضـین رضوان الله تعالى علیهم کیف أنّه کان متعایشاً مع تلامیذه فی السـفر والحضر، أو أنّ التلمیذ کان یرى نفسه خادماً بین یدی أستاذه، کنتیجة حتمیّة للتفاعل الروحی الذی یکون سائداً بین أستاذ کهذا وتلامیذه.

فهـذا الطراز الرفیع من الأساتـذة کان یربّی ذلک الطراز الجیّد من التلامیذ؛ والذین کان منهم ذاک التلمیذ الذی ضـرب أروع مثل فی تنبیه الغافلین عن الله تعالى.

وقد یکون الأسـتاذ جیّداً، لکن یوجد فی تلامیذه من لیس بجیّد. فهل هناک معلّم أفضل من رسول الله صلى الله علیه وآله؟ ومع ذلک نرى فی أصحابه مَن له القِدم ولیس له القَدم، أی لیس على شیء، فمع أنّ بعضهم صحب الرسول صلى الله علیه وآله أکثر من عشرین سنـة، إلاّـ أنـا نراه داخلاًـ فی قول الله تعـالى?: وَمَـا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَـدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِکُمْ،? فکان من المنقلبین. فربّ أسـتاذ جیّـد وتلمیذه ردیء، وربّ أسـتاذ غیر لائق لکن تلمیذه یلتقط الدرر، لما لدیه من اسـتعداد نحو الرفعة والسموّ.

فإذا أردت أن یکون کلامک مؤثّراً فانظر إن کنت قـد عملت به فبها، وإن لم تکن قـد عملت به بعـدُ فحاول أن تعمل به قبل أن تتفوّه به، وکرّر المحاولاـت ولاـ تیـأس، لأـنّ الأمر ممکن وإن کان لا یخلو من صـعوبة. ولو راجع کلّ منّا نفسه بعـد کلّ قول یقوله ونظَر إن کـان قـد عمـل به أم لاـ لتعجّب من کثرة ما یصـدر عنه من أقوال مغایرة لأفعاله! وسیشـعر حینها بمسؤولیـة الکلمـة ومـدى خطورتها، محاولاً لأن یقترن کلامه مع عمله.

فالآیـة الکریمـة تحرّضـنا على أن نعمـل بما نقول، دون أن تنهانا عن القول وإن کنّا لم نعمل به بعـدُ؛ وذلک أنّ القول الحقّ بحـدّ ذاته واجب سواء فی الواجبـات أو المحرّمـات، وهو مـا یعبّر عنه الشـرع بالأـمر بـالمعروف والنهی عن المنکر. فـإنْ أمَر المکلّف بالمعروف

ونهى عن المنكر ولم يكن ممتثلاً بنفسه، خاطبته الآية محرّضة إيّاه على العمل بما يقول، مضافاً إلى أنّ قوله قد يكون قليل التأثير ما لم يكن مقترناً بالعمل.

ولا ينبغى الاستهانة بالتأثير لأنّ كلامنا إذا أثّر فى إنسان وعمل خيراً، فهذا يعنى امتداد الثواب لنا مادام أثره باقياً. فلو أنّ شخصاً اهتدى بكلماتك وتربّى بسببها، فهذا يعنى حصولك على الثواب كلّما عمل بها عملاً صالحاً دون أن ينقص من ثوابه شىء. فلو استفاد من كلامك الناس واستمرّوا لآلاف السنوات فإنّه يُكتب لك ثواب ذلك كلّه دون أن ينقص من ثوابهم شىء.

العلماء باقون ما بقى الدهر

على بن الحسين بن بابويه القمى أحد علمائنا، نلاحظ بقاء ذكر اسمه رغم مرور أكثر من عشرة قرون على وفاته حيث كان يعيش فى زمن الغيبة الصغرى ويعلم الله كم من الناس اهتدوا خلال هذه السنين برسالته تلك وعملوا بما جاء فيها، وكم كُتب له جرّاء ذلك من ثواب عند الله، فبقى حيّاً عند الله وعند الناس أجمعين، فأيّة حياة أطول وأكبر من هذه الحياة.

هذا فى حين نرى أنّ أكثر الناس يموت ذكره بموته، ولا يعود يعرفه أحد حتى من عقبه الخامس بل الرابع أحياناً! فلو أنّك سألت أكثر الناس عن اسم جدّه الخامس لما عرفه، بل إنّ بعض الأشخاص قد لا يعرف حتى اسم جدّه الرابع، فهو يعرف اسم أبيه وجدّه وجدّ أبيه (أى الجدّ الثانى) وجدّ جدّه (أى جدّه الثالث) ولكنّه لا يعرف أسماء مَن هم قبله مع أنّه قد لا يفصله عنه مئة وعشرون سنة. بل إنّ كثيراً من الناس قد لا يعرف حتى عن جدّه الثانى فى أىّ يوم توفى وفى أيّة بقعة دُفن؛ مع أنّ الفاصلة الزمانية قد لا تزيد على خمسين سنة!

الخلاصة

يمكننا أن نُبقى سجلّنا مفتوحاً تدرج فيه الحسنات، ليبقى معه ذكرنا خالداً ونظلّ أحياء عند الله وعند الناس إذا ما استطعنا أن نؤثّر بأقوالنا، خصوصاً إذا كانت مقترنة بالعمل، فلنحاول دائماً أن نعمل بما نقول، لا أن نترك القول بذريعة عدم العمل، فيكون الحال كما ذكرته الآية الكريمة?: كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ. ?وإذا راجعنا أنفسنا بعد كلّ قول شعرنا بمسؤولية الكلمة من جانب، وجدّدنا سعينا للالتزام بما نقول أيضاً، فيكون ذلك ترويضاً لنا، ولا شكّ أنّ مَن أراد شيئاً وعمل من أجله مستعيناً بالله تعالى بلغه أو اقترب منه.

فلو أنّ الإنسان تمرّن وروّض نفسه استطاع أن يفكّر فى كلّ كلمة قبل أن يطلقها، لشعوره بمسؤوليتها.

(۶) تذليل الصّعاب فى طلب العلم

(۶) تذليل الصّعاب فى طلب العلم

قيل: «لكل شىء آفة وللعلم آفات» وهذا القول يؤيّده الاعتبار العقلانى. أى أنّه صحيح خارجاً، فإنّنا نلاحظ فى الواقع الخارجى أنّ نسبة كبيرة ممّن بدأوا طريق العلم والدراسة بإصرار وصدق وإيمان لم يستمروا حتى النهاية، بينما النسبة الأقلّ هم الذين استطاعوا التغلّب على المشاكل الكثيرة التى تحفُّ طريق طلب العلم.

فإذا كانت المشاكل والعقبات فى طريق طلب العلم كثيرة فيما مضى، فإنّها اليوم أكثر. فأكبر مشكلة فى السابق كانت تتلخّص بعدم وجود الكتاب، وكون الكتب مخطوطة، فكان طالب العلم الذى يريد أن يقتنى كتاباً كالشرائع مثلاً أمام أحد خيارات:

●إمّا أن يستعير نسخة خطّية أو مستنسخة ثم يقوم بنسخها من أوّل الكتاب إلى آخره.

•أو أن يـدفع ثمنـاً باهضاً لشـراء نسـخة من الكتاب. وهـذا لم يكن ميسوراً لأكثر الطلّاب، فلا نبالغ إذا قلنا: إنّ تسـعين بالمئـة منهم لم يكونوا قادرين على توفير هذا الثمن.

•أو أن يجد مَن يتبرّع له بثمن الكتاب. وهذا أصعب الخيارات وأندرها تحقّقاً.

أمّا اليوم فبإمكـان غـالب طلّاب العلوم الدينيـة شـراء نسـخة من الكتاب الـذی يريـدون دراسته. إذاً يمكن القول: إنّ مشـكلة صـعوبة الحصول على الكتاب لم تعد اليوم موجودة.

ومن المشاكل التی كانت موجودة فی السابق، وقـد قلّت اليوم إلی درجـة كبيرة، الحصول على مـدرّس، فقد زالت هذه الصـعوبة اليوم إلی حدٍّ كبير وخاصّة فی الحواضر العلمية التی نعيش فيها.

لكن هناك مشاكل استجدّت ولم تكن فی السابق، ومنها كثرة العطل، فلم تكن بهـذه الكثرة، ولم تتجاوز على ما أتذكّر غير الخميس والجمعـة، والحالات الأربع من كل عام وهی شـهر رمضان كلّه، وثلاثة عشـر يوماً الأولی من شـهر محرّم، ووفيّات ومواليد المعصومين عليهم الصـلاة والسـلام، والأعياد الثلاثة: الغدير والفطر والأضحی، ولم تكن عندنا عطلة صيفية ولا عطلة أخری غيرها. وإذا أخذنا بنظر الاعتبـار أنّ بعض وفيّـات ومواليـد المعصومين كانت تقع فی أيّام الخميس أو الجمع ما عـدا تلك التی تقع فی أيّام شـهر رمضان. إذاً، فـإنّ مجموع الأيام التی كنّا نعطّل فيها الـدرس لم تزد على الشـهرين فی السـنة، ومع كلّ ذلك لم نصل إلی شـیء، مع أنّنا كنا نسـتغلّ حتی أيّام العطل فی تلقّی دروسٍ خارج المنهج الحوزوی المقرّر كدروس الأخلاق والتفسـير والعقائد والرياضـيات والخطابة والكتابة، ولم تكن حتی ليالی الجمع وأيّامها مستثناة من ذلك.

لقد عبّأنا كلّ طاقاتنا ولم يصل أغلبنا إلی الغاية المرجوّة، فكيف بالوضع اليوم، وقد نقل لی أحد المدرّسـين أنّه أحصی كلّ الأيام التی درّس فيها خلال إحدی السنوات الأخيرة فوجدها لا تزيد على التسعين!

فإذا كانت المشاكل فی طريق طالب العلم كثيرة، وكان طالب العلم لا يريد صـرف عمره هكذا عبثاً ثم يكتشف بعد مرور ثلاثين سـنة أو ربّما خمسين سنة أنّه لم يصل إلی شیء ولم يحصل على نتيجة، فما هو الحلّ العملی للتغلّب على هذه الصعاب؟

الحلّ الجـذریّ يتمثّل بالآيـة الكريمـة?: أَلَا بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ. ?والمقصود بـذكر الله تعالی فی الآية كما قال المفسّرون الذكر اللسـانی والقلبی معـاً. والمقصود بالـذكر القلبی هو التوجّه إلی الله تعـالی، فـإنّ الممارسـات العباديـة التی نؤدّيهـا لله تعالی ينبغی أن لا تكون طقوساً جامـدة، لا روح فيها، بل علينا أن نتفاعل معها، ونشـعر من خلالها أنّنا نقف بين يـدی الله تعالی ونؤدّی حقّ العبوديّة على أتمّ وجه.

صحيـح أنّ الواجب يسـقط بالامتثـال وفق الشـروط المـذكورة فی كتب الفقه، حتی مع عـدم حضور القلب، وأنّه لا تجب الإعادة على الشـخص الـذی أدّی صـلاته بصورة صـحيحة وذلك لطف وعفو من الله عزّ وجلّ ولكن النتيجـة المطلوبة من العبادة لا تحصل، ولهذا فهی لا تسجّل صلاة حقيقية وكذا سائر العبادات، كما فی مستفيض الأحاديث.

أی إنّ مَن اكتفی بـأداء العبادة كطقس وعادة دون توجّه القلب لله، لا يحصل على نتيجـة لا فی الـدنيا ولا فی الآخرة، بل إن لم يشـمله اللطف الإلهی قد يصبح عمله هذا وبالاً عليه كما ورد فی بعض الأحاديث.

الإرادة معيار التغيير

نُقـل أنّ الشـيخ على القمّی عنـدما أراد الزواج يوم كـان شابّاً طلب نوعاً من القماش الفاخر الـذی كان الشـباب المتأنّق فی تلك الأيّام يخيطون منه بذلة الزواج، وكان هذا القماش يُستورد من بلاد الشام.

وحيث إنّ طلبـة العلوم الدينية كانوا أكثر تواضعـاً وبساطة فی زيّهم وملبسـهم من سائر الشـباب، لاعتبارهم قدوة للآخرين، حاول بعض زملاء الشـيخ أن يثنيه عن هـذا المطلب. ولكنّه كان مصـرّاً لدرجة أنّه أجّل زواجه عدّة أشـهر، لأنّ ذلك القماش لم يوجد آنذاك فی

الأسواق.

وما يثير العجب أكثر أنّ هذا لم يكن حال كلّ الشباب آنذاك. فما كان يهتمّ بمثل هذه المظاهر إلّا المنهمك في الدنيا.

ولا نقول: إنّه كان حراماً ولكنّه كان يعبّر عن اهتمام زائد بالدنيا، مما لا يناسب طالب العلم الديني، ولذلك كان زملاؤه يحاولون ثنيه.

ولكنه كان يجيبهم بالقول: مادام غير محرّم، فهو زينة والله تعالى يقول?: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ.?

وصار يوصي المسافرين إلى المدن الأخرى في العراق ككربلاء والحلّة وبغداد ولكن دون جدوى، حتى اتّفق أنّ بعض أصدقائه نوى السفر إلى بلاد الشام وبعد عودته أتى له بذلك القماش، فتزوّج بعد ذلك!

وحيث إنّ وسائط النقل لم تكن يومئذ كما هي اليوم لتلبية رغبته فربما أخّر زواجه لمدة سنة كاملة ليس إلّا ليكون في ليلة زفافه مرتدياً ذلك القماش!!

أذكر لكم هذه القصّة لتعرفوا أنّ التغيير ممكن، فإنّ هذا الشيخ نفسه بعد أن كان مستوى اهتمامه في شبابه قد أرغمه على أن يؤجّل موعد زفافه لحين حصوله على قماش اليوم! قد تحوّل تحوّلاً عجيباً حتى صار مضرب المثل في الزهد والتقوى في عامّة العراق وإيران رغم وجود العشرات بل المئات من الزهّاد والمتّقين في ذلك الزمان! فلقد سمعت قصصاً عن الشيخ علي القمّي رحمه الله أكتفي هنا بنقل اثنتين منها:

•يقول والدي رحمه الله: إنّه كان في النجف الأشرف يومذاك تسعون رسالة عملية، وهذا يعني أنّ المجتهدين كانوا بالمئات، لأنّ الذين عندهم رسائل عملية لا يشكّلون في العادة عشرة بالمئة مثلاً من مجموع المجتهدين. فهكذا كان وضع النجف وحوزتها، إذا ما استثنينا مدينة قم وكربلاء ومشهد! ولا أعلم اليوم بوجود تسعين رسالة عملية في العالم الإسلامي كلّه.

يقول الوالد: إنّه بالرغم من وجود العشرات من المراجع في النجف الأشرف في ذلك اليوم، وبالرغم من وجود المئات من أئمّة الجماعة من المتّقين والزهّاد، لكن كثيراً من الناس والعلماء لم يكونوا يطمئنّون إلّا بالصلاة خلف الشيخ علي القمّي، لأنّه كان مسلّم العدالة عند الكلّ.

فلو كان بعض الناس يصلّون خلف فلان لكنّهم يستشكلون بالصلاة خلف فلان الآخر، وكان بعض آخر يُصلّي خلف الثاني ويستشكل بالصلاة خلف الأوّل، إلّا أنّهم جميعاً كانوا يتّفقون على عدالة الشيخ علي القمّي ويطمئنّون بالائتمام به. فما أعظم التحوّل الذي حدث في حياة هذا الرجل حتى بلغ هذه الدرجة، بعد أن كان على ما سمعتم في شبابه!

•أمّا القصّة الأخرى من القصص التي تنقل عن الشيخ علي القمّي رحمه الله فهي أنّه أُصيب في أخريات عمره بمرض احتصار البول، وهو مرض مؤلم جدّاً وقد لازمه هذا المرض كما ذكر لي بعض أبنائه زهاء عشر سنوات حتى توفّي رحمه الله. يقول ولده: طيلة المدّة التي كنت معه لم أسمع منه كلمة «شكوى» أبداً، وكان إذا اشتدّ به الألم قال: «لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم» فكان ينفّس عن شدّة آلامه بذكر الله، ويأسى أن يصرف هذه الثواني من عمره في قول كلمة تنمّ عن ضجر أو جزع، ولا يستثمرها في ذكر الله عزّ وجلّ.

إنّ الإنسان إذا تألّم لا يمكنه إلّا أن يقول عبائر تكشف عن مدى تألّمه، ولكن إذا ربّى نفسه تمكّن أن لا يقولها بل يقول بدلاً منها: لا حول ولا قوّة إلّا بالله.

لاـ شكّ أنّ التأوّه بنفسه ليس مذموماً بل ورد في الأحاديث أنّ المريض إذا تأوّه كُتب له فيه ثواب، ولكن لا شكّ أيضاً أنّ قول: «لا إله إلّاـ الله» أكثر ثواباً، إذاً لا ينبغي أن ننهى مريضاً من التأوّه، ولكن حبّذا أن يربّي نفسه بحيث يُهلّل الله ويَحمده ويُسبّحه ويُكبّره إذا نزل به مرض أو بلاء.

فالشيخ علي القمّي استطاع أن يغيّر نفسه حتى تحوّل ذلك التحوّل الذي جعل منه قدوة في عدالته وفي ذكره لله عزّ وجلّ.

۱. تقوية العلاقة مع الله

إذاً، فلنحاول من الآن أن نُدخل فی عباداتنا روح التوجّه والصدق شیئاً فشیئاً، وذلک بأن نلتفت إلی معانی العبادة، فمثلًا: إذا وقفتَ بین یـدی الله فی الصـلاة، وشـرعت بقراءة سورة الفاتحـة، فکّر فی معانی مفردات السورة واستحضـر مفاهیمها، ولا تـدَع فکرک یهرب هنا وهنـاک، ولو حصل ذلک عُـد به سـریعاً ولا تـدَعه یسـرح، ولا تیأس لو خاتلک ذهنک مرّة أو مرّتین بل حتّی خمسـین مرّة، واحرص علی أن ترجعه الی حضـیرته حتی یصبح حضور الـذهن مَلَکـة عنـدک، لتعی مـا تقرأ وتتـدبّر فی المعـانی، فـإذا قلت?: إیّاکَ نَعبُـدُ? استحضـرت فی ذهنک أنّ العبادة لله تعالی وحـده وأنّک فی حال أدائها، وإذا قلت?: وَإیّاکَ نَستَعین ?جـدّدت اسـتعانتک به فی کلّ أمورک وخاصّة فی عبادته.

ولاـ شـکّ أنّ الإنسان العربی یفهم معانی هـذه المفردات أفضل من غیره، لأنّها فی لغته وعنـده انطباع عنها، فکیف إذا کان من طلّاب العلوم الدینیة وقد قرأ کتب النحو والصرف والبلاغة.

فهذا هو الأساس؛ قال تعالی?: أَلَا بِذِکْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ، ?والتوفیق من الله تعالی، وبمقدار تقوّی الرابطة بین الإنسان وبین الله تعالی یأتی التوفیق بنفس النسبة.

۲. ترویض النفس اساس التغییر

وعلی الإنسـان أن یحرص علی تقویـة علاـقته مع المجتمع؛ وذلـک عبر الاـلتزام بالأخلاـق الإسـلامیة کالتواضع والبِشـر والکرم والعفو والرحمة وصلة الرحم.

إنّ هـذه القیم الأخلاقیـة معروفة للجمیع لاسـیّما أهل العلم وهی موجودة فی المجتمع المتدیّن بنسب متفاوتة، ولکن المطلوب تعمیقها وترسیخها والاستزادة منها.

فمثلاًـ: حـاوِل أن تخـالف هواک فی کلّ الأمور، فإن کنت لا ترغب فی أمر ما رغم اعتقادک بصوابه، حاوِل أن تخضع له بکلّ رحابة صـدر. وإن کنت مختلفاً مع صـدیقک وواجـداً علیه، حاول أن تصـله بزیارة أو بإلقاء التحیّة علیه کلّما لقیته. ولا تبتئس إن لم یقابلک بالمثل ما دمت قـد أدّیت ما علیک. فإن کنت تریـد أن تصـبح عالِماً ومرشـداً ینبغی أن تکون قدوة فی الخُلق من حلم وکظم غیظ وما شابه، لا أن تثور بسرعة أو تتوتّر أعصابک لأتفه الأسباب.

تصـرّف أنت بـالنحو الصـحیح واسـتفد من حیاتـک بصورة صـحیحة ولاـ یهمّـک بعـد ذلک إن کان قـد اسـتفاد الآخرون منک ومن تعاملک معهم أم لا؛ فإنّ الله تعالی یقول?: یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُواْ عَلَیْکُمْ أَنفُسَـکُمْ لَا یَضُرُّکُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَیْتُمْ. ?ولا توجد عبارة أکثر صراحـة من هـذه الآیة فی لزوم ترویض النفس علی الأخلاق الحمیدة فإنّ کلمة «علیکم» اسم فعل بمعنی «الزموا». فإن بدأتَ بنفسـک فربّما اهتدی العشرات بأسلوبک.

۳. الاهتمام بالکیف أکثر من الکمّ

أحـد الطلبة کان یقول: لدیّ اثنا عشـر درساً فی الیوم. فمثل هذا لا یتمکّن أن یسـتفید من الجوانب الأخری من حیاته، ولا بإمکان غیره أن یستفید منه فی تلک الجوانب إلّا أن یکون عبقریاً ولا یکون هذا الّا لمن هو استثناء من الناس.

وعلی العکس من ذلک، نقل والـدی رحمه الله أنّ أحـد الطلبة کان یقول: لماذا أنتم الطلبة تدرسون کلّ یوم من الصـبح إلی الظهر ثم من العصـر حتی اللیل، وأنتم فی حرکة ودویّ مستمرّین، إنّ الأمر لا یتطلّب هذا المقدار، بل یکفی أن یکون لطالب العلم درس واحد أو درسان فی الیوم ولا یلزم أیضاً أکثر من یومین أو ثلاثة فی الأسبوع.

وهـذا أیضـاً لا یمکن أن یصل إلی نتیجـة، فأیّ کاسب یکتفی بالـذهاب إلی السوق ساعـة أو ساعتین فی یومین أو ثلاثـة من الأسـبوع

فقط، ثم يصير تاجراً ويحصل على المال الوفير؟ إلّا أن يكون تاجراً قد بلغ مرحلة يعتمد فى عمله على عوامل وخطوط معيّنة، وهذا أيضاً لم يأت اعتباطاً بل لابدّ أنّه عمل فى أوّل أمره ست عشرة أو ثمانى عشرة ساعة فى اليوم على مدار ستة أيام فى الأسبوع على الأقلّ.

لذا، ينبغى لطالب العلم أن يوزّع الوقت بصورة مناسبة بين تحصيله العلمى وقضاء باقى احتياجاته، وليعلم أنّ الأمر المهمّ هو الكيف وليس الكمّ، وأعنى بالكيف: الإتقان.

فلو درستم تاريخ حياة العظماء من العلماء كالشيخ المفيد والسيد المرتضى والشيخ الطوسى والمحقق الحلّى والعلّامة الحلّى والسيد بحر العلوم والشيخ الأنصارى رحمهم الله لرأيتم أنّ اهتمامهم بالكيف ونوعية الدراسة وإتقانها كان أكثر من اهتمامهم بالكمّ.

فلو أنّك خصصتَ وقتاً لدراسة كتابين فقط فى الفقه ولكن بإتقان، ستستفيد أكثر مما لو بذلته فى دراسة عشرة كتب دون إتقان.

بل يمكن أن يقال لمَن يتقن كتابين تخصّصيين فى الفقه أنّه حامل لفقه آل محمد صلى الله عليه وآله.

مقارنة مفيدة

المقارنة التالية تكشف لنا عن أهميّة الدقّة والإتقان وتفضيل الكيف على الكمّ.

المحقّق الحلّى والعلّامة الحلّى كلاهما من أعاظم فقهاء المسلمين. والمحقّق هو خال العلّامة ولهذين العلَمين كليهما كتب فى الفقه. ولكن المحقّق الحلّى صبّ جهده فى ثلاثة كتب هى «شرائع الإسلام» و «المختصر النافع» وهو تلخيص للشرائع نفسه، وكتاب «المعتبر» وهو فقه استدلالىّ شرحاً للمختصر النافع. أى أنّ الماتن نفسه قام بشرح كتابه، كما للمحقّق كتاب فى أجوبة المسائل التى استُفتى فيها.

والآن عندما تنظرون إلى الدراسات الحوزوية تلاحظون أنّ الاستفادة من كتاب «شرائع الإسلام» للمحقّق الحلّى تفوق كثيراً الاستفادة من كلّ كتب ابن أخته العلّامة الحلّى. فهناك المئات من الشروح على كتاب «شرائع الإسلام»، ولقد رأيتُ فى مكتبة واحدة بقمّ أكثر من مئة شرح بين مخطوط ومطبوع على هذا الكتاب.

لا ننكر أهميّة كتب العلّامة، فكلّها جيدة، وعلى بعضها شروح، ومن بينها كتابه «قواعد الأحكام فى معرفة الحلال والحرام»، ولكن لا شروح «القواعد» تبلغ شروح «الشرائع» ولا سلاسة «الشرائع» موجودة فى كتاب «القواعد» ولا الالتزام بالفتاوى المتقنة الموجودة فى «الشرائع» تجدها فى «القواعد».

نستنتج مما تقدَّم أنّه يجب الاهتمام بكيفية الدرس، ولا نعنى بذلك أن يكتفى الطالب بدروس قليلة ويترك سائر أوقاته هكذا هملاً بلا استثمار، بل المقصود الإتقان أكثر.

فى التكرار إفادة

●هناك أبيات شعرية باللغة الفارسية فى النحو تسمّى العوامل المنظومة.. حفظتها فى الصغر وحيث إنّ حفظى لها كان حفظاً جيّداً، ترانى إلى اليوم أتذكّرها رغم مرور أكثر من خمسين سنة عليها.

●يوصى الشهيد الثانى رحمه الله فى كتابه «منية المريد» طلّاب العلوم الدينية أن يكرّروا الدرس سبع مرات. وأنا أضمّ صوتى لما أوصى به، وإن لم تقدروا أقول لكم: كرّروا كلّ درس أربع مرّات على الأقلّ، وعلى النحو التالى:

?مرة بمطالعته والتحضير له قبل طرحه من قِبل الأستاذ، ولو مطالعة إجمالية بحيث يعلق فى الذهن ولو بنسبة خمسين بالمئة، فإنّ ذلك يوجب إعطاء الفكر حريّة أكثر لكى يتفرّغ للخمسين بالمئة الأخرى، بدلاً من أن يتوزّع خلال مدّة الدرس على كلّ المادّة. فما فُهم من خلال التحضير يمكن استسهال فهمه عند إلقاء المحاضرة، وما لم يفهم يمكن التركيز على محاولة فهمه بشكل جيّد.

?أمّا المرّة الثانية فبالحضور فى الدرس مع اليقظة والمشاركة الفعّالة فى النقاش والمحاورة المستمرّين مع الأستاذ.

?المرة الثالثة بمراجعة الدرس الذى تلقّيته مرّة أو أكثر حتى تستوعبه.

?أمّا المرّة الرابعة فبالمواظبة على مباحثة مادّة الدرس مع زميل لك.

ينقل عن السيّد محمد كاظم الطباطبائى اليزدى صاحب العروة الوثقى أنّه راجع كتاب «الجواهر» عدّة مرّات، وذلك أنّه كان يباحث الكتاب مع زميل له مرّتين فى اليوم، فكانا يتباحثان صباحاً مثلاً ثمّ يبحثان الصفحة أو الصفحات نفسها مرّة ثانية عصر ذلك اليوم.

وكان السيّد يطالع المادّة نفسها مرّة قبل المباحثة الأولى، ومرّة بين المباحثتين، ومرّة بعد المباحثة الأخيرة.

أتدرون ماذا أثمرت هذه المطالعة الخماسية لكتاب الجواهر من قِبل السيد اليزدى رحمه الله؟ لقد أثمرت كتاب «العروة الوثقى» الذى قلّ أن تجد فقيهاً له رسالة عملية دون أن يكون له إلى جانبها تعليقة على العروة. هذا مع أنّ كتاب «العروة» ليس دورة كاملة فى الفقه، بل ربّما لا يحتوى على أكثر من ربع مادّة الفقه، ففيه كتاب الطهارة والصلاة والصوم والزكاة والخمس وحوالى عشرة بالمئة من كتاب الحجّ، ثم كتاب المضاربة، وشذرات من باقى الكتب الأخرى، فكتاب النكاح مثلاً لا يوجد منه سوى زهاء عشرة بالمئة، أمّا كتاب البيع فلم يتطرّق إليه، كما أنّ كتب المعاملات أغلبها غير موجودة وكذا الديات والقضاء، فربّما ثلاثة أرباع الفقه غير موجودة فيه، ومع ذلك لا ترى مرجعاً لم يعلّق أو يهمّش عليه حتى المختلفين مع صاحبه من الناحية السياسية منذ ذلك الزمان وحتّى اليوم، وما ذلك إلّا لإتقانه.

وهكذا نلاحظ أنّ كلّ مرجع يموت تموت رسالته العملية معه وكذلك تعليقته على العروة الوثقى، بينما العروة الوثقى باقية يعلّق عليها العلماء رغم مرور هذه المدّة الزمنية على وفاة صاحبها، فتكون بذلك متميّزة عن سائر الرسائل العملية.

هذه نتيجة دراسة المواد العلميّة بكيفيّة متقنة. أمّا القراءة العابرة فلا تنتج شيئاً من هذا القبيل.

قد يتعب الطالب نفسه أربع سنوات فى المباحثة فى كتاب الجواهر ولكن لا تشكّل له سوى خلفية فقهية، أمّا تلك الاستفادة التى حصل عليها السيّد اليزدى فلا يمكن تحصيلها إلّا بذلك التكرار قبل المباحثة وبعدها مع الإتقان.

۴. الاهتمام بالخطابة والكتابة

على طلّاب العلوم الدينية أن يهتمّوا بهذين البعدين المهمّين مبكّراً. فكلّ الأنبياء والقادة والمصلحين يتمتّعون بموهبة الخطابة، كما أنّك قلّما تجد عالِماً مبرّزاً لم يعنَ بالكتابة منذ شبابه. فالإنسان فى شبابه أكثر قدرة على التركيز، والمجال مفتوح أمامه أكثر، والمشاكل التى يعانى منها أقلّ فى الغالب، فغير المتزوّج مشاكله أقلّ من المتزوّج، والمتزوّج أقلّ مشكلة ممن ليس عنده أولاد، وذو الولد الواحد مسؤوليته أقلّ من ذى الولدين.

وهكذا كلّما يتقدّم الإنسان بالعمر تقلّ الفرص أمامه وتكون مسؤولياته أكثر، ولهذا ينبغى المبادرة إلى تنمية هذين البعدين الخطابة والكتابة قبل فوات الأوان. وهاهنا ثلاث نقاط جديرة بالاهتمام:

أ. تقبّل النقد البنّاء

بعض الأشخاص يستاء لو وُجّه نقدٌ لعمله أو إنتاجه، كما لو نُبّه على وجود أخطاء فى كتابه أو أمور غير سائغة فى خطابته، وبعض آخر وإن كان يتقبّل النقد إلّا أنّه لا يأخذ به فى تنمية قدراته، وهناك طائفة ثالثة تطالب الآخرين بالنقد وترحّب به من أجل تطوير عملها.

يُنقل أنّ صاحب «الجواهر» رحمه الله كان يطلب من تلاميذه أن يذكروا له كلّ نقد أو إشكال يأتى إلى أذهانهم على المادّة التى يلقيها عليهم فى درس الخارج يومياً، ولهذا كانت دروسه تتميّز بالفاعلية والنشاط، فكان من طلّابه من يناقش فى سند الرواية التى ذكرها أستاذه، وآخر يستفسر عن صحّة اللفظ، وثالث يعترض على مداليله، ورابع يشكّك فى الإجماع المدّعى مثلاً، وبهذا الأسلوب كان الشيخ الأستاذ يجمع علوم الطلبة إلى علمه.

وفی أحد الأیام لاحظ أنّ أحداً من طلابه لم یستشکل فی الدرس الذی ألقاه، فتعجّب وقال لهم: لم أسمع الیوم مَن یوجّه إشکالاً أو نحوه، فهل کان ما ذکرناه الیوم وحیاً منزّلاً أم ماذا؟!

فأجابه بعض الطلاب: کلا، ولکنا لم نطالع الدرس ونحضّر له أمس بسبب ارتفاع درجهٔ الحرارهٔ وکثرهٔ الهوامّ والحشرات؛ لذا لا علم لنا بمدی ثبوت ما ذکرت الیوم.

لم تکن کلّ الإشکالات التی توجّه لصاحب الجواهر صحیحهٔ، لکن حتی لو کان بعضها مهما قلّ صحیحاً، فإنّه لا یخلو من فائدهٔ للشیخ.

إذاً حریّ بالإنسان أن یسمح للآخرین فی نقده، ولا شک أنّه یوجب استفادته من وجهات النظر الصحیحهٔ المطروحهٔ علیه، وذلک من خلال تنمیهٔ قدراته والتقدّم فی أعماله.

ب. البحث عن مدرّسین جیدین

إنّ الاعتماد علی الأستاذ والاستفادهٔ من خبرته وإرشاداته والتدرّب لدیه، یوجب الوصول إلی الهدف بصورهٔ أفضل وأسرع. وینبغی عدم الیأس بسرعهٔ من الحصول علی أستاذ جیّد، فإنّه: مَن جدّ وجد.

ج. حفظ النصوص

فإنّ حفظ الأبیات الشعریهٔ والمنظومات القصائدیهٔ فی علم من العلوم الدراسیّهٔ، فضلًا عن الخطابهٔ والتألیف یُبقی ذکر المطالب فی الذهن أکثر، فإنّک حتی لو درست کتاب الشرائع مثلًا ودرّسته مرّات، قد تنسی قسماً کبیراً منه بعد مرور عشرین سنهٔ، أمّا إذا حفظت منظومهٔ فقهیهٔ إلی جانب ذلک، فإنّ ما یبقی فی الذهن سیکون أدوم، وهکذا الحال مع الموادّ الأخری کألفیهٔ ابن مالک فی النحو، وغیرها.

أعرف مرجعاً بارزاً، بلغ هذه المرتبهٔ بفضل حفظه المتقن للمسائل الشرعیهٔ، فهو مثلًا یحفظ أحکام الإرث وطبقاتها والمقادیر والنسب التی یخصّ کلاًّ منها، وعدد الحاجبین ومَن هم، رغم أنّها متشعّبهٔ کثیراً.. وهکذا الحال مع کلّ الفروع الفقهیهٔ حتی ذات الفروع والتشعبات الکثیرهٔ کالزکاهٔ والحجّ.

فحفظ أمّهات المسائل والأصول والخطوط العامّهٔ حفظاً جیّداً بحیث یمکن للمرء استحضارها متی شاء، لا بدّ أن ذلک سیعینه علی أمره کثیراً.

علی أیّ حال: إنّ ما ذُکر من هذه المطالب، إذا عمل بها طالب العلم، استطاع رغم کلّ المشاکل أن یحصل علی نتائج فی الدنیا والآخرهٔ، وعلی رأس تلک الأمور ذکر الله تعالی باللسان والقلب، أعنی التوجّه الدائم إلی الله سبحانه وتعالی؛ لیطمئنّ بذکره قلبه? أَلاَ بِذِکْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ.?

(۷) التبلیغ

(۷) التبلیغ

قال الله تعالی?: الَّذِینَ یُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَیَخْشَوْنَهُ وَلا یَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَکَفَی بِاللَّهِ حَسِیباً.?

لاشکّ أنّ من أشرف المهامّ فی حیاهٔ الإنسان هی مهمّـهٔ التبلیغ؛ لأنها مهمّهٔ الأنبیاء علیهم الصلاهٔ والسلام. فإنّ الله سبحانه وتعالی لم یکلّفهم بمهمّـهٔ أخری کما کلّفهم بالتبلیغ. ومن ثم إذا استطاع الإنسان أن یکون مبلّغاً لدین الله، فهذا یعنی أنّه وضع أقدامه فی موضع

كان قد سبقه فيه الأنبياء والرّسل عليهم السلام.

القرآن والتبليغ

هناك إلفاتـة لطيفـة فى القرآن الكريم تكشف عن أهميـة التبليغ أذكرها بمقدّمة: إنّ الناس كما نلاحظ مترتّبون فى الأمور العامّة وفق سلسلة من المراتب يتمّ وفقها تبليغ الأوامر من الأعلى وصولاً إلى مرحلة التنفيذ فى المراتب الدنيا. أى أنّ الأعلى يأمر الذى هو دونه، وهذا يأمر الأدنى منه، والأدنى فالأدنى، حتى تنتهى سلسلة المراتب إلى عوامل التنفيذ.

فنرى فى الحكومات مثلاً أنّ هناك الرئيس ثم يأتى الوزراء فى المرتبـة الثانيـة، فالمدراء العامّون تحت إشـرافهم، فمدراء الأقسام حتى ينتهى هـذا التسلسل الوظيفى عنـد مَن يتّصـل بعامّـة الناس مباشـرة. فإذا أصـدر الحاكم الأعلى أو الرئيس حكماً فإنّه لا يأمر وزيره بأن يبلّغه إلى عامّـة الناس مباشـرة، بل يأمره بتنفيذ الحكم وحسب. فيقوم الوزير بإصدار الأمر إلى مَن هم أدنى منه درجة، وهؤلاء بدورهم لاـ ينزلون إلى الشـارع مباشـرة بـل يجمعون مَن تحت سـلطتهم ويوجّهونهم بـالحكم، وهكـذا حتى ينتهى الأمر إلى من هم فى المرتبة الأـدنى، فقـد يقعون فى المرتبـة العاشـرة من سلسـلة المراتب أو أدنى. وهـذا بطبيعته يعـدّ تـدرجاً وضـعياً فى كـلّ حكم عـامّ أو دائرة وعلاقات، وهو ما نلاحظه ونراه فى كلّ الحكومات والأنظمة القائمة.

أمّا الإلفاتة الموجودة فى القرآن فهى أنّه عندما يتوجّه الخطاب للنبىّ الأكرم بالتبليغ، يأمره الله تعالى أن يقوم هو صـلى الله عليه وآله به مباشـرة وبلا واسـطة مع عامّة الناس. يقول سبحانه وتعالى مخاطباً نبيّه الكريم?: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ... ، ?و?قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ، ? ... و?قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُون، ? ... و?قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، ?وهكذا؛ وهذا يعنى المباشرة فى التبليغ.

فمع أنّ الله تعـالى هو خـالق كـلّ شـىء، وإله كلّ شـىء وهو ربّ الأرباب وسـيّد السادة، ومع أنّ النبى صـلى الله عليه وآله هو أشـرف المخلوقات وأفضـلها وأعلاها، إلاّ أنّ الله سـبحانه وتعالى يطلب من رسوله أن يقوم بمخاطبة كلّ الطبقات والمسـتويات من الناس حتى أدناها.

الهدف هو التبليغ

وليعلم الإخوة الـذين ينطلقون للتبليغ والإرشاد وهدايـة الناس فى المـدن والبلاد الأخرى والقرى والأرياف فى شـهر رمضان وغيره، أنّ الهدف المقدّس والغاية الأسـمى من دراستهم ومن كلّ ما تلقّوه من علوم دينية فى الحوزات هو التبليغ، وحسب الاصطلاح العلمى: إنّ كلّ ما فى الحوزات العلمية يعدّ بمثابة مقدّمات، والتبليغ هو ذو المقدّمة.

صحيـح أنّ أدوار التبليغ ووسـائله قـد تختلف باختلاـف الحاضـرين وتنوّعهم؛ فـالخطيب إذا تحـدّث إلى جمهور من المثقّفين تحـدّث بأسـلوب يختلف عمّا إذا كان حديثه إلى أناس أمّيين، لكن يبقى التبليغ يحظى بالأهميّة فى كلّ حالاته كما تفيدنا تلك الإلفاتة الرائعة فى القرآن الكريم.

أهمية التبليغ فى سيرة النبى وأهل بيته

هنـاك نقطـة وإلفاتـة أخرى تبيّن أهميـة التبليغ نكتشـفها من خلاـل سـيرة رسول الله والأئمّـة من أهـل بيته صـلوات الله وسـلامه عليهم أجمعين.

فكلّنا يعلم مدى اشتياق النبىّ الأكرم صـلّى الله عليه وآله للعبادة والالتذاذ بها. فلقد كان صـلى الله عليه وآله يشتاق إلى العبادة أكثر من أىّ إنسان آخر، ويلتـذّ بها ما لا يلتذّ بأىّ عمل. فهو أعرف الناس بالله تعالى وأفضل مَن عرف الله عزّ وجل. ليس هذا فحسب بل كانت

عبادته وذكره ودعاءه وتوجّهه إلى الله تعالى، تفوق فى الفضل عبادة الناس كلّهم.

ولكنّا نرى أنّ هذا الرسول العابد الذى أبلته العبادة حتى خاطبه الله تعالى بقوله?: طه ? مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ?يرجّح فى كثير من الأحيان التجوّل فى الشوارع والطرقات أو المساجد أو البيوت للتبليغ وهداية الناس، على العبادات المستحبّة فى حقّه حتى لقد استغلّ صلى الله عليه وآله معظم وقته بعد البعثة بالتبليغ. ولقد كان يبلّغ فى وسط أناس اُمّيين بلغ الحال ببعضهم لأن يمدّ رجليه أويستلقى بين يدى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يقول له: يا محمد حدّثنا!

كان الرسول صلى الله عليه وآله يصرف أوقاته مع أمثال هؤلاء، كما كان يصرفها مع أمير المؤمنين وفاطمة والحسنين سلام الله عليهم، ومع أمثال أبى ذرّ وعمّار، ممّن تقع على عاتقهم مسؤولية هداية الأمّة، وكان لهم شطر كبير من وقته صلى الله عليه وآله.

إنّ تبليغاً كهذا هو الذى صنع رجالاً عظاماً كأبى ذرّ وعمّار والمقداد وغيرهم من خيار الصحابة، فمن هذا الوسط تخرّج هؤلاء الأخيار والمؤمنون. وهذا يعنى أنّ على المبلّغ ألاّ يقتصِر تبليغه على فئة معيّنة من الناس كالمثقّفين مثلاً، دون غيرهم، بل عليه أن ينزل إلى كلّ فئات المجتمع وطبقاته.

صحيح أنّ الواجب يفرض على الإنسان أن يستفيد من حياته ووقته أحسن الاستفادة وبأقصى ما يستطيع، ولكن قد يأتى يوم يصبح فيه هذا الأمّى أحد العظماء، أو أنّ ذلك المثقّف الذى يبدو مهمّاً فى نظر الداعية اليوم من الناحية الاجتماعية أو العلمية، ويركّز عليه فى تبليغه أكثر من غيره قد لا ينفع فى شىء، وربما ارتحل عن الدنيا قبل أن يقدّم شيئاً ما لينفع به الآخرين.

فما دام المبلّغ لا يدرى أيّة أرض ستثمر فيها الكلمة الطيّبة أكثر، لذا عليه أن يسعى لبذر الكلمة الطيّبة فى كلّ مكان ومع كلّ إنسان، وأن يقتدى برسول الله صلّى الله عليه وآله فى ذلك، فلقد كان صلى الله عليه وآله يغتنم كلّ الفرص للتبليغ ويدع التفرّغ للعبادات المستحبّة إلى الأوقات التى لا يمكن التبليغ فيها كمنتصف الليل مثلاً، ليخلو فيها مع ربّه يستمدّ منه العون والتأييد ويناجيه بقوله: «إلهى لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين أبداً».

أثر التبليغ على بلدان بأكملها

إنّ للتبليغ أهميةً كبرى وتأثيراً عظيماً. فإيران والعراق اللتان تعدّان اليوم مواليتين لأهل البيت عليهم السلام بأغلبية ساحقة، لم تكونا كذلك فى السابق، بل تحوّلتا إليه بفضل التبليغ الذى نهض به رجال أفذاذ نذروا أنفسهم له وعقدوا العزم عليه.

ينقل المحدّث النورى رضوان الله عليه فى خاتمة «مستدرك الوسائل» أنّ المرحوم السيّد مهدى القزوينى من علماء الشيعة ومراجعها، نزيل الحلّة فى العراق، وزميل الشيخ مرتضى الأنصارى رحمهما الله أخذ فى أواخر حياته بالتبليغ وهدَى عشائر كانت برمّتها غير موالية لأهل البيت سلام الله عليهم؛ إذ كان يذهب إلى إحدى العشائر ويمكث فى مضيفها سنة كاملة يخالطهم فيها ويصلّى بهم ويحكى لهم قصصاً حتى يغيّر معظمهم ويجعلهم موالين لأهل البيت سلام الله عليهم ثم يغادرهم إلى عشيرة ثانية ويمكث فيهم سنة أو أكثر حتى يهديهم الله إلى الحقّ وهكذا ...حتى اهتدى على يديه زهاء مئة ألف إنسان.

فبعزم أمثال هذا الرجل اهتدت شعوب، وصار العراق وإيران دولتين ذاتى أغلبية شيعية، وإلاّ فإنّ إيران مثلاً كانت على مذهب أهل السنّة والجماعة حتى أنجبت زهاء ثمانين فى المئة من كبار علماء العامّة الذين ليسوا على خطّ أهل البيت ثم تغيّر الوضع بفضل التبليغ حتى آل الأمر إلى أن تنجب إيران الألوف من العلماء المسلمين السائرين على خطّ أهل البيت سلام الله عليهم.

نعم، لقد كانت إيران على مذهب العامّة، وكانت إحدى مدنها متعصّبة لدرجة كبيرة حتى أنّه عندما منع عمر بن عبد العزيز سبّ الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه من على المنابر جاء أهل تلك المدينة إلى واليهم وقالوا له: إنّنا على استعداد لدفع الضرائب غير المستحقّة على أن يسمح لنا بالاستمرار فى سبّ على بن أبى طالب لمدّة ستّة أشهر أخرى.

فهكذا كانت بعض المدن الإيرانية فى يوم من الأيام.. ولكن أتدرون أنّ تلك المدينة نفسها تحوّلت تحوّلاً عظيماً بحيث احتضنت فى

عصر مّا أكبر حوزة علمية للشيعة لعشرات السنين، أى انقلبت من مدينة معادية لأهل البيت إلى مدينة منجبة للعلماء السائرين على نهج أهل البيت سلام الله عليهم والملايين من محبّيهم.

ولو تفحّصت فى التاريخ والسير، وبحثت فى أنساب كثير من المؤمنين وأجدادهم لرأيت أنّ كثيراً منهم ينحدر من أجداد لم يكونوا على خطّ أهل البيت سلام الله عليهم ولكنهم تحوّلوا إليه بفضل التبليغ والإرشاد، واستمرّ الخطّ فى أولادهم وأعقابهم إلى يومنا هذا. وأنا شخصياً أعرف أشخاصاً من أهل العلم والوعّاظ وأئمّة الجماعة لم يكن أجدادهم موالين لأهل البيت سلام الله عليهم.

نقل لى أحدهم أنّ جدّه السادس لم يكن موالياً لأهل البيت سلام الله عليهم، ثم كان من جملة الذين اهتدوا على يد المرحوم السيّد مهدى القزوينى فصار من الموالين والمؤمنين وعلى ذلك جرى نسله وذرّيته. وهكذا نشهد اليوم جماعة من المبلّغين للمذهب من سلالة الذين هداهم الله على يد السيّد القزوينى رحمه الله.

أفضلية التبليغ

من المستحبّات الأكيدة الصلاة فى أوّل الوقت. فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا حلّ وقت الصلاة انقطع إليها ولم يعبأ بشيء دونها. يُنقل عن عائشة أنه: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحدّثنا ونحدّثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه.

هب أنّ لك صديقاً عزيزاً تطلب لقاءه كلّ الطلب، ولم تره منذ سنوات، وقيل لك فجأة إنّه ينتظرك الآن على الباب، فكيف تسرع للقائه تاركاً كلّ حديث أو عمل؛ فهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا حضرت الصلاة ترك كلّ شيء متّجهاً للقاء الله تعالى. ولا يستساغ تفويت فضيلة الصلاة لوقتها إلّا عند الضرورة الأهم.

يروى عن داود الصَّرمى أنّه قال: كنت عند أبى الحسن الثالث سلام الله عليه يوماً فجلس يحدّث حتى غابت الشمس، ثم دعا بشمع وهو جالس يتحدّث. فلما خرجت من البيت نظرت وقد غاب الشفق قبل أن يصلّى المغرب ثم دعا بالماء فتوضّأ وصلّى. مما يبدو أنّ الإمام عليه السلام كان يتحدّث مع بعض المتأثّرين بالتيارات المنحرفة والتى انتشرت فى عصره، فاستمرّ على عمله التبليغى حتى فات وقت الفضيلة. وهذا يعنى أنّ التبليغ مقدّم على سائر المستحبّات.

وهكذا فيما إذا اتّفقت ليلة القدر أو ليلة الجمعة أو ليلة النصف من شعبان أو المواسم الأخرى التى تكثر فيها الأدعية والمستحبّات، وزاحمت التبليغ فالأرجحية تكون للتبليغ.

مثلاً: فى ليلة الثالث والعشرين من شهر رمضان يستحبّ قراءة سورة القدر ألف مرّة، وصلاة مئة وثلاثين ركعة من الألف ركعة فى كلّ شهر رمضان وتستحبّ أمور أخرى كثيرة، ولكن إذا تزاحمت المستحبّات مع التبليغ وأردت الحصول على ثواب أكثر فقدّم التبليغ لأنّ الأنبياء والأئمّة سلام الله عليهم كانوا يعملون كذلك.

ويمكنك القيام بالأمرين معاً، فمثلاً: إذا كان هناك شباب مستعدّون للتلقّى والهداية والتوجّه للدعاء وكانت ليلة القدر أمكنك أن تشترك معهم فى قراءة دعاء الجوشن الكبير ورفع المصاحف ...فهذا نوع من التبليغ العملى وهو مطلوب أيضاً. ولكن إذا دار الأمر بين أن تنهض بمهمّة التبليغ أو تخلو بنفسك وتقرأ سورة القدر ألف مرّة أو تصلّى المئة والثلاثين ركعة المستحبّة وما أشبه، فالتبليغ لاشكّ يكون أفضل فى التقديم. والعارف يحاول الأخذ بالأفضل دائماً.

التأهّب للتبليغ

فعلى الإخوة الذين يتوجّهون إلى التبليغ أن يعلموا أوّلاً أنّ مهمّتهم هى مهمّة الأنبياء عليهم السلام الذين صرفوا معظم وقتهم من أجل إرساء دعائم التبليغ.

كما عليهم أن يتهيّأوا للأمر وللأسئلة المتنوّعة التى قد يواجَهون بها، وألاّ ينزعجوا من الأسئلة الساذجة بل حتى السفيهة التى قد

يواجهون بها أحياناً، بل عليهم أن يفتحوا صدورهم للناس، ويعلموا أنّه ليس كلّ الناس على حدٍّ سواء.
جاءنى يوماً أحد المبلّغين وقال: لقد سُئِلت اليوم أغرب مسألة. قلت: وما هى؟ قال: كلّ شىء فكّرت فيه إلّا هذا السؤال. قلت: وما هو؟ قال: جاءنى أحد الناس وسألنى عن أمّ بعض الأصحاب، ما اسمها؟ فقلت له: دعنى أراجع المصادر، ثم عدت إليه وأجبته.
صحيح أنّ معرفة اسم أمّ فلان الصحابىّ ليس من أصول الدين ولا من فروعه ولا من الأخلاقيات ولا من آداب الإسلام ولا ولا ...إلا أنّ المبلّغ ينبغى أن يكون رحب الصدر حليماً. فلا فائدة فى علم دون حلم، بل قد يكون العلم وبالاً على صاحبه لا سمح الله. ونحن نقول فى الدعاء: «كريم حليم ذو أناة».
لا تردّ أحداً مهما كان سؤاله، بل استقبل الجميع، واحرص على أن تجيب كلًّا بمستوى عقله.
وإذا كان الأصل فى أعمالنا الاقتداء بالأئمّة المعصومين سلام الله عليهم وأنّ المتقدّم لهم مارق والمتأخّر عنهم زاهق واللازم لهم لاحق كما نقرأ فى أدعية أيّام شهر شعبان بعد الصلوات – فلنفتح صدورنا إذاً لكل الناس ونشجّعهم على أن يسألوا عما يختلج فى صدورهم وما يدور فى أذهانهم، فهكذا كانت سيرة النبى الأعظم والأئمّة المعصومين من أهل بيته سلام الله عليهم.

كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم

إنّ لأسلوب المبلّغ وسلوكه أكبر الأثر فى التبليغ. فمن الطبيعى أن يتناسب تأثّر الناس بنا مع أعمالنا وتصرّفاتنا وصدقنا ومطابقة عملنا لقولنا.
وليكن تعاملنا حتى مع أضعف الناس علماً وإيماناً بنحو لا يترك لديه انطباعاً سيئاً عنّا. قد لا يكون الإنسان متكبراً ولكن هذا وحده لا يكفى، بل ينبغى أن لا ـ يترك انطباعاً يوحى بذلك أيضاً. فإنّ لطلاقة الوجه والبِشر والتواضع كما لجمال التعبير وحسن الاستماع وهكذا الحلم أثراً كبيراً فى نفوس الناس يفوق تأثير الأقوال التى تنطلق عبر اللسان، وكما فى المروىّ عن أبى عبد الله سلام الله عليه: «كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم».

صفات المبلّغ

صحيح أنّه، ينبغى للمبلّغ أن يكون بشّاً طلق الوجه، ولكن هذا لا يعنى أن يضحك دائماً ويقهقه لأتفه الأسباب، لأنّه كما ينبغى للمبلّغ أن لا يكون عبوساً، كذلك ينبغى له أيضاً أن يكون وقوراً ولا يكون مبتذلاً. فلو أنّ شخصاً عاميّاً استخدم فى عبارته إحدى العبارات السوقية، فلا تقطّب وجهك أمامه فينفضّ من حولك، ولا تشترك معه وتضحك ضحكة طويلة وعريضة فينقلب مجلسك إلى نادٍ يُتبارى فيه بإطلاق مثل هذا النوع من الكلمات غير اللائقة.
حاول أن تنسجم مع كلّ مَن يوجّه إليك سؤالاً، فربّ شخص لا يكون له شأن أو ثقافة يهديه الله تعالى على يديك، بل ربّما يأتى يوم ترى مسجداً أو مدرسة دينية فيها حوزة علمية تخرّج منها علماء يكون قد أسّسها ذلك الشخص الذى كانت هدايته على يديك.
وكما قلت آنفاً فالعديد من العلماء والأخيار الذين كانوا ينحدرون من أصول غير موالية لأهل البيت سلام الله عليهم أوغير مؤمنة قد هداهم الله فأصبحوا اليوم نجوماً فى سماء العقيدة والإيمان؛ ومن الأمثلة على ذلك أحد علمائنا القدامى الذين يفخر الشيخ الأنصارى رضوان الله عليه بالتتلمذ على يديه عدّة سنوات، قيل: إنّ جدّه كان شخصاً غير لائق، ولكن ابنه هداه الله على يد أحد المبلّغين، ورزق بولد صار فيما بعد أحد المراجع والعلماء الكبار، فكتابه الفقهى مازال يحظى بأهميّة بالغة فى الأوساط العلميّة. فقد اُلِّفت بعده الكثير من الكتب من قِبل علمائنا كالشيخ الأنصارى والآخوند الخراسانى والسيد محمد كاظم الطباطبائى اليزدى.. وبعده جاء الشيخ محمد حسين الأصفهانى (صاحب الفصول) وكان معاصراً للمحقق الميرزا أبى القاسم بن الحسن الشفتى القمّى (صاحب القوانين) ومازال كتابه فى القمّة.

فلو جاء إليكم شخص وكان أبوه ضالاً ـ أو ظالماً فى حياته ثم مات أو قُتل، فلا ترفضوا استقباله فلعلّه يهتدى على أيديكم. فإنّه لم يُسمع أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله طرد أحداً أبداً، بل حتى وحشىّ قاتل حمزة لم يزد أن قال صلى الله عليه وآله له: «غيّب وجهك عنّى».

الخلاصة

حاولوا أن تستفيدوا من التبليغ بالأسلوب والقول جميعاً لكى تحصلوا على نتائج جيّدة. ولا تنسوا الإخلاص منذ الآن؛ فإنّ الشيطان قد يأتى أحدكم ويقول له: إذا ما أصبحتَ مبلّغاً جيّداً ونجحت فى عملك فسيصبح لك مريدون مخلصون يقبّلون يديك، ويرفعون الصلوات عند قدومك.

نعم، ربّما سيكون ذلك لو نجح حقّاً، ولكن لا ينبغى له أن يستحضر هذا المعنى فى ذهنه أبداً، لأنّ الشيطان يحاول أن يقحم هذا الهاجس بأن يجعله كهدف فى الذهن، لذا فليحاول أن يزيحه ليربح.

نسأل الله تعالى أن يوفّقنا جميعاً لما هو المطلوب ولما هو مطابق لسيرة الأنبياء وأهل البيت سلام الله عليهم أجمعين.

(۸) الإنفاق وتربية النفس

(۸) الإنفاق وتربية النفس

قال الله تعالى فى كتابه الكريم?: لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ.?

الإنفاق الذى يربّى النفس

غاية الأخلاق تتلخّص فى مسألة واحدة وهى تربية النفس وإصلاحها، وهى من أعقد المسائل وأصعبها، لأنّ كثيراً من الناس قد ينجحون فى مسائل صعبة ولا ينجحون فى هذه المسألة، بل يمكن القول إنّها ركيزة أساسية ضمن ركائز الهدف من خلق الله تعالى للكون والحياة والإنسان وبعث الرسل والأنبياء وجعل الأوصياء؛ ولهذا نلاحظ اهتمام القرآن الكريم والأحاديث الشريفة فى الغالب فى الدعوة إلى تحقيقها؛ ومن ذلك قوله تعالى?: لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ.?

إنّ الإنسان إذا أنفق الردىء أو ما فاض من ماله فهو وإن كان إنفاقاً لبعض المال وقد ينفع من أنفق عليه، غير أنّه لا يمكن أن يصل بصاحبه إلى ساحل البرّ والإحسان، بينما لو كان إنفاق الإنسان ممّا يحبّ ولا يستغنى عنه، فهذا بعينه هو الذى يربّى النفس ليصل بها إلى ما تنشده الآية الكريمة.

إنّ الله لا يحتاج إلى الإنفاق ولا إلى المنفق، لأنّه تعالى قادر على إغناء الناس فلا يكون فقير واحد محتاج للإنفاق، ولكنّه سبحانه جعل هناك فقيراً وآخر غنيّاً، ومحتاجاً ومنفقاً، لكى يكون هناك امتحان وتربية.

ولا ـ شكّ أنّ هذه التربية لا تتحقّق فيما لو كان هناك فقير جائع وأعطيتَه أرغفةً من الخبز لا تحتاج إليها، وإن كان هذا إنفاقاً أيضاً ويعدّ عملاً صالحاً تثاب عليه، ولكن إن استطعت أن تعطيه أرغفة الخبز مع حاجتك إليها فهذا يعنى أنّك بلغت مرحلة عالية من تربية النفس. قال الله تعالى?: وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ?أى إنّهم يُطعِمون الطعام مع حبّهم له بناءً على بعض التفاسير التى تُرجع الضمير فى «حبّه» إلى الطعام.

وهذا لا يتحقّق من خلال تقديم الطعام الزائد عن الحاجة الذى لا تجد النفس رغبة فيه، بل لابدّ أن يكون الإنسان محتاجاً لذلك الطعام الذى يقدّمه وراغباً فيه ومع ذلك يقدّمه لغيره، وهذه الحالة هى التى تساهم فى تربية النفس وتُعَدّ من الفضائل؛ لأنّ المراد من

الفضائل والأخلاق تربية الإنسان نفسه، وأن يكون هو القائد لها المسيطر عليها وليس العكس.

إن السيطرة على النفس تحتاج إلى ترويض وتمرين قد يستغرق عقوداً من السنين. وما من أحد غالباً إلّا ويحبّ أن يكون ذا أخلاق محمودة، وأن يكون مالكاً لزمام نفسه، وأن يكون هو المسيِّر لها لا المسيَّر من قِبلها، وإنّ أغلب الناس لا يحبّ أن يكون عبداً لشهواته. فكلّ إنسان يحبّ أن يكون صالحاً إلّا القليل من ذوى النفوس السيّئة، والكثير قد يتصوّر أنّ بلوغ هذا الأمر شيء سهل وأنّه لا يحتاج إلى مثابرة وترويض؛ مع أنّه أصعب وأعمق شيء ولا ينال بسهولة. هذا ما يدلّ عليه التركيز المستمرّ من الآيات والأحاديث على مسألة تربية النفس، والإرشاد إلى كيفيتها.

الأشقّ على النفس أنفع

روى زرارة عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «والله ما عرض لعليّ عليه السلام أمران قطّ كلاهما لله طاعة إلّا عمل بأشدّهما وأشقّهما عليه».

فمع أنّ كلا ـ العملين فيهما مرضاة الله تعالى، إلاّ ـ أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يختار الأشقّ؛ لأنّ تربية النفس تكون في اختيار الشيء الأصعب.

قد لا يُقصد بالأشقّ هنا الأشقّ على البدن فقط، بل المقصود به الأشقّ روحياً أيضاً، فإنّ الإنسان لا يحسّ أحياناً بالمشقّة البدنية بسبب راحة الروح، ومثاله السّهَر، فقد يكون شاقّاً بدنياً على مَن اعتاد أن ينام الليل كما هو حال أغلب الناس ولكنّه روحيّاً لا يعود كذلك بالنسبة لمن حضر عنده صديق حميم أو ذو رحم قريب بعد غياب وفراق طويل، فإنّ مثل هذا الإنسان قد لا يأتيه النوم أصلًا لأنّ الروح لا تستصعب السهر في هذه الحال، بل لا تشعر به لأنّها تعيش الأُنس بلقاء الحبيب الغائب. إذاً عمدة المقصود من الأشقّ ما هو أشقّ على الروح، وهو ما يربّي الإنسان ويقرّبه إلى الله عزّ وجلّ أكثر.

إنّ عامل البناء الذي يتقاضى أجراً مضاعفاً لقاء عمله في اليوم الممطر مثلًا، سيشعر بالأسف إذا فاته العمل في ذلك اليوم؛ لأنّه سيخسر أكثر مما لو تغيّب عن العمل في يوم عادي. ولو قيل له: ينبغي أن تكون فرحاً لأنّك تخلّصت من عناء العمل في يوم ممطر. لقال في الجواب: ولكنّي فوتُّ أجراً مضاعفاً كنت سأحصل عليه لو كنت أعمل في هذا اليوم.

والحالة نفسها تصدق على العامل في سبيل الله، فإنّ المؤمن الحقيقي يبحث عن أشقّ الأعمال المحبوبة لله تعالى لينال قربه وأجره أكثر، و كما في الحديث: فإنّ «ثواب العمل على قدر المشقّة فيه».

أفضلية الإنفاق على الأرحام

ولعلّ هذا أحد أسباب تأكيد الأحاديث بأنّ الإنفاق على الوالدين أفضل من الإنفاق على سائر الأرحام، وأنّ الإنفاق على الأرحام أفضل من الإنفاق على غيرهم، لأنّ أقارب الشخص عادة لا يستعظمونه إذا أنفق عليهم لأنّهم يعرفون في الغالب حدود قدرته المالية، فلو أنّ شخصاً دخله الشهري ألف دينار أعطى عشرة دنانير لقريب له محتاج فإنّ عطيته ستكون محتقرة وربما اعتبرها القريب إهانة لمعرفته المستوى المالي لقريبه، بينما لو أعطى ديناراً واحداً لمحتاج غريب فإنّ عطيته ستقع موقع الرضا والإعجاب من المحتاج لأنّه لا يعرف شيئاً عن مستوى المعطي، ولا يتوقّع منه المزيد.

هذا مضافاً إلى أنّ المنفِق قد يقابَل بالجفاء من قريبه لو أنفق عليه، لأنّ الإنسان يشعر في العادة بتصاغر أمام المنفِق عليه، وهذا الشعور يكون مضاعفاً إذا كان المنفِق قريباً للإنسان؛ فإنّه قد يتألّم ويغمره شعور بالضعة والحرمان وربما يندب حظّه قائلًا: لماذا أنا فقير محتاج، وفلان الذي هو من أقربائي غنيّ؟ ومن ثم يلجأ إلى الجفاء في محاولة لإطفاء نائرة تألّمه.

ومن الواضح أنّه تزداد الصعوبة عندما يكون الإنفاق على الوالدين، فإنّ توقّعهما ولا شكّ من ولدهما أكثر، خاصّة إذا كانا على اطّلاع

بمستواه المالی الحقیقی؛ لأنّهما یعتقدان أنّ ولدهما وکلّ ما یملک هو ملک لهما، وأنّ کلّ ما یقدّمه لهما فهو قلیل فی حقّهما، فمهما کان عطاؤه لهما، فهو قلیل فی نظرهما غیر معظَّم من قِبلهما. وهکذا الحال بالنسبهٔ للنقطهٔ الثانیهٔ، وهی الشعور بالتصاغر الذی یشتدّ عند القرناء والأقرباء والتی تستتبع جفاءً وتعالیاً، فهی الأخری تکون فی حال الإنفاق علی الوالدین أشدّ لزیادهٔ القرب، خاصّهٔ وأنّ الأبوین لا یشعران أنّ ابنهما نظیر لهما وحسب، بل یشعران بأنّهما أفضل منه، فیزدادان ألماً إذا کان غنیّاً ویعطیهما، مع فقرهما.

یقول بعض علماء الأخلاق: ربما لهذین السببین توقُّع الأکثر، والجفاء کان الإنفاق علی الأقارب والأرحام أفضل، غیر منکرین الأسباب الأخری. وهذان السببان إنّما یصبّان فی تربیهٔ النفس، لأنّ التغلّب علیهما یعنی التغلّب علیها.

کما یمکن أن نضیف لهاتین النقطتین نقطهٔ ثالثهٔ فی السیاق نفسه وهی أنّه کثیراً ما نلاحظ قطیعهٔ بین الأرحام، وفی مثل هذه الحالهٔ یجد المنفِق صعوبهٔ فی التغلّب علی نفسه والاستجابهٔ لداعی الإیمان فی الإنفاق علی قریبه المعسر وإن کان قد أساء إلیه، ولهذا عدّ الإنفاق علی أُولی الأرحام أفضل من الإنفاق علی مَن سواهم.

صدقهٔ السرّ تطفئ غضب الربّ

إنّ الإنفاق أمر حسن ومفید، ولکن الأهمّ أن یربّی الإنسان نفسه لأجل ذلک. ولهذا ورد فی الحدیث: «صدقهٔ السرّ تطفئ غضب الربّ».

إنّ صدقهٔ السرّ تربّی المعطی مضافاً أنّ آخذها لا یشعر بالذلّ؛ فإنّ الإطراء أو الإعجاب الذی یحصل علیه المرء فیما لو أعطی علی مرأی من الناس قد یخفّف من صعوبهٔ الإعطاء والصدقهٔ، لإحساسه بکونه قد اشتری بها سمعهٔ وجاهاً، فلا یشعر بصعوبهٔ بذْله. أمّا الصدقهٔ فی السرّ فتعنی تغلّب المرء علی صعوبهٔ البذل لغیاب التشجیع والإطراء والإعجاب وما أشبه. فصدقهٔ السر تطفئ غضب الرب، لأنّها أقرب إلی الإخلاص؛ لأنّ الله تعالی کما ورد فی المأثور سریع الرضا، ولکنّه حلیم، أی لا یغضب بسرعهٔ. وهذا قد یبدو جمعاً للأضداد إذا ما قیس إلی حالتنا نحن البشر.

فالذین یحلمون ولا یغضبون بسرعهٔ إنّما یکظمون غیظهم لا أنّهم لا یتأثّرون أساساً، وهذا یعنی تراکماً فی غیظهم حتی إذا امتلأ وفاض کان غضبهم شدیداً وبطیء الزوال، وقدیماً قیل: «نعوذ بالله من غضب الحلیم». أمّا الله تعالی فلیس هکذا، فهو سبحانه حلیم وهو سریع الرضا إذا غضب، لأنّه عزّ وجلّ هو الرحمهٔ المطلقهٔ، وقد سبقت رحمتُه غضبه، وقد خلقنا لیرحمنا؛ قال تعالی ... ?: إِلَّا مَن رَحِمَ رَبُّکَ وَلِذَلِکَ خَلَقَهُمْ، ?أی لیرحمهم.

ولکن مع ذلک لا ینبغی للعبد أن یستصغر أیّهٔ معصیهٔ، فلعلّ غضب الله فیها. وعلی العبد أیضاً أن یعمل ما من شأنه أن یزیل غضب الله تعالی، وممّا یطفئ غضبه سبحانه صدقهٔ السرّ، والعلّهٔ فی ذلک أنّها تعنی أنّ القائم بها قد نجح فی ترویض نفسه وتعبیدها لله عزّ وجلّ، إضافهٔ إلی أنّ آخذها لا یشعر بالضعهٔ بین الناس.

الهدف من الفضائل الأخلاقیهٔ

إنّ من أهمّ الأمور فی المقام هو أن یربّی الإنسان نفسه، فهذا هو الشیء الأساسی، وإن کانت الفضائل الأخلاقیّهٔ فی حدّ نفسها جیّدهٔ ولازمهٔ، من قبیل أن لا ـ یؤذی الناس بلسانه أو خُلقه السیّئ أو سیرته السیّئهٔ أو بخله. وما نقل من قصص العلماء والصلحاء فی هذا المجال یدلّ علی ضبط قویّ للنفس.

فما نراه من اهتمام الناس غالباً بقصص الذین ربّوا أنفسهم تربیهٔ صحیحهٔ حتی أکثر من اهتمامهم بالمجتهدین رغم أنّ الاجتهاد لیس شیئاً سهل المنال بل یتطلّب من الشخص متوسّط الذکاء تفرّغاً للدراسهٔ المتواصلهٔ لمدّهٔ زهاء عشرین سنهٔ. فرغم هذا ورغم وجود الألوف من المجتهدین فی الحوزات العلمیهٔ فی طیّ الزمان والحمد لله ولکننا لم نرَ کتباً تهتمّ بإحصاء المجتهدین من الشیعهٔ مثلاً،

ولكنا نرى اهتماماً بنقل القصص التى تحكى جانب بناء النفس عند بعض العلماء مما يدلّ على أهميّته وندرته وصعوبته.

قصة فيها عبرة

حكى أنّه كان للشيخ الأنصارى زميل فى الدراسة اسمه سعيد العلماء، وكانا يحضران معاً عند الأستاذ شريف العلماء رحمهم الله جميعاً وكان الشيخ الأنصارى ينحدر من مدينة شوشتر الإيرانية، فيما كان زميله سعيد العلماء من أهالى مدينة مازندران الإيرانية أيضاً. وبعد مرور عشر سنوات على الدراسة معاً استدعى المازندرانيون سعيد العلماء لكى يقيم لهم صلاة الجماعة ويفتيهم فى المسائل الشرعية ويقضى بينهم ويقضى حوائجهم، فلبّى دعوتهم، فانتقل إلى مازندران وأسّس هناك حوزة وظل فيها، فيما بقى الشيخ الأنصارى فى مدينة كربلاء المقدّسة ثم انتقل بعد وفاة شريف العلماء إلى النجف الأشرف وظلّ يواصل الدرس والتدريس والبحث والتحقيق طيلة مرجعية صاحب الجواهر رضوان الله عليه. ولما توفّى صاحب الجواهر كانت الأصابع تشير إلى الشيخ الأنصارى وتطالبه بالتصدّى للمرجعية والإفتاء وإصدار رسالة عملية لكى يقلّده الناس. ولكن الشيخ الأنصارى أجاب مناشديه بالتصدّى للمرجعية أنّه يشترط الأعلمية فى مرجع التقليد. مشيراً الى أنّ زميله سعيد العلماء كان أذكى منه أيام دراستهما فى كربلاء لدى شريف العلماء، مرشداً الأمّة لتقليده. وذهب وفد من العراق إلى مدينة مازندران فى إيران وعرضوا الأمر على سعيد العلماء وطلبوا منه أن يصدر رسالة عملية ليتسنّى لهم تقليده، ولكنه امتنع معلّلاً بالقول: إننى انقطعت عن البحث والتحقيق منذ مغادرتى كربلاء لأتفرّغ لإمامة الجماعة وهداية الناس فى مازندران فيما واصل الشيخ الأنصارى الدرس لدى شريف العلماء ومن بعده صاحب الجواهر وكان متفرّغاً للبحث والتحقيق، فصار أعلم منّى وإن كنت سابقاً أعلم منه.

ولما عاد القوم إلى الشيخ الأنصارى ونقلوا له مقالة سعيد العلماء أجابهم إلى طلبهم وكتب حاشيته على كتاب «نجاة العباد» الرسالة العملية لصاحب الجواهر.

إنّ هذه القصّة هى إحدى القصص الكثيرة التى تنقل عن الشيخ الأنصارى وتحكى سموّ روحه وتهذيب نفسه. وجدير بتلك القصص أن تكون مربّية للأجيال، ولذلك تراها تلتقط وتُدوّن وتتناقل وتذكر ويُتّعظ بها حتى مع تكرر سماعها، لأنّها نادرة وغير يسيرة التحقق عند كلّ أحد. فربّما احتاج المرء إلى خمسين سنة من التربية لتصل نفسه إلى هذه المرحلة بحيث يعرض عليه مثل هذا العرض و مع ذلك يتورّع وينجح فى التنازل عنه، فى حين إنّ بعض الناس إذا واجه فقيراً يحتاج إلى مساعدة، ربّما يتردّد فى المبلغ الذى ينوى إعطاءه، أيعطيه ديناراً مثلاً أم نصف دينار أم ربع دينار؟ وربّما لا يعطيه فى الآخِر ولا يتنازل حتى عن درهم من ماله.

تربية النفس أوّلاً

يُنقل عن المرحوم الشيخ عبد الكريم الحائرى، عن أستاذه السيّد الفشاركى الذى كان من العلماء الفطاحل والمجتهدين المحقّقين ومن تلامذة المجدّد الشيرازى رضوان الله عليهم جميعاً أنّه قال: لمّا توفّى المجدّد الشيرازى رجع كثير من الناس فى تقليدهم إلى الشيخ محمد تقى الشيرازى، وكان والدى أى والد السيّد محمد الفشاركى مجتهداً ومرجعاً للتقليد أيضاً، فبعثنى رسولاً إلى الشيخ محمد تقى الشيرازى لأسأله إن كان يرى نفسه الأعلم أم والدى، قال والدى فى رسالته إلى الشيخ: إنّ زوجتى وأولادى كانوا يقلّدون المجدّد الشيرازى وقد توفى، فهل تعتقد أنّك أنت الأعلم لكى يرجعوا فى تقليدهم إليك، أم ترانى أعلم منك لكى يتحولوا إلىّ؟!

يقول السيّد الفشاركى: بعد أن نقلت تحيات الوالد وسؤاله للشيخ الشيرازى، فكّر قليلاً ثم قال لى: أبلغ والدك السلام وقل له: وما رأيه؟

يضيف السيّد الفشاركى: عدت إلى الوالد و أخبرته بمقالة الشيخ محمد تقى، فأرجعنى للشيخ لأسأله هذه المرة عن رأيه فى تفسير الأعلم، وهل هو الأكثر ذكاء وفطنة أم الأكثر تعمّقاً ودقّة أم الأقوى ذهناً من الناحية العرفية؟ ولمّا عدت للشيخ أرجعنى بدوره إلى

الوالـد يسأله عن تحديـده لمفهوم الأعلم. وبعـد أن دقّق والـدى فى هـذا الأمر كثيراً، أمر أهله بأن يقلّدوا الشـيخ محمد تقى الشـيرازى لترجيحه أن يكون هو الأعلم وفق تفسيره لمعنى الأعلم.

ويظهر ممّا ذُكر المـدى الذى بلغه بعض مراجعنا فى الورع وتربيهٔ النفس بحيث لا يتنافسون على المرجعيهٔ والزعامهٔ، بل لا يتصدّون لها ولا يـدّعونها إلّا بعـد تثبّت وتحفّظ وتـدقيق، وبعـد أن تقلّـدهم الأمّـهٔ وعلماؤها المسؤوليـهٔ وهـم أهل لها من حيث العلم والورع والتقى والخلق والسموّ الروحى وتهـذيب النفس والزهـد فى الـدنيا ونبذ كلّ مظاهرها من شـهرهٔ وجاه ومال وغيرها. لأنّ الهدف من الفضائل الأخلاقيّهٔ عندهم هو بناء النفس.

وتبقى قصصـهم تربّى الأجيال، فربّ واحدهٔ منها غيّرت مجرى حياهٔ فرد وجعلته يسـتقيم؛ فهذه القصـص إنّما جاءت كنتيجهٔ لتربيهٔ تميّز بها أصحابها تحوّلت فيما بعد إلى صدقهٔ جاريهٔ تتناقلُها الكتب والألسن جيلًا بعد جيل.

أقول: إذا كانت «الكلمهٔ الطيبهٔ صدقهٔ» فكيف بالعمل والسيرهٔ الطيبهٔ؟ لا شك أنّها أوفر حظّاً، وأبلغ شأواً لاستحقاق الصدقهٔ.

فلنحـاول نحن أيضـاً من الآـن أن نسـعى فى تربيـهٔ أنفسـنا، فـإنّ تهـذيب النفس وتربيتها ينبغى أن يكون هو الهـدف الأسـمى من وراء الدراسـهٔ والمنبر والتأليف. إنّ تهذيب النفس هو هدف الأنبياء والأوصـياء، قال تعالى?: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ، ?وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أدّبنى ربّى فأحسن تأديبى».

فمن أتعب نفسه فى هـذا الطريق ووصل إليه ولو بعـد حين، يكون قد وصل إلى الغايهٔ التى من أجلها خُلق. قال تعالى?: وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ? إِلاَّ مَن رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ.?

بينما لو أصـبح أكثر الناس مالاً، وأصحّهم جسماً، وأدقّهم نظراً دون أن يحقق هذه الغايهٔ، فستذهب حياته كلّها سدى، ولا فائدهٔ ترتجى من كـلّ مـا حصـل عليه، كما صار إليه قارون، الـذى حكى الله قصّته فى القرآن الكريم. قال تعالى?: قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِى أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا.?

(۹) فى التعامل مع الناس

مصانعهٔ المنافق

هنـاك أحاديث وروايات عديـدهٔ تؤكّـد على الإنسان أن لا يُظهر للآخر كلّ ما فى قلبه من حبّ وعـداء، وما يختلجه من أفكار تجاهه، إلّا بمقدار ما يقتضيه الظرف، كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أو نحوهما مما يُعرف من الأدلّهٔ فى مظانّها كما فى روايهٔ عن الإمام الصادق سـلام الله عليه يرويها الشـيخ الصـدوق فى «من لا يحضـره الفقيه»، ويؤكّـد صـحّهٔ سـندها المجلسـى الأوّل فى «روضهٔ المتقين» وفيها: إنّ إسـحاق بن عمار أحد أصـحاب الإمام الصادق عليه السـلام يقول: قال لى أبو عبد الله عليه السلام: «يا إسحاق، صانع المنافق بلسانك، وأخلص ودّك للمؤمن، وإن جالسك يهودىّ فأحسن مجالسته».

من الطبيعى أنّ المؤمن لا يحبّ المنافق بل يبغضه ويكرهه، إلا أنّ الإمام يأمره هنا بأن يصانعه بلسانه، أى يجامله فى الحـديث؛ لأنّ من الأخلاـق الحميـدهٔ للمؤمن أن لاـ يظهر كـلَّ الكراهيـهٔ التى يحملهـا فى قلبه للشـخص الـذى لاـ يتوافق معه على حال، وإن كان منافقاً، فكيف إذا كان مؤمناً؟

قـد يختلف المؤمن عن أخيه المؤمن فى أسـلوبه أو خلفياته أو عاداته أو ذوقه أو بعض صـفاته، إلا أنّ هذه الفوارق ليس من شأنها أن تسـلب المؤمن التزامه بالتعـاليم الإسـلاميهٔ، فلاـ ينبغى للمؤمنين أن يتبـاغضوا فيمـا بينهم؛ ولـذا أوصـى الإمـام سـلام الله عليه هنا بقوله: «وأخلص ودَّك للمؤمن»، أى عـامله بما هو مؤمن، وأظهر حبّك له بغضّ النظر عن شـكله ولونه ولسانه أو ذوقه أو تربيته الخاصّـهٔ التى لا منافاهٔ فيها مع الموازين الإسلاميهٔ.

أمّا المنافق وهو الذى يبطن الكفر ويظهر الإسلام، فإنّ الإمام يوصينا بمجاملته: «وصانع المنافق بلسانک»، فهذا هو الخطّ العام للأخلاق الإسلامية، وهو أن تتحدّث وتتعامل مع الناس مؤمنهم، ومنافقهم، وكافرهم بالحسنى، وإذا كانت هناک مستثنيات واقتضاءات خارجية في بعض الموارد تستدعى تقديم الأهمّ على المهمّ، فيرجع فيها إلى مظانّها، ولكنّ الذى يجب أن نفهمه في الخطّ العامّ هو أنّ على المؤمن أن يكون مدارياً وإيجابيّاً فى تعامله وكلامه مع الناس حتّى مع غير المؤمنين كالمنافقين، واليهود الذين وصفهم الله تعالى بأنّهم أشدّ الناس عداوة للمؤمنين.

الاقتداء بنهج النبيّ وأهل بيته

من يتتبّع تاريخ رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته الأطهار سلام الله عليهم ومن بعدهم تاريخ العلماء الأخيار، سيجد هذا النهج الأخلاقى القويم فى سيرتهم وتعاملهم مع الناس. فقد ورد أنّ النبى صلى الله عليه وآله كان إذا صافحه شخص، لا يسحب يده حتى يكون ذاک هو البادى.

ومعلومٌ أنّه لم يكن كلّ الذين يصافحهم رسول الله صلى الله عليه وآله من المؤمنين، بل كان فيهم بلا شكّ المنافقون، ومنهم من يعلم بحالهم النبى صلى الله عليه وآله ممن يستحقّون القتل، ولم يقتلهم لئلّا يقال: إنّ محمداً استعان بقوم، حتى اذا ظفر بعدوّه قتلهم.

وهكذا كان أهل البيت سلام الله عليهم. فمن يتصفّح تاريخهم سيجد النهج نفسه. ومن يطّلع على سيرة الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه، سيلاحظ أنّه كان يتعايش مدارياً فى أيّام حكومته حتى مع الخوارج والمنافقين، فكان لا يغلظ معهم فى القول حين يتعرّضون بالإساءة إليه بل كان يظهر لهم منتهى اللين والرفق.

قد يقتضى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى موردٍ ما موقفاً خاصّاً بحسب ما يرجع فيه إلى تقدير الإنسان ومعرفته للحكم الشرعى إلا أنّ الخطّ العام هو أن يعامل الناس بالحسنى، أمّا المنافقون فلا يُظهر لهم ما فى قلبه من بغض، بل يصانعهم بلسانه، لأنّ هذه من الصفات التى كان أهل البيت سلام الله عليهم، يأمرون بها أتباعهم، وهناک روايات عديدة فى هذا الباب، فضلاً عمّا تقدّم.

تهذيب النفس طريق الإبداع

إذا كان فى الناس عموماً فضلاً عن المؤمنين انحراف، فهو فى الغالب انحراف سطحىّ فى بداية أمره، لا يلبث أن يزول تدريجياً فيما إذا كان أسلوب مناصحتهم حسناً، ولكنه يتعمّق بواسطة الأساليب الخشنة؛ فإنّ السلوک الحسن غالباً ما يؤثّر تأثيراً إيجابياً فى الإنسان المنحرف ويقوّم انحرافه. ومن النادر أن لا يؤثّر هذا الأسلوب فى التعامل مع الأفراد، خصوصاً إذا كانوا مؤمنين؛ ولذا عندما نبحث فى بعض الجوانب المهمّة من تاريخ علمائنا الماضين رضوان الله عليهم، نرى أنّ هذا الأسلوب من الأخلاق فى تصرّفاتهم هو الذى فسح لهم الطريق لأن يبدعوا فى مجال أعمالٍ ضخمة قد خلّدها التاريخ.

أمّا الذين لم يتوانوا عن إظهار ما فى قلوبهم من مشاعر سلبية نحو هذا وذاک، فإنهم لم يستطيعوا إنجاز ما حقّقه أولئک الذين سما بهم سلوكهم الأخلاقى الرفيع فى الوصول إلى ما وصلوا إليه.

فالسبب المهمّ الذى مكّن المجدّد الشيرازى رضوان الله عليه من محاربة الغزاة المحتلّين فى زمانه وتعبئة كلّ الطاقات الشعبية ضدّهم، هو تجنّبه عن الصغائر فى الأمور وابتعاده عنها، لعلمه مسبقاً أنّ الإنسان إذا اشتغل وهو بهذا المقام الرفيع بنواقص فلان وفلان لا يسعه المجال لكى ينصرف لمكافحة الاستعمار.

بينما كان هناک عالمان من معاصريه يمثّلان الجهة السلبية، ولذلک لم يُنقل عنهما فى الميادين الاجتماعية شىء يذكر، ولو ذُكر اسميهما فلعلّ معظمكم لا يتذكر أنّه سمع بهما، رغم ما توفّرا عليه من مكانة علمية قد ترتقى إلى مستوى علميّة المجدد الشيرازى، إلا أنّ تعاملهما الاجتماعى السلبى قد أقصاهما عن التاريخ.

يُذكر أنّه كان فى زمانهما شخص له مقدرة علمية يشار لها بالبنان، إلا أنّه كان متهكّماً، تصدر منه تجاه العلماء الماضين بعض التعبيرات غير اللائقة عند مناقشة آرائهم، فحضر هذا يوماً مجلساً كان يحضره أحد العالمين آنفى الذكر أيضاً أعنى أحد الرجلين اللذين يرتقى مستواهما الى مستوى المجدّد الشيرازى فلمّا قُدّم الشاى لذاك الشخص وجاء صاحب المجلس ليرفع من أمامه صحن الشاى، ناداه ذلك العالم من جانب المجلس: مرهم ليغسلوا هذا صحن الشاى! إشارة منه إلى كفر ونجاسة مستعمله أى الرجل صاحب التعبيرات اللاذعة فلقّب الرجل على أثر ذلك بالمكفَّر، أى من رُمى بالكفر، ولكن بسبب السلوك التكفيرى لم يستطع هذا المكفِّر على ما له من باعٍ فى المقام العلمى أن يبرز فى الميادين الاجتماعية من تاريخه سوى فى هذا الأمر، حتى عُرف واشتهر به، أى لا يُنقل عنه من الأمور الاجتماعية سوى أنّه كفَّر فلاناً، بينما عُرِف زميله المجدّد رضوان الله عليه بأنّه كافح الانجليز من خلال إحباطه لمؤامراتهم ضدّ المسلمين، وخير شاهد على ذلك فتواه فى تحريم استعمال التنباك والتى عُرفت فيما بعد ب «ثورة التنباك».

فإذا أخذ الإنسان المؤمن هذا الأمر بنظر الاعتبار، وأخلص ودّه للمؤمن وصانع غير المؤمن من منافق أو كافر، أمكنه أن يقطع شوطاً فى هداية الناس، فضلًا عن تقويم نفسه. وهذا معناه أننا لو تعاملنا مع الناس بهذه النفسية ودارى كلّ واحد منّا مئة منافق مثلاً فأغلب الظن أنّه سيعود تسعون منهم إلى جادّة الصواب ومنهل الخير شيئاً فشيئاً. وينبغى أن لا يثنينا تخلّف الباقين، كما لا ينبغى أن نضحّى بالتسعين ما دام لديهم هذا الاستعداد فى الميل نحو الهدى بسبب امتناع أولئك العشرة الباقين عن طريق الهدى والصلاح.

أحبب لغيرك ما تحبّ لنفسك

الناس عموماً يُستمالون باللين، وتؤلّفهم الرأفة، وتنفّرهم الحدّة. فإذا استطاع الإنسان كسب ودّ الناس وأُلفتهم وعدم تنفيرهم عن نفسه، أصبح أكثر توفيقاً فى أموره وأعماله.

نحن نحبّ الحلم، ونحبّ الدفع بالتى هى أحسن وغيرهما من الأمور الحسنة، فهكذا الآخرين. مثلًا: لو صدرت منّا زلّة، فماذا نُحبّ أن نُكافأ به، هل سوى الحلم والصفح؟ كذلك لو صدرت من غيرنا تلك الزلّة، فإنّه يحبّ الشيء نفسه، ويُحبّ أن نحلم ونصفح عنه.

فينبغى لنا دائماً أن نُحبّ لغيرنا ما نُحبُّه لأنفسنا، ونظهر لغيرنا من أنفسنا ما نرجوه لنا من غيرنا، فالإنسان عند هذه الأمور التى تحدث، ينبغى له أن يضع نفسه مكان غيره، وغيره مكان نفسه.

جاء شخصٌ يوماً إلى الشيخ محمّد تقى الشيرازى رحمه الله يطلب منه ما يُسمّى بالصلاة والصوم الاستيجارى وكان الشيخ يشترط العدالة فى المستأجر لقضاء الصلاة والصوم عن الميّت فقال له الشيخ: الآن لا يوجد عندى شىء. فغضب الرجل وسبّ الشيخ ثم انصرف! وبعد مدّة جىء بأموال إلى الشيخ لغرض قضاء صلاة وصوم، فقرّر إرسالها إلى ذلك الرجل الذى سبّه. فقيل له: ألا تشترط العدالة فيمن يقضى صلاة أو صوماً عن ميّت؟ قال: نعم. قالوا: إن كان ذلك الرجل عادلاً فقد فسق عندما سبّ مؤمناً. قال: غير معلوم أنّه كان ملتفتاً إلى قوله، وذلك لشدّة حاله وفقره.

فهذا الخلق الرفيع لهذا العالم الجليل، حقيقٌ بالتمجيد والثناء، فلننظر لو وقعت لنا القضية نفسها، فهل نفعل ما فعله الشيخ؟ أو أنّ سبّه يوجب شكّنا فى عدالته على أقلّ تقدير، فلا نسلّمه شيئاً يقتضى العدالة فيه؟ هذا إن لم نقل: إنّ مجرّد صورة اعتدائه هذا نعتبره تجرّياً على العصيان والظلم. فطبيعة الإنسان كثيراً ما توحى إليه هذا الإيحاء السلبى تجاه غيره لتميد به عن جادّة الأخلاق الحسنة.

فإن لم نحاول تغيير هذه الطبيعة فسنبقى نتصرّف مع الناس سلبيّاً حال وقوعنا فى قضية مشابهة، بينما لو حملنا الأمر على محامله الحسنة لرؤيتنا له من زاوية أخرى لوضعنا له الحلول المناسبة وبحسب ما تقتضيه نفوسنا من حبّ الخير والصلاح، ولا يتأتّى ذلك إلاّ إذا روّضنا النفس على التحلّى بالخصال التى تحلّى بها أئمتنا الأطهار سلام الله عليهم وعلماؤنا الأبرار.

ينقل عن العلاّمة الحلّى رضوان الله عليه قصّة فى هذا المجال، وهى أنّ الفقهاء كانوا يقولون: إنّ ماء البئر ينجس بملاقاة النجاسة، وذلك لعدم اعتبار ماء البئر كرّاً أو جارياً. وكان العلاّمة على شكّ من هذه المسألة. فاتّفق أن سقطت نجاسة فى بئر بيته، فبادر إلى

طمّها فوراً، ثم راجع المسألـة بدقّـة، وبعـد أن عثر على الحكم الشـرعى، أفتى بطهارة ماء البئر، واعتبار حكمه حكم ماء الكر، وإن كان أقلّ منه، فلا يتنجّس بملاقاة النجاسة من غير تغيير.

ربّما كان ضـمن وجه عمله هذا هو أن لا تؤثّر مصـلحته الشخصية ولو قليلًا جداً فى بحثه عن الأدلّة والشواهد التى انتهت به إلى طهارة ماء البئر وعاصميّته.

فقـد روى عن أهل البيت صـلوات الله عليهم، قولهم: «من اتّهم نفسه أمِنَ خـدع الشـيطان»، و «من اتّهم نفسه فقد غالب الشـيطان»، فإذا أراد الإنسـان أن يربّى نفسه، فعليه أوّلاً ـ أن يتّهمهـا دائمـاً فى تصـرّفاته الشخصـية، وذلـك بأن يجعل نفسه مكان غيره فى كلّ القضايا، وكـذلك يجعل غيره مكان نفسه، لأنه فى كثير من القضايا يحكم لنفسه بشـكل، ولغيره بشـكل آخر، يعنى نفس القضـية إذا وقعت له يحكم لنفسه بشكل ينسجم مع غرائزه وميوله، وإذا وقعت لغيره يحكم له بشكل آخر مغاير لما حكم به لنفسه.

يُنقل عن الشيـخ نصـير الـدين الطوسـى وكان عالماً فيلسوفاً فقيهاً، وحاكماً أيضاً أنّ شـخصاً كتب إليه رسالة فيها تأنيب وتقريع وإساءة أدب، ومن جملة ما كتب فيها (يا كذا) فكتب له الشـيخ الطوسى ...: وأمّا وصفك لى ب (ياكذا) فهذا خطأ، لأنّ الكلب حيوان يمشى على أربع، وأنا أمشـى على اثنتين، والكلب يغطّى كلّ بدنه الشعـر وأنا لست كذلك، فضـلاً عن ذلك فأنا حيوان ناطق بحسب الفصـل المنطقى والكلب حيوان غير ناطق.

فهـذا النفَس الأخلاـقى فى الردّ من جـانب الشيـخ الطوسـى مـدعاة لتمجيـده والإـطراء عليه؛ لما له من الثقـة بالنفس وعـدم المبالاة بما تعرّض له من قبل ذلك الشخص، والتركيز بدلاً من ذلك على الأمور المهمّة الشرعيّة والاجتماعيّة.

أمّا لو وقعت لنا مثل هذه القضـية وجاءنا البريد برسالة من شـخص تحمل عبارات كتلك، فهل نسـتطيع من دون تربية أنفسنا أن نجيب عليه بمثل جواب الشيخ الطوسى ولا نحاول ردّه بالمثل ونحو ذلك؟

الترفّع عن صغائر الأمور

لا شكّ أنّ الناس غير متّفقين فى الأذواق فضـلًا عن الأخلاق، فينبغى لمن يتعامل معهم أن يترفّع عن وضائع الأمور، وهـذا الأمر يتأكّد بالنسبة إلى العلماء ورجـال الـدين لأـنهم مرتبطون ارتباطـاً وثيقـاً مع النـاس، فيكونون عرضـة للمشاكـل أكثر من غيرهم، فهنـاك من يعارضـهم فى مسألـة أو يردّهم فى رأى أو يختلف ذوقه مع أذواقهم، بل قد يصل الأمر إلى وجود من يواجههم بالسبّ والشتيمة، لغاية ما. فلو انشغل رجال الدين بهذا وذاك، ستتلف أعمارهم ويضيع تاريخهم وجهدهم دون جدوى.

لقـد علّمنـا أئمتنـا سـلام الله عليهم أن نصـانع المنـافق بألسـنتنا فضـلًا عن ودّ المؤمن لنكون قادرين على تغيير المجتمع فضـلًا عن تربية أنفسنا.

يُنقل عن المجدد الشيرازى رضوان الله عليه أيضاً: أنّ مجموعة من الأعداء المنافقين قتلوا له ولداً وكان أكبر أولاده فلم يتّخذ رحمه الله تجـاههم موقفـاً غير موقف الحلم، فصـفح عنهم صـفحاً جميلًا! مع أنّه كان من حقّه شـرعاً أن يطالب بـدم ابنه وكان يمكنه ذلك، لأنّ الأـمور كـانت مهيّـأة له، إلاّـ أنّه رحمه الله لم يفعـل ذلك، وإلاّ لم يكن ليسـتطيع تعبئـة كلّ الطاقات فى نفسه وفى المسـلمين لمجابهة الاستعمار البريطانى الذى كان قابعاً على صدر الأمّة آنذاك.

والأمر نفسه حـدث للسـيّد أبى الحسن الأصـفهانى رحمـة الله عليه حين قُتل ولـده، فاعتُقل قاتلُه، إلاّ أنّه وهو المفجوع بولده الذى كان خير أولاـده طلب من المسؤولين وبإصـرار، أن يُخلوا سبيـل القاتل، وهكـذا أُخلى سبيل القاتل وترك. فهـذا التوجّه والخلق والاشـتغال بالأمور المهمّة التى يُنظر فيها إلى المصلحة العامّة، هو الذى أوصل السيد الأصفهانى رحمه الله إلى ما وصل إليه من علوّ شأن ورفعة.

فالإنسان إذا انشغل بالأمور الصغيرة، سوف لا يصل للأمور الكبيرة والمهمّة.

إنّ طالب العلم الـدينى عند بداية دخوله فى مجال الدراسة أو التدريس أو الموعظة أو التأليف، يدخل بآمال كبيرة ورؤى واسـعة، غير

أنّ انشغاله برطب الحياة ويابسها يعرقل سيره ويحبط بالنتيجة آماله ورؤاه التى شرع فى السير من أجلها.
لـذا فعندما نمجّد الشيخ نصير الدين الطوسى أو المجدّد الشيرازى أو الشيخ محمد تقى الشيرازى أو السيّد أبا الحسن الأصفهانى رحمهم الله وغيرهم من العلماء الأعلام، على مثل تلك الأخلاق الرفيعة، فلا ينبغى أن نكتفى بذلك، بل علينا أن ننهج نهجهم وذلك بترويض أنفسنا للوصول إلى مثل ذلك الخلق الكريم والسير بين الناس بالحسنى.
فإذا استطاع طالب العلم أن يكون بهذا المستوى عندها سيحقّق آماله وتطلّعاته التى من أجلها بدأ، وقطع الأشواط أملاً فى الوصول إليها، وإلّا فلا يرجو أن يحقّق شيئاً، لأنه سيبقى يدور فى مجال محدود، ضمن محيط ضيّق وأعمال صغيرة، وإن كانت بعضها حسنة فى نفسها، ولكن قد لا تكون كذلك بلحاظ أمور أخرى، فيكون هذا الإنسان قد صرف عمره الذى كان ينبغى أن يصرفه لهداية الملايين من الناس فى هداية الآحاد وربما العشرات، على أحسن التقادير، هذا إذا لم يكن قد صرفه فى توافه الحياة وهوامشها.
ليس للإنسان عُمران فى هذه الحياة، فلو صرف عمره فى الأمور التى هى أقلّ أهمية، فإنّه سيُصرف بذلك عن الأمور المهمّة، وبمقدار ما نتأخّر فى الأمور المهمّة يتقدم أعداؤنا فيها!
والتوفيق فيما ذُكر يحتاج إلى الاستعانة الدائمة بالله تعالى والاستعاذة به من الزلل فى المنعطفات الخطيرة، وفى الوقت نفسه يحتاج إلى تركيز وجهد مع صبر، فالله تعالى لا يقطع رجاء من يرجو فضله. نسأله سبحانه التوفيق بمنّه وفضله.

(۱۰) المداراة من طرق هداية الناس

(۱۰) المداراة من طرق هداية الناس

وردت فى المداراة أحاديث وروايات كثيرة، يظهر منها مدى مكانة المداراة فى الإسلام؛ منها:
ما روى عن النبى صلى الله عليه وآله قوله: «من عاش مدارياً مات شهيداً».
وقوله صلّى الله عليه وآله: «أمرنى ربّى بمداراة الناس كما أمرنى بإقامة الفرائض».
وقوله صلّى الله عليه وآله: «بُعثت بمداراة الناس».
وكذلك: ما رُوى عن الامام الحسن المجتبى عليه السلام: «مداراة الناس نصف الإيمان».
كما يختلف الناس فى أشكالهم وألوانهم كذلك يختلفون فى أخلاقهم وأذواقهم، ولا يكاد يوجد إنسان يشبه الآخر فى كلّ الجوانب، والمداراة هى واحدة من الجسور التى يمكن عبرها التأثير فى الناس. وهى تختلف عن المداهنة.
فعن أمير المؤمنين سلام الله عليه أنّه قال: «لا ترخصوا لأنفسكم فتدهنوا، ولا تداهنوا فى الحقّ فتخسروا».

الفرق بين المداراة والمداهنة

الفرق الرئيسى بين المداراة والمداهنة أنّ المداهنة لا تكون فى طريق التربية والهداية. ومن يداهن شخصاً يعصى الله تعالى، ليس غرضه مراعاة الأهمّ والمهمّ، بل كسب رضا العاصى على أىّ حال، فيجاريه من أجل مصالح شخصية، من قبيل أن يحصل على احترام العاصى أو ودّه، أو يحصل منه على مكسب مادّى كأن يعطيه مالاً.
والمداهنة مذمومة ويحاسَب الإنسان عليها؛ ولذلك روى فيما أوحى الله تعالى إلى النبىّ شعيب: «إنى معذّب من قومك مئة ألف، أربعين ألفاً من شرارهم وستّين ألفاً من خيارهم، فقال: ياربّ هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟ فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: داهَنوا أهل المعاصى فلم يغضبوا لغضبى».
أمّا المداراة فهى من الدراية والعلم والمعرفة والتوسّل بطرق الهداية لجلب الإنسان إلى الحقّ أو إبقائه عليه.

وبعبارة أخرى: المداراة أن يكون موقف الإنسان تجاه الناس موقفاً يخدم فى استقطاب الناس وهدايتهم إلى الإسلام والأخلاق والفضيلة بشتّى السبل المشروعة.

من نداري؟

قُسّم المسلمون الأوائل من حيث الأدوار إلى أربعة أقسام، فبعض امتاز بالقِدم فى الانتماء فقط دون أن يكون له قَدَم ودور وموقف مشهود، وبعض وإن لم يكن له قِدم بأن كان حديث العهد فى الإسلام إلّا أنه امتاز بالقَدَم والدور، وثالث جمع بين الفضيلتين، ورابع كان فاقداً لهما.

ومثال الفريق الثانى، الذى له قَدم وإن لم يكن له قِدم: ذاك الذى أسلم فى الحرب مع رسول الله صلى الله عليه وآله وتشهّد الشهادتين ثم قُتل دون أن تمهله الحرب لصلاة بعدها أو صيام.

كما يمكن أن يكون «الحرّ بن يزيد الرياحى» مصداقاً لذلك لأنّه كان فى معسكر قد شهروا السيف فى وجه الإمام الحسين صلوات الله عليه، أى كان فى صفوف ناصبى العداء لأهل البيت سلام الله عليهم، ولكنه تاب قبل بدء المعركة واستشهد ربما قبل أن يصلّى صلاة صحيحة بعدما انحاز إلى لواء أهل البيت سلام الله عليهم؛ لأنه وكما يروى عنه قال للإمام الحسين: «يابن رسول الله، كنت أوّل خارج عنك فدعنى أكون أوّل شهيد بين يديك».

أمّا مثال الفريق الأخير، وهو الذى لا قِدم له ولا قدَم، كالشيخ الذى يدخل الإسلام ويبدأ الالتزام وقد ناهز عمره السبعين مثلاً فتراه يصلّى ويصوم ويؤدّى العبادات ولكنه لا يتحمّل الشدّة فى الدين، وربما انفلت عنه عند تعرّضه لأبسط امتحان، أو ارتكب المعصية مع أوّل شدّة تمرّ عليه؛ فمن الجدير المداراة مع أمثال هؤلاء، لضعف إيمانهم، كما ينبغى المداراة مع الشباب أيضاً من أجل عدم انفلاتهم عن الطريق وتوغّلهم فى المعاصى.

المداراة: تقديم الأهم على المهم

كنت قد عقدتُ مجلساً فى كربلاء المقدسة فى زمن بعيد لمجموعة من الشباب لبيان أصول الدين والأحكام والآداب الإسلاميّة. وكان يحضره إلى جانب طلاب العلوم الدينية شباب من طلّاب المدارس الحديثة وبعض المثقّفين. ففى إحدى الجلسات لفت انتباهى شابّ لم أعهد حضوره من قبل ولم أعرفه، رأيته متختّماً بخاتم من ذهب ويظهر أنّه كان جديد عهد بالزواج.

إلّا أنّى رأيت عدم التعجّل فى نهيه عن التختّم بالذهب؛ لاعتبار كونه جديد عهد فى حضوره المجلس، فضلاً عن عدم معرفتى به، فخشيت أن لا يحضر المجلس بعد ذلك إذا نهيته فى أوّل تعرّفى به. ولم تكن خشيتى بالطبع من عدم حضوره المجلس، إلّا لأنّه بعدم حضوره قد يتّخذ مسالك غير سليمة.

وبعد أن نقلتُ القضيّة لوالدى رحمه الله قال لى: حسناً فعلت، دعه يحضر أوّلاً، ويستمرّ فى حضوره ليتعلّم أصول الدين وفروعه، وما يترتّب عليه من أوامر ونواه، وبعد أن يقوى إيمانه وترتقى إرادته فى الإقدام على ترك المنكرات يمكنك أن تطرح عليه المسألة، وتقول له: إنّه لا يجوز له ذلك. فاحتمال عدم حضوره المجلس وارد لو نهيته الآن.

فهذا يُعدّ من معانى المداراة، أى تقديم الأهمّ على المهمّ، عند التزاحم، من أجل هداية الناس إلى الإسلام أو إبقائهم عليه وعلى أصوله وأحكامه. ومهما يكن، فالمداراة ليست كالمداهنة التى لا ترجو هدفاً كهذا، فترى صاحبها يتوخّى من وراء سكوته على الباطل أن يصل إلى تحقيق منافع شخصية دنيوية صرفة.

النبى يونس والمداراة

يظهر من الروايات أنّ النبي يونس عليه السلام كان قد ترك المداراة وفعل غير ما ينبغي فعله من باب الأولوية? فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ ?ونزل به ما نزل.

فقد روى عن أبى عبد الله الصادق سلام الله عليه أنّه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله فى بيت أم سلمة فى ليلتها، ففُقد من الفراش، فدخلها من ذلك ما يدخل النساء، فقامت تطلبه فى جوانب البيت حتى انتهت إليه وهو فى جانب من البيت قائماً رافعاً يديه يبكى ويقول: اللهم لا تنزع منّى صالح ما أعطيتنى أبداً. اللهم ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين أبداً. اللهم لا تُشمت بى عدواً ولا حاسداً أبداً. اللهم لا تردّنى فى سوء استنقذتنى منه أبداً.

قال: فانصرفت أمّ سلمة تبكى حتى انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله لبكائها، فقال لها: ما يبكيك يا أم سلمة؟

فقالت: بأبى أنت وأمّى يارسول الله ولم لا أبكى وأنت بالمكان الذى أنت به من الله، قد غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر، تسأله أن لا يشمت بك عدوّاً أبداً ولا حاسداً وأن لا يردّك فى سوء استنقذك منه أبداً، وأن لا ينزع عنك صالح ما أعطاك أبداً، وأن لا يكلك إلى نفسك طرفة عين أبداً.

فقال: يا أمّ سلمة، وما يؤمننى، وإنّما وكل الله يونس بن متى إلى نفسه طرفة عين فكان منه ما كان منه».

فما كان ينبغى ليونس عليه السلام أن يستميل قومه للإيمان ثم يتركهم بعد مدّة قصيرة، بل كان الأولى مداراته لهم أكثر، لكنّه ترك الأولى لأنّ الله تعالى كما يقول النبى صلى الله عليه وآله فى الحديث المتقدّم أوكله إلى نفسه طرفة عين!

وهذا الأمر يلزم علينا ملاحظته أيضاً؛ لأننا فى كثير من الأحيان قد نغضب لله تعالى ولكنه غضب عن جهل مركب وإن كان لله لذا يجب علينا أن لا نظهر غضبنا بسرعة لئلاّ يحدث ما ربّما لا تُحمد عقباه. وهذا من المداراة أيضاً.

ثم إنّ الناس إمّا مؤمن أو كافر أو منافق، وكلّهم بحاجة إلى المداراة، فأمّا المؤمن فهو بحاجة إلى المداراة ليزداد إيماناً، والكافر يحتاجها ليسلم، والمنافق ليُقلع شيئاً فشيئاً عن نفاقه ويصير مؤمناً.

والمسلم بكلا قسميه يحتاج للمداراة ليثبت على إسلامه ويقوّيه.

ولكم فى رسول الله صلّى الله عليه وآله أسوة

ومن يتتبّع سيرة الرسول الأعظم يجده صلى الله عليه وآله قمّة فى مداراة الناس على مختلف مشاربهم، حتى أنّه صلى الله عليه وآله قلّما كان يستعمل كلمة «حرام» فى وصف ما يجب اجتنابه، بل كان يستبدلها بكلمات أخرى من قبيل: «إنى لا أفعل ذلك» و «إنّى أكره..» لخفّة وقعهما على السامع، فكان الناس يعرفون الحرام من خلال هذه التعبيرات دون أن يحصل لهم أى ردّ فعل على ذلك.

ومن الأمثلة على مداراة الناس فى منهاج الرسول صلى الله عليه وآله عدم قتله لمنافقين كانوا يستحقّون القتل؛ لئلا يُساء فهم الإسلام من بعض الناس، فيتركوه.

فقد روى عن النبى صلى الله عليه وآله قوله: «لو لا ـ أنّى أكره أن يقال: إنّ محمداً استعان بقوم حتى إذا ظفر بعدوّه قتلهم، لضربت أعناق قوم كثير».

لا ـ شكّ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لا يقدم على قتل أحد إلا إذا كان مستحقّاً للقتل، لأنّ القتل أمر دائر بين الواجب والحرام حسب تعبير الفقهاء ولا ـ يوجد قتل مستحبّ أو مكروه أو مباح، كما هو الحال فى الفرائض كالصوم مثلاً فهناك صوم واجب وصوم حرام وصوم مستحبّ وصوم مكروه، أمّا القتل فليس فيه سوى الوجوب كمن هدر دمه، أو الحرمة كمن عصم دمه.

لذا فقوله صلى الله عليه وآله: «لضربت أعناق قوم كثير» يعنى لاستحقاقهم القتل بالحكم الأوّلى، غير أنّ النبى لم يُجر الحكم لأمر أهمّ وهو عدم لحوق تهمة بالإسلام قد تؤدّى إلى ابتعاد الناس عنه.

وهذا يوضّح ما للمداراة من أهميّة فى الشريعة. فكما أنّ الإنسان يتعامل فى الأمور المادّية والشخصية على أساس الترجيح بين الأهمّ

والمهمّ، كأن يعطى تارة مبلغاً كبيراً من المال لأحد ولا يعطى مثله لغيره، وذلك بحسب ما يراه من المصلحة والأهمية، أو تارة ينفق من وقته ساعات لشخص ما، ولا ينفق إلا دقائق معدودة لآخر، فكذلك الحال فى المداراة حيث ينبغى النظر إلى الأهمّ والمهمّ وتقديم الأوّل على الثانى، وهذه سيرة الأنبياء والرّسل وبالأخصّ سيرة نبيّنا وأهل بيته المعصومين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وبتبعهم الأولياء والعلماء والصلحاء.

المعصومون أسوة

يروى أنّه بعد رجوع النبى صلى الله عليه وآله من غزوة حنين وقد نصره الله تعالى على المشركين بعد فتح مكّة جاء بالغنائم فنزل بالجعرانة بمن معه من الناس وقسّم ما أصاب من الغنائم بين المؤلّفة قلوبهم من قريش وسائر العرب، ولم يكن فى الأنصار منها شىء قليل ولا كثير. قال محمد بن إسحاق: فأعطى أبا سفيان بن حرب مئة بعير، ومعاوية ابنه مئة بعير، وحكيم بن حزام من بنى أسد بن عبد العزى مئة بعير ... قال: وغضب قوم من الأنصار لذلك وظهر منهم كلام قبيح، حتى قال قائلهم: لقى الرجل أهله وبنى عمّه ونحن أصحاب كلّ كريهة، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ما دخل على الأنصار من ذلك، أمرهم أن يقعدوا ولا يقعد معهم غيرهم، ثم أتاهم صلّى الله عليه وآله شبه المغضب يتبعه علىّ سلام الله عليه حتى جلس وسطهم. فقال: ألم آتكم وأنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم الله بى ...؟ إلى أن قال: بل لو شئتم قلتم: جئتنا طريداً مكذّباً فآويناك وصدّقناك، وجئتنا خائفاً فآمنّاك.
فارتفعت أصواتهم، وقام إليه شيوخهم فقبّلوا يديه ورجليه وركبتيه، ثمّ قالوا: رضينا عن الله وعن رسوله، وهذه أموالنا أيضاً بين يديك فأقسمها بين قومك إن شئت.
فقال: يا معشر الأنصار، أوجدتم فى أنفسكم إذ قسمت مالاً أتآلف به قوماً ووكلتكم إلى إيمانكم، أما ترضون أن يرجع غيركم بالشاء والنَعَم ورجعتم أنتم ورسول الله فى سهمكم ؟....
لقد نبّههم رسول الله صلى الله عليه وآله بما غفلوا عنه وذكّرهم ما نسوه، وأعلمهم أنّ ما قام به من إعطاء المال الكثير لأولئك الناس بعد أن خصّهم بالغنائم دون الأنصار إنّما كان لغاية تأليف قلوبهم للإسلام، ولإظهار عظمة الإسلام، ولكى يكسر حالة العداء فيهم فلا يعود أمثال أبى سفيان وابنه معاوية وغيرهما من المنافقين لتنفيذ مؤامراتهم ضدّ الإسلام، وفى الوقت نفسه استثار صلى الله عليه وآله عواطف الأنصار بقوله: «ألا ترضون أن يكون رسول الله فى سهمكم».

شروط لابدّ منها

يرى المتتبع لسيرة النبى الأعظم صلى الله عليه وآله أنّ مواقفه كانت تتناسب مع الظروف المحيطة به، فكانت له سيرة خاصة عندما اجتمع حوله نفر من المسلمين، وكانت له سيرة ثانية عندما جاء مهاجراً إلى المدينة حتى شكّل الدولة الإسلامية، وثالثة بعدما شرع فى توسيع رقعة الدولة الكلامية ومحاربة الكفر والطغيان لنشر تعاليم السماء. فكان فى بداية دعوته صلى الله عليه وآله يذهب إلى الناس فى أىّ مكان يراهم فيه سواء على الصفا أو المروة أو المسجد الحرام أو الطرقات والأسواق أيّام الحجّ يدعوهم منادياً: «يا أيّها الناس، قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا». أمّا بعد أن اجتمع حوله عدد أكثر من الناس، صارت سيرته صلى الله عليه وآله وفق ما يتناسب وعدد المسلمين، واختلف الأمر أيضاً عندما هاجر إلى المدينة، لأنّه فى البداية عندما لم يكن ذا عدّة وعدد كان عليه أن يدعو الناس إلى توحيد الخالق وعبادته وفق المنهج التبليغى الصرف، وبعدما هاجر إلى المدينة وكثر أتباعه الذين آمنوا به، فضلاً عن شيوع أمر نبوّته أخذ يسير فى نشر الإسلام بين الناس بما يستلزمه الموقف استناداً الى العدّة والعدد، كما انبسط الأمر له صلّى الله عليه وآله فى زيادة تفعيل أحكام الشريعة بين المسلمين، وهكذا.
لذا فإنّ الظروف الاجتماعية كثيراً ما تتحكّم فى مثل هذه الأمور، وهذا ليس معناه أنّ الحلال يصبح حراماً وبالعكس، بل اللازم

ملاحظة مدى استعداد الناس وقبولهم الحقّ؛ وإرجاء الحكم الشرعى لا يعنى إبداله أو إبطاله بأىّ حال من الأحوال.

روى أنّه دخل على الإمام الصادق سلام الله عليه رجل فقال له: أصلحك الله ذكرت أنّ علىّ بن أبى طالب سلام الله عليه كان يلبس الخشن، يلبس القميص بأربعة دراهم وما أشبه ذلك، ونرى عليك اللباس الجيّد.

فقال له الإمام: إنّ على بن أبى طالب كان يلبس ذلك فى زمان لا يُنكر، ولو لبس مثل ذلك اليوم لشهّر به، فخير لباس كلّ زمان لباس أهله، غير أنّ قائمنا أهل البيت إذا قام لبس لباس علىّ وسار بسيرته.

يتبيّن لنا من خلال هذه الرواية أنّ المداراة تتطلّب معرفة طبيعة المجتمع وعاداته وتقاليده فى اختيار ما يتناسب معها. فأسلوب هداية الناس لا ـ يعنى السكوت عن الحرام أو ترك الواجب، بل يعنى التدرّج فى مراحل بيانه ونحو ذلك، لكيلا يقع المدارى والمدارى كلاهما فى حرام أهمّ منه وأشدّ. وبما أنّ الناس بما فيهم المؤمنون ليسوا كلّهم عدولاً فضلاً عن عدم علمهم لجملة ممّا له مدخلٌ فى التشريع؛ لذا يلزم على من يريد هدايتهم أن يتحلّى بأعلى قدر من المداراة فى تعامله معهم.

إنّ الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليرحمهم، فيلزم على من يريد هدايتهم أن يكون مدارياً لهم إلى آخر لحظة ليتمكّن من توجيههم نحو الله تعالى، فيكون قوله وفعله جامعاً للناس وهادياً لهم، لأنه مسؤول على أن لا ينفرّهم عن الحقّ.

مثال عملى

لو طلب كاتب ناشئ من مؤلّف قدير أن يقرأ له مقالاً كتبه، وبعد قراءته للمقال وجد المؤلّف أخطاءً بعدد كلماته، وذكر له أخطاءه كلّها فى المرة الأولى دفعة واحدة، فإنّ هذا الناشئ قد يفقد الأمل بالتقدم فى مجال الكتابة ويترك الأمر. أمّا إذا تعامل معه بتدبّر وعقلانية وحكمة وأخبره ببعض الأخطاء وقلّلها فى عينه، ثم ذكر له فى المرّة القادمة أخطاء أخرى وهكذا، فمما لا شك فيه أنّه لن يفقد الأمل بل تنمو عنده القابلية ويكثر استعداده لأن يصبح كاتباً له شأنه. هذا مصداق من مصاديق المداراة.

المداراة أسهل طرق الهداية

ينبغى لطالب العلم أن يعرف كيف يهدى الآخرين ويوجّههم إلى الله سبحانه وتعالى، أمّا إذا أخذهم بالشدّة والغلظة فربّما كثير منهم ينحرف عن الطريق، خصوصاً فى زماننا هذا الذى تكثر فيه التيارات المختلفة، والكفيلة بالتقاط المنفرط عن الحق فيما إذا تاه ونأى، لذا علينا أن لا نفسح المجال أمام تلك التيّارات الفاسدة والمضلّة باصطياد شبابنا، خاصّة مع كثرة أهل الباطل وتيّاراتهم التى أعدّت فخاخها ومصائدها المتنوّعة لاصطياد أىّ شخص قد يضعف إيمانه أو ينفلت عن الحقّ وأهله.

نسأل الله تعالى أن يوّفقنا للتحلّى بهذا الخلق العظيم الذى ورد فى قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «من عاش مدارياً مات شهيداً».

(۱۱) الحرص والكفاف

(۱۱) الحرص والكفاف

قال الله تعالى فى كتابه الحكيم مخاطباً نبيّه الكريم?: وَلاَ ـ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى.?

تتناسب الموعظة والنصيحة التى يقدّمها الموصى مع الموصى له تناسباً يحدّده الكمّ والكيف لدى كلّ من المانح والقابل، فمن الطبيعى أن تختلف الموعظة على اختلاف درجات طالبها. فلو أنّ تلميذاً جاء إلى عالِم دين أو واعظ وقال له: عظنى أو أوصنى، فربما يقول له العالم: أتقِن درسك. أمّا إذا جاءه كاسب وطلب منه النصيحة والموعظة فقد يقول له: تفقّه فى مسائل البيع والشراء أو إيّاك

والتطفيف والاحتكار.

وهكذا تختلف الموعظة لو كان طالبها عالماً أو رجل دولة أو غيرهما؛ فإنّ الحكمة تقتضى ذلک، وهذا ما ندركه نحن بعقولنا، فكيف بالله سبحانه وتعالى وهو خالق العقل وربّ الحكمة، فإنّه لاشكّ قد حكم هذا الأمر. فإذا كان الواعظ الله، والقابل سيّد الأنبياء صلّى الله عليه وآله، فلاشکّ أن تكون الموعظة جامعة للفضائل، والوصية التى يوصى بها الله سبحانه وتعالى نبيّه الكريم صلّى الله عليه وآله لاشک تكون أبلغ الوصايا وأسناها.

وهذه القضية يمكن إدراكها أيضاً من خلال ملاحظة كلمات وخطب الإمام أمير المؤمنين فى نهج البلاغة، فإنّ خطبه عليه السلام على منبر الكوفة لعامّة الناس تختلف عن تلک التى يلقيها على جيشه، كما تختلف وصاياه العامّة عن تلک التى يوصى بها ولديه الحسن والحسين عليهما السلام.

هذه الآية الكريمة، يوصى الله سبحانه وتعالى نبيّه، والوصية موجَّهة له وهو المخاطَب بها، وهذا ما يميّزها عن غيرها وإن كانت الوصية موجَّهة فى الحقيقة لسائر الناس بصورة غير مباشرة؛ وذلک لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله هو الأسوة والقدوة فى كلّ أعمال الخير ولكن عندما يكون المخاطَب هو النبى صلى الله عليه وآله ويراد به نفسه بصورة مباشرة، فلا شکّ أنّ أسلوب القرآن الكريم يختلف، ولابدّ أن تكون الوصية التى يوصَى بها من خيرة الوصايا.

ما يؤكّد أنّ الخطاب موجّه إلى النبى صلى الله عليه وآله على نحو ما أسلفنا أنّ الآية الكريمة لم تتصدّر بقوله تعالى: «قل» كما هو الحال فى كثير من الموارد؛ مثل قوله تعالى?: قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا، ? ... ونظائرها من الآيات، بل وجّه النصيحة والموعظة والوصية للنبى مباشرة، فقال?: وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْکَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيا.?

وكأنّ الآية تنهى النبى صلى الله عليه وآله عن التطلّع إلى ما متّع الله به الآخرين من المتع الدنيوية، أو النظر إلى ما عندهم من مباهج وزخارف نظرة إعجاب وتحسّر، وذلک ليكون وقعها أكبر فى نفوس المسلمين؛ لا فرق فى تلک المتع والمباهج إن كانت أموالاً أو أولاداً أو أزواجاً أو قصوراً أو إمكانات أخرى من قبيل العلم أو الجمال أو الشخصية والوجاهة، فكلّها فى نظر القرآن الكريم زينة لهذه الدار المشحونة بالآفات والكدورات.

كما تُلفت الآية إلى أنّ مَن كان يتمتّع بهذه المتع فليعلم أنّها كلّها من الله تعالى، فمَن كان يملک أموالاً فالله سبحانه هو الذى متّعه بها، ومَن كان ذا علم فإنّ الله تعالى هو الذى أفاضه عليه، ومَن كان يحظى ببسطة فى الجسم أو طلاقة فى اللسان أو ذكاء مفرط أو جمال كثير أو قصور راقية أو أيّة نعمة ومزيّة فكلّها من الله لأنّ الآية تقول?: وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْکَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ، ?أى نحن الذين أعطيناهم ذلک ومتّعناهم به.

وهذا كلّه ليس مهمّاً، إنما المهمّ من هذه الأمور كلّها أنّه فيم تستعمل وتستغلّ، أمِن أجل الله، أم من أجل الشهوات؟ ولذلک تقول الآية?: لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ?أى لننظر كيف يعمل بها، فهى من باب الامتحان والابتلاء وليست تعبيراً عن التفضيل والاحتفاء.

فما أحوج الإنسان إلى اتّباع الوصايا الإلهية، سواء تلک الوصايا التى أوصى بها المولى تعالى خاتم الأنبياء صلّى الله عليه وآله ليريد الناس بها، أو تلک الوصايا الصادرة من النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وسائر الأنبياء والأئمّة عليهم السلام.

إنّ الناس يقتدون بأهل العلم ويتعلّمون من سيرتهم، ولذا فهم يحاسبون على أعمالهم من جهتين، الجهة الأولى كونهم كسائر الناس، حيث يحاسَب كلّ إنسان على عمله، والجهة الثانية لما يستتبع اقتداء الناس بهم من جهة كونهم علماء أو طلبة علم أو ما شابه.

ما قلّ وكفى خير ممّا كثر وألهى

روى أنّه: «مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله براعى إبل، فبعث يستسقيه، فقال: أمّا ما فى ضروعها فصبوح الحىّ، وأمّا ما فى آنيتنا فغبوقهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: اللهمّ أكثِر ماله وولده. ثمّ مرّ براعى غنم، فبعث إليه يستسقيه، فحلب له ما فى ضروعها

وأكفأ ما في إنائه في إناء رسول الله صلى الله عليه وآله وبعث إليه بشاة، وقال: هذا ما عندنا، وإن أحببت أن نزيدك زدناك. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: اللهمّ ارزقه الكفاف. فقال له بعض أصحابه: يا رسول الله، دعوت للذي ردّك بدعاءٍ عامّتنا نحبّه، ودعوت للذي أسعفك بحاجتك بدعاء كلّنا نكرهه! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ ما قلّ وكفى خيرٌ ممّا كثر وألهى، اللهمّ ارزق محمّداً وآل محمّد الكفاف».

إنّ أكمل عقل خلقه الله عزّ وجلّ هو عقل رسول الله صلى الله عليه وآله، وهذا هو منطقه، فإنّ الذي عنده الكفاف هو في مأمن، أمّا صاحب الزيادة فمعرّض للأخطار. فكلّما ازداد المرء أموالاً زادت التزاماته ومسؤولياته وازداد تحديداً وتقييداً. إنّ طالب العلم إذا كان موسراً تراه لا يبلغ المراحل العلمية العالية في الغالب، لأنّها ستشغله عن هدفه الأصلي. ولا نقصد أنّه سينصرف عن الإيمان، ولكن الأموال تُشغله وتأخذ من وقته وفكره، فيتأخّر عن الدراسة وارتقاء الدرجات، ولهذا نرى معظم مراجع الدين ينحدرون من عوائل فقيرة، وذلك لأنّ ابن الغني غالباً لا يتيسّر له الرُّقيّ في هذه المجالات.

وأكرّر القول أنّ هذا ليس بمعنى ذمّ الغنى بما هو غنى، بل لبيان كونه يمنع الإنسان غالباً، والحال أنّ المطلوب أن يسمو ويتكامل ويرتقي، فكلّما طوّقت عوارض الدنيا عنقه حالت دون سموّه بالطبع إلّا إذا كان قويّ النفس بحيث لا تشغله ولا تحدّه هذه الأمور.

وهكذا الحال مع باقي النعم وما متّع الله به العباد، كالجاه والملكات والقوى والاستعدادات، ولهذا دعا رسول الله صلى الله عليه وآله بالكفاف لراعي الغنم.

ما المقصود بالكفاف؟

الكفاف هو المقدار الذي يكفي الإنسان لسَنته. ويظهر من عدّة أمور، منها:

•المقدار الضروري الذي يحتاجه لمعيشة نفسه.

•ما يحتاجه لحفظ كرامته. فمثلاً لا يليق بالرجل أن يخرج إلى الشارع بسروال قصير فقط وإن كان يمكنه أن يعيش به وحده، لكنّه يحتاج إلى ما هو أكثر من ذلك لحفظ كرامته الاجتماعية، لأنّه لو خرج بسروال قصير فقط لتعرّض للسخرية والحطّ من شأنه وشخصيته.

•ما يحتاجه لتوفير العيش الكريم لمَن يعيلهم، كالزوجة والأولاد، وبحكمهم الضيوف، خاصة لمَن كان من شأنه ذلك. ولاشكّ أنّ الإنسان يستحبّ له أن يتقشّف في مصارفه الشخصية، ولكنّه لا يستحبّ له أن يتقشّف على عائلته وضيوفه، بل العكس هو الصحيح.

•ثمّ إنّ الله تعالى أمر المسلمين بالعمل من أجل بلوغهم الاكتفاء الذاتي وعدم خضوعهم اقتصادياً للكفّار، فقد يريد التاجر مثلاً أن يترك عمله لأنّه قد حصل على ما يكفيه من المال، ولكنّ الإسلام يأمر أتباعه بالتجارة لئلّا تنتقل أزمّة اقتصاد البلاد والعباد إلى الكفّار، وهكذا تكون مواصلة العمل بالتجارة جزءاً من الكفاف المطلوب اجتماعياً وإن كان التاجر المسلم قد وصل إلى مرحلة الكفاف الشخصي.

وما عدا هذه الأمور المتقدّمة يُعدّ زيادة، وفخّاً، على الإنسان المسلم أن يحذر منه بدلاً من أن يتمنّاه.

الهدف سموّ النفسّ

ينبغي للإنسان أن يتقشّف على نفسه، ولكنّه يستحبّ له أن يبذل على عائلته وضيوفه، وينبغي للإنسان المسلم أن يقنع بما يسدّ حاجته ولا ـ يمدّ عينيه إلى المزيد إلاّ ـ فيما أمر الإسلام. وهذه الأمور وأمثالها تكشف عن أنّ هدف الإسلام هو تربية الإنسان لكي يسمو ويتكامل روحياً، ولقد ذكرنا ذلك مراراً، وإنّ ذلك لا يتحقّق إلاّ إذا آثر الإنسان بما يحبّ. قال تعالى?: لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ.?

إنّ أغلب الناس يسعى لأن يأكل الأفضل ويلبس الأجود ويسكن الأرفه ...ولكنّه عندما يريد أن يعطى وينفق فإنه يُخرِج الأدوَن والأقلّ وما لا حاجة لنفسه فيه. فإذا أراد أن يعطى فاكهة لفقير مثلاً أعطاه الفاكهة الرديئة، وإذا سُئل عن ذلك، قال: لأنّه متعوّد على أكلها. وإذا أراد أن يعطيه مالاً أعطاه قليلاً جداً، مدّعياً أنّ ذلك يكفيه، وأنّه لا يأمل أكثر من ذلك؛ غافلاً عن أنّ للإنفاق هدفين، الأوّل سدّ حاجة المنفَق عليه، والثانى تحقيق الكمال للمنفِق نفسه، فإنّ الله تعالى قادر على أن يعطى الفقير ويغنيه كما هو قادر على أن يسلب الغنى ويفقره، ولكنّه سبحانه جعل هذا التفاضل من أجل الامتحان والابتلاء والتربية لهما معاً؛ ولذلك قال تعالى وهو الحكيم?: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء.?

من مواعظ السيّد المسيح

ذهب عيسى إلى مكان ما وصحبه يهوديّ وكان مع اليهودى رغيفان ومع عيسى رغيف، فقال له عيسى: تشاركنى؟ قال اليهودى: نعم، فلما رأى أنّه ليس مع عيسى إلاّ رغيف ندم، فلما نام عيسى جعل اليهودى يريد أن يأكل الرغيف. أكل لقمة، قال له عيسى: ما تصنع؟ فيقول له: لا ـ شئ. فيطرحها حتى فرغ من الرغيف كلّه، فلما أصبحا قال له عيسى: هلمّ طعامك، فجاء برغيف، فقال له عيسى: أين الرغيف الآخر؟ قال: ما كان معى إلاّ واحد. فسكت عنه! وانطلقوا فمرّوا براعى غنم، فنادى عيسى: يا صاحب الغنم، أجزرنا شاة من غنمك. قال: نعم، أرسِل صاحبك يأخذها. فأرسل عيسى اليهودى، فجاء بالشاة فذبحوها وشووها، ثم قال لليهودى: كل ولا تكسر عظماً. فأكلا فلما شبعوا قذف عيسى العظام فى الجلد ثم ضربها بعصاه، وقال: قومى بإذن الله. فقامت الشاة تثغو، فقال: يا صاحب الغنم، خذ شاتك. فقال له الراعى: مَن أنت؟! قال: أنا عيسى ابن مريم. قال: أنت الساحر. وفرّ منه.

قال عيسى لليهودى: بالذى أحيى هذه الشاة بعدما أكلناها، كم كان معك من رغيف؟

فحلف ما كان معه إلاّ رغيف واحد.

فمرّ بصاحب بقر فقال له: يا صاحب البقر، أجزرنا من بقرك هذه عجلاً.

فقال: ابعث صاحبك يأخذ.

فقال: انطلق يا يهودى فجئ به.

فانطلق فجاءه به فذبحوه وشووه وصاحب البقر ينظر، فقال له عيسى: كل ولا تكسر عظماً.

فلمّا فرغوا قذف العظام فى الجلد ثم ضربه بعصاه وقال: قم بإذن الله.

فقام له خوار.

فقال: يا صاحب البقر، خذ عجلك.

قال: ومن أنت؟

قال: أنا عيسى.

قال: أنت الساحر. ثم فرّ منه.

قال اليهودى: يا عيسى أحييته بعدما أكلناه؟!

قال: يا يهوديّ! فبالذى أحيى الشاة بعدما أكلناها، والعجل بعدما أكلناه، كم رغيفاً كان معك؟

فحلف بذلك ما كان معه إلاّ رغيف واحد.

فانطلقا حتى نزلا قرية، فنزل اليهودى فى أعلاها وعيسى فى أسفلها، وأخذ اليهودى عصا مثل عصا عيسى وقال: أنا الآن أُحيى الموتى. وكان ملِك تلك القرية مريضاً شديد المرض، فانطلق اليهودى ينادى من يبغى طبيباً، حتى أتى مِلك تلك المدينة فأخبره بوجعه، فقال: أدخلونى عليه فأنا أُبرئه، وإن رأيتموه قد مات فأنا أُحييه.

فقيل له: إنّ وجع الملك قد أعيى الأطبّاء قبلك، ليس من طبيب يداويه ولا يغنى دواؤه شيئاً إلّا أمر به فصلب.

فقال: أدخلونى عليه فإنى سأُبرئه.

فأُدخل عليه، فأخذ برجل الملك فضربه بعصاه حتى مات. فجعل يضربه وهو ميّت ويقول: قم بإذن الله.

فأُخذ ليُصلب فبلغ عيسى، فأقبل إليه وقد رُفع على الخشبة، فقال: أرأيتم إن أحييت لكم صاحبكم أتتركون لى صاحبى؟

قالوا: نعم.

فأحيى عيسى الملِك، فقام وأنزل اليهودى، فقال: يا عيسى أنت أعظم الناس علىَّ مِنّة. والله، لا أفارقك أبداً.

فخرجوا، فمرّوا بثلاث لبنات، فدعا الله عزّ وجلّ عيسى فصيّرهن من ذهب.

قال: يا يهودى، لبنة لى ولبنة لك، ولبنة لمَن أكل الرغيف.

قال أنا أكلت الرغيف...

ثمّ إنّ عيسى عليه السلام تركه مع اللبنات الثلاث وانصرف. فأتاه رجلان، فأرادا أن يأخذاه ويقتلاه.

قال: هو بيننا أثلاثاً.

فقالا له: إنّا لا نستطيع هذا الذهب إلّا أن نحمله على شيء، فخذ من هذا الذهب فاشترِ لنا به طعاماً واشترِ لنا ظهراً نحمل عليه من هذا الذهب.

فانطلق لما أمراه به، فأتى الشيطان الرجلين فقال لهما: إذا أتاكما فاقتلاه واقسما المال نصفين.

فلما أحكم أمرهما انطلق إلى الآخر فقال: إنك لن تطيق هذين فاجعل فى الطعام سمّاً فأطعمهما واذهب بالمال وحدك.

فابتاع من المدينة سمّاً فجعله فى طعامهما. فلما أتاهما وثبا عليه فقتلاه ثم قرّبا الطعام فأكلا منه، فماتا.

فانطلق عيسى إلى حاجته ثم رجع فإذا هو بهم قد ماتوا عند الذهب. فقال لأصحابه: انظروا إلى هؤلاء.

ثم حدّثهم حديثهم، ثم قال: النجاء النجاء، فإنّما هى النار».

فعندما نسمع بمثل هذه القصص من سير الأنبياء ينبغى أن نعتبر بها، لأنّها تذكّرنا فيما إذا مررنا أمام امتحان مشابه، فهل يا ترى سنكون كهؤلاء الرجال الثلاثة الذين ضحّوا بحياتهم من أجل ثلاث قطع ذهبية، أم سنعتبر بقصّتهم؟!

قد لا نركض وراء الذهب لأنّنا نعلم أنّا لا نحصل عليه، ولكن بالنسبة إلى أُمور أُخرى أيضاً قد نكون كذلك كحبّ التفوّق على الأقران وحبّ الظهور وغير ذلك.

جعلنا الله من المستفيدين من مواعظ القرآن الكريم ووصايا أهل البيت عليهم السلام، والمعتبرين بما جرى على الأمم الماضين.

(۱۲) قيمة السكوت

(۱۲) قيمة السكوت

روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «السكوت ذهب والكلام فضّة».

لكلّ من الذهب والفضّة قيمة ولكن الذهب أغلى من الفضّة كما هو معلوم، وقد لوحظ ذلك فى الأحكام الشرعية أيضاً. فدية المرء المسلم مثلًا هى ألف دينار من الذهب أو عشرة آلاف درهم فضّة، وهذا الحديث الشريف يجعل النسبة بين الكلام والسكوت كالنسبة بين الفضّة والذهب، فكما أن للفضّة قيمة وللذهب قيمة، فكذلك يمكن مقارنة السكوت إلى الكلام.

تارة يكون الكلام واجباً، ولاشك أنّ السكوت غير مفضّل عليه فى مثل هذه الحالة، كما هو الحال فى الأمر بالمعروف أو النهى عن المنكر. وتارة يكون السكوت واجباً ويأثم الإنسان بتركه كما لو أدّى إلى قتل النفس المحترمة، وفى مثل هذه الحالة يكون السكوت

مفضّلا، بل لا يجوز الكلام.

ومن الواضح أنّ الحديث الشريف غير ناظر لمثل هذه الموارد، بل هو يقرّر حقيقة أخلاقية مفادها أنّ السكوت بنفسه إذا لم تكن هناك مرجّحات للكلام عليه خير وأغلى. ويمكن توضيح الأمر بمثال مادّى:

لو قلنا: إنّ الأرز أغلى من القمح. فإنّ ذلك لا يعنى أنّه كذلك فى كلّ الظروف والأحوال وبالنسبة لكلّ الأشخاص، ولكنّا مع ذلك نقول: إنّ الأرز أغلى من القمح؛ لأنّ هذا هو الغالب.

إذاً المقصود من الحديث الشريف أنّ السكوت النافع أغلى من الكلام النافع، ما لم يكن هناك مرجّح لأحدهما على الآخر.

وروى أيضاً: «إذا رأيتم المؤمن صموتاً فادنوا منه فإنّه يلقى الحكمة». والصموت مبالغة صامت أى كثير الصمت. والحكمة أغلى شيء فى حياة الإنسان.

وهذا الحديث الشريف يكشف أنّ الحكمة تأتى فى الغالب من الصمت أكثر ممّا هى فى الكلام؛ لأن الحكمة وليدة التأمّل والتدبّر والتعقّل، وهذه كلّها تتحقّق فى التأمّل والسكوت.

والأحاديث فى هذا المجال عديدة، وهى تفسّر بعضها بعضاً، ومنها الأحاديث التى تنهى الإنسان عن التكلّم فيما لا يعنيه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مِنْ حُسْن إسلام المرء تركه الكلام فيما لا يعنيه». أى على المرء أن يفكّر فى الكلام قبل أن يطلقه ليعرف هل يعود عليه بالنفع؟ فإن لم يعد عليه بالنفع، فليختر السكوت ويتخلّى عمّا كان يريد قوله.

نضرب لذلك مثلًا ماديّاً أيضاً لأنّ الأمثلة المادية تقرّب المعنويات إلى الأذهان، والإنسان بطبعه يحسّ بالمادّيات أكثر:

لو خُيّر إنسان محتاج من الناحية الماديّة بين أمرين: الحضور فى ساحة والتكلّم فيها لقاء دينار مثلاً أو البقاء ساكتاً لقاء دينارين، فأيّهما سيختار؟ لاشكّ أنّه سيختار الثانى لأنّه أنفع له وأكثر ربحاً.

السكوت طريق الرقىّ

بعد أن ضربنا هذا المثال المادىّ نقول:

إنّ السكوت هو الطريق الأفضل والأسرع لرقىّ الإنسان وتكامله؛ لأنّ الإنسان ميّال بطبيعته لأن يقول كلّ ما يشعر به ويعلمه ويعرفه، مع أنّ معظمه لا يتناسب من حيث القيمة مع ما يصرفه من وقت فى هذا السبيل، بينما التأمل والتفكّر يعطى نتائج أفضل. وإذا كان الناس يعظّمون المبدعين والمخترعين والمكتشفين، فإنّ الإبداع فى كلّ مجالات الحياة لا يظهر نتيجة الكلام كظهوره نتيجة التأمّل.

إذا كان المؤمن صموتاً فإنّ تفكيره لا ينصرف إلى المال والشهوات بل يفكّر فى التعالى والسموّ فى طريق الخير والهداية والفضائل والكمال، وإذا أصبح كذلك أبدع فكره وأينع قوله وفعله وتفتّحت أمامه آفاق الرقىّ والازدهار.

نقرّب الموضوع بمثال من واقع الحياة الماديّة أيضاً:

لو أنّ شخصاً أراد أن يشترى بضاعة مّا، فتأمّل قليلاً قبل الشراء، فربّما انتهى إلى أنّ هذه البضاعة يمكن اقتناؤها من أمكنة أخرى، وأنّ سعرها قد يكون أرخص مع الاحتفاظ بالمواصفات نفسها. ولو كان هذا الشخص قد بادر إلى شراء البضاعة دون تأمّل وتفكر، فربّما ندم؛ لفوات الأفضل أو الأرخص.

الحالة نفسها تصدق فى المعنويات. فالطالب مثلاً يتأمّل ويفكّر فى اختيار الدروس وسلوك الطريق الذى يختصر فيه الوقت. والمحاضر يفكّر كيف يرفع من مستوى الحاضرين، والداعية يخطّط قبل أن يبدأ بهداية الشباب، وهكذا المجاهد والعالم والقائد.. كلٌّ يبحث بالتأمّل والتدبّر عن أسهل الطرق وأسرعها بلوغاً للهدف. وهذا كلّه لا يأتى إلا بالصمت. فبه وبالتأمّل وملاحظة الأمور ومقارنتها، بلغ العظماء ما بلغوا.

وعندما نراجع سيرة العظماء وندرس تاريخ العلماء ومراجع الدين نجد أنهم كانوا كثيرى الصمت والفكر والتأمّل.

فكّر ثم تكلّم

عن الإمام علىّ سلام الله عليه أنّه قال: «لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه» أى أنّ الأحمق سريع الكلام، يطلق القول قبل أن يفكّر فيه، خلافاً للعاقل، فإنّه يفكّر فى الكلمة قبل أن يقولها. نقل عن بعض الحكماء أنّه كان يقول: لا ترسل كلّ كلمة مع أوّل خطورها إلى الذهن بل أرجعها إلى الفكر وتمعّن فيها سبع مرّات قبل أن يطلقها لسانك. ولا شكّ أن من يتريّث إلى هذه الدرجة تقلّ شطحاته وزلّاته غالباً ويقلّ ندمه إثر ذلك.

لقد عرف الشيخ محمد تقى الشيرازى رحمه الله بأنّه كان كثير الصمت، كثير الفكر، واشتهر بهذه الصفة حتى تناقلتها الكتب وألسن العلماء. ومن جملة ما نُقل عن أحواله فى هذا الصدد أنّه إذا دار نقاش بين تلاميذه فى مسألة ما، كان لا يدخل فى النقاش إن رأى أنّه لا يعود بالنفع على الموضوع الذى يتكلّم فيه.

وفى هذا المجال يروى أيضاً أنّه قد صحب النبى صلى الله عليه وآله أو عاصره الآلاف من المسلمين وغيرهم، ولكن الذين عُرفوا واشتهروا بالفضل عدا أهل البيت سلام الله عليهم يُعدّون بالأصابع، ومن أبرزهم أبو ذر الغفارى الذى عُرف عنه من بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ أكثر عبادته كانت فى التفكّر. فعن أبى عبدالله الصادق سلام الله عليه: «كان أكثر عبادة أبى ذر التفكّر والاعتبار».

وهكذا لو ألقيتم نظرة على من حولكم سترون أنّ أكثر الذين بلغوا المراتب العالية فى الدنيا والدين والعلوم الدينية وغيرها كالطبّ والهندسة والتجارة هم أناس مفكّرون قد ركّزوا على التفكير والتأمّل. ولهذا عُدّ الصمت من فضائل الأخلاق.

وقتك حياتك

ليس المقصود بالصمت عدم الحديث مطلقاً، فكما أنّ الثرثرة بالباطل ممقوتة فكذلك السكوت عن قول الحق يكون ممقوتاً أيضاً، غاية الأمر المطلوب من الإنسان أن لا يصرف وقته فى الحديث غير النافع، لأنّ الوقت أغلى من المال، فإذا كان المال قابلًا لأن يعوَّض، فالوقت غير قابل للتعويض، ولقد ورد فى الحديث عن الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه: «إنّه ليس لأنفسكم ثمن إلّا الجنّة فلا تبيعوها إلّا بها».

فحرىّ بالإنسان أن يستفيد من ساعات عمره أقصى ما يستطيع. فكما يفكّر باستثمار أمواله على أحسن نحو يمكن، فتراه لا يبذّرها، بل لا ينفقها إلّا حيث يجب، ولا يعطى منها أكثر مما يجب هذا مع أنّ المال سهل التحصيل نسبةً، ولا يودى ذهابه بحياة الإنسان كذلك يجب أن يكون وقت الإنسان، فهو ثروته الحقيقية، التى توجب عليه أن يحسن كيف ينفقها ولا يبيعها بالتافه.

فلنقرّر من الآن أن نتعوّد على الصمت والاستفادة من الوقت، وهذا لا يتحقّق دفعة واحدة، بل يأتى عبر الممارسة والترويض ويبدأ بالقليل ثم يزداد شيئاً فشيئاً، وذلك بأن يصمّم المرء أن يكون منتبهاً لنفسه كلّ يوم فى ساعة معيّنة، فلا يتكلّم إلّا بعد أن يتأمّل فيما ينبغى أن يتكلّم فيه، ويستمرّ على هذا المنوال لمدّة أسبوع مثلًا بعد ذلك يزيد المدّة إلى ساعتين ويستمرّ هكذا لمدّة أسبوعين أو شهر مثلًا ويستمرّ بزيادة عدد الساعات التى يراقب فيها نفسه مع مرور الزمن، حتى تصبح الحالة ملكة عنده.

هذه التجربة التى أنقلها لكم خلال عدّة ثوان أو دقائق يحتاج تحقيقها إلى وقت طويل، ولكنّها ثمينة جدّاً، لأن ما يحصل عليه الإنسان منها هو أغلى شيء فى الحياة، وهو عمره وتاريخه وحياته، بل ثروته الحقيقية فى هذه الدنيا التى يتاجر بها لكى يربح الحياة فى الآخرة.

الفضائل الخمس

إنّ الإنسان المهذار الثرثار الذى يطلق للسانه العنان ويتفوّه بكلّ ما يخطر بباله، ولا يرى قيمة لوقته وحياته، مثل هذا الإنسان لن يصل

إلى شيء.

أمّا الذين يهدفون إلى بلوغ جوار الله تعالى والقرب من الأنبياء والمتّقين، فليسوا كذلك، وإنّ التكامل لا يأتي من لا شيء وبلا تأمّل وفكر.

كان للإمام موسى بن جعفر عليهما السلام ولد يكنّى بزيد النار لم يكن سالكاً طريق أبيه، فقال له الإمام الرضا سلام الله عليه يوماً ينصحه: «إن كنت ترى أنك تعصى الله عزّ وجلّ وتدخل الجنّة وموسى بن جعفر أطاع الله ودخل الجنّة، فأنت إذاً أكرم على الله عزّ وجلّ من موسى بن جعفر. والله، ما ينال أحد ما عند الله عزّ وجلّ إلّا بطاعته».

فالذين يريدون أن يكونوا غداً مع أولياء الله في الجنّة، ليس لهم إلى ذلك إلّا طريق واحد وهو سلوك طريق أولياء الله تعالى، ومن أساسيات هذا الطريق أنّ أصحابه كانوا أهل صمت وتأمّل، وكما ورد في الحديث عن الإمام الصادق سلام الله عليه: «الأغلب من غلب بالخير، والمغلوب من غُلب بالشرّ، والمؤمن مُلْجَم».

وصدق من قال: حجب الله سبحانه اللسان بأربع مصاريع لكثرة ضرره: الشفتان مصراعان، والأسنان مصراعان. فلماذا لا يلتزم الإنسان الصمت رغم كلّ ذلك؟!

هب أنّ بعض الكلام ليس حراماً، ولكن لماذا الإسراف والتبذير؟ أجل إنّ هذا من أسوأ أنواع الإسراف وإن لم يذكر تحت اسمه، وقد لا يعرف ذلك كثير من الناس، مع أنّه قد يكون أسوأ من إسراف المال أحياناً.

ظهر مما تقدّم أنّ الصمت أحد الفضائل الأخلاقية التي لايمكن بلوغها إلّا بالتجربة، والتي تحتاج هي الأخرى إلى زمن، وإلى ثبات وصمود. بيد أنّه إضافة إلى ذلك ينبغي للإنسان أن لا ـ يغفل عن الاعتماد على الله سبحانه وتعالى والتوسّل به وصولاً إلى النتيجة المرجوة؛ قال تعالى?: قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّى لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ.?

فهذه خمس فضائل: معرفة قيمة الوقت، والتأمّل قبل الكلام، وترويض النفس، والثبات، والاعتماد على الله تعالى، يمكن للإنسان من خلالها الوصول إلى فضيلة الصمت التي إن وُفّقنا لبلوغها فسنشعر حينها كم أهدرنا من وقتنا وكلامنا بلا نفع لأنفسنا ولا لغيرنا. فلننتهز الفرصة قبل أن يأتي يوم لا نستطيع أن نزيد فيه من حسناتنا ولا أن ننقص من سيّئاتنا.

(۱۳) الترويض والهداية وجمال التعبير

(۱۳) الترويض والهداية وجمال التعبير

روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله عدّة خطَب في استقبال شهر رمضان المبارك، منها الخطبة المعروفة التي مطلعها: «أيّها الناس، إنّه قد أقبل إليكم شهر الله بالبركة والرحمة والمغفرة».

ويمكن أن يُستظهر من بعض الروايات أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يستقبل شهر رمضان من كلّ سنة بخطبة خاصّة، إمّا في أوّل الشهر أو قبل حلوله. فهناك عدّة خطَب مرويّة عن رسول الله صلى الله عليه وآله في استقبال هذا الشهر الفضيل، منها هذه الخطبة التي يرويها الشيخ الصدوق رضوان الله عليه والتي ينتهي بسندها إلى الإمام الرضا، عن آبائه، عن أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليهم، والتي تبدأ بقوله صلى الله عليه وآله: «أيّها الناس، إنّه قد أقبل إليكم شهر الله» ... ولعلّ العديد منكم يحفظها فأنتم أهل علم ووعظ وإرشاد.

أفضل الأعمال في شهر رمضان

لست الآن بصدد تفسير الخطبة وبيان مفرداتها، فهي خطبة عظيمة وتحتاج إلى بيان وتفسير واسعين، وإن كان يمكن أن يقال بشأنها

وحول بنودها مطالب وبحوث كثيرة، لكنّى أريد هنا أن أذكر شيئاً واحداً وهو: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ذكر للمؤمنين فى هذه الخطبة عشرين بنداً أو ما ينيف وحثّ المؤمنين عليها وشجّعهم على امتثالها، ولكن حينما توجّه إليه أمير المؤمنين سلام الله عليه فى نهاية الخطبة بسؤال عن أفضل الأعمال فى هذا الشهر علماً أنّ سؤال الإمام ليس لنفسه وإنّما هو لى ولك ولعامّة الناس لم يذكر النبىّ صلى الله عليه وآله فى جوابه أيّاً من البنود التى جاء على ذكرها ضمن فقرات خطبته، أى لم يقل له مثلاً: إنّ قراءة القرآن أفضل الأعمال فى هذا الشهر أو الإطعام أو أىّ شىء آخر، بل أجابه بأمر آخر لم يكن ضمن بنود الخطبة الشريفة؛ إذ قال له: «الورع عن محارم الله».

ما هو الورع؟

والورع أفضل الأعمال فى كلّ وقت وزمان وإن خُصّ فى هذا الشهر الكريم بالذات. إذاً، فما هو المقصود من الورع؟ وما ينبغى لنا فعله نحن الخطباء والوعّاظ وطلّاب العلوم الدينية خصوصاً صيانة لأنفسنا فى هذا الشهر العظيم تحديداً؟

إنّ أوّل مقتضيات الورع أن يجتنب الإنسان عن المحرّمات فلا يقربها.

ولاشكّ أنّ كلّ إنسان تتناسب تكاليفه وواجباته مع مقدار معرفته ومدى فهمه وعلمه، فكلّما ازداد الإنسان علماً ومعرفة تضاعفت مسؤولياته وواجباته.

ولكى يكون الورع حليتنا أعنى، أهل العلم والمرشدين المتصدّين لهداية الناس ¬يتحتّم علينا واجبان أساسيان، بدونهما لا يتحقّق الورع عندنا:

الواجب الأوّل: ترويض النفس

لا يمكن للنفس البشريّة أن تستقيم هكذا بسهولة وبسرعة من دون حاجة إلى ترويض ومقدّمات. بل هى بحاجة إلى رياضة مستمرّة، وكما يقول مولانا أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه فى بعض كلماته:

«وإنّما هى نفسى أروضها بالتقوى لتأتى آمنة يوم الخوف الأكبر».

فترويض النفس إذاً من أهمّ الواجبات العينية بالنسبة إلى كلّ فرد، ويتأكّد بالنسبة لنا نحن الوعّاظ والمبلّغين وعلماء الدين لأنّ كلّ واحد منّا يتعلّم منه أفراد وربّما جماعات ويتلقّون منه ويقتبسون ويقتفون أثره، ويتأثّرون بكلامه وتصرّفاته.

فإنّك وإن كنت فرداً فى وجودك الخارجى لكنّك لست كذلك فى العمل؛ لأنّ هناك مَن يعتبرك مرشداً وهادياً ويقتدى بأفعالك سواء كنت خطيباً أو عالماً.

أنقل لكم قصّة عن أحد العلماء الماضين رضوان الله عليهم، كما رواها لى بنفسه؛ قال:

لما عدت إلى قريتى ومسقط رأسى لزيارة أهلى وذوىَّ بعد أن فارقتهم لسنوات عدّة من أجل الدراسة، جاء أهل القرية بدورهم لزيارتى والاحتفاء بى. وفى أحد الأيّام سألنى قريب لى قائلاً: هل يستحبّ تقديم الرجل اليمنى إذا أريد الدخول فى خزانة الماء فى الحمّامات؟

يقول العالم: قلت له: لا ـ فهذا الحكم أى تقديم اليسرى عند الدخول واليمنى عند الخروج مختصّ ببيت الخلاء، أمّا بالنسبة لغيره كالحمّامات وأحواض الماء فلم يُروَ مثله.

فقال لى مستغرباً: إنّ فلاناً ينقل عنكم ذلك!

قلت له: أنا لا أعلم هذا الشىء، فكيف يُنقل عنّى؟!

قال: لكنّ فلاناً ملتزم به طول هذه المدّة، وهو ينقله للآخرين حتى صاروا متعبّدين به لأنّه ينقله عنكم!

يقول العالم: عجبتُ من الأمر، لأنّنى لم أرَ هذا الحكم طيلة حياتى ولا سمعت به، فكيف ينقله هذا الشخص عنّى وينسبه لى، ولم أكن قد قلته له لعدم علمى به؟

يقول العالم: فطلبت ذلك الشخص، وسألته: أ أنت نقلتَ عنّى استحباب تقديم الرجل اليمنى عند دخول خزانة الحمّام، وتقديم اليسرى عند الخروج؟ قال: نعم.

قلت: متى قلت لك هذا؟

قال: إنّك لم تقله لى مباشرة، ولكنّى نظرت إليك عندما جمعنى الحمّام وإيّاك ذات يوم، فلاحظتُك تعمل هكذا أى تقدّم رجلك اليمنى حين الدخول، واليسرى حين الخروج.

قلت: هذا شىء عادى وليس بعنوان كونه مستحبّاً.

والآن أيّها الإخوة، انظروا إلى قصّة هذا العالم واعتبِروا! لقد اتّخذوه أسوة حتّى فى العمل العادى؛ ممّا يثبت لنا أنّنا لسنا أفراداً فى العمل وإن كنّا كذلك فى وجوداتنا الخارجية، بل إنّ كلّ واحد منّا هو مرجع تقليد بمستوى تأثيره ونسبة حضوره. لا فرق فى ذلك بين طالب العلم والخطيب، وعالم القرية والمدينة، فكلّ على قدره ومستواه؛ ممّا يكشف أنّنا غير مسؤولين عن أنفسنا فحسب، بل حتى عن أولئك الذين يتعلّمون منّا، حين يلاحظوننا فى كلّ شىء، حتّى فى أعمالنا وحركاتنا الصغيرة والعفوية.

ما ذكرته لا ينحصر بذلك العالِم ولا بالعلماء والمراجع وحدهم، بل يشمل كلَّ من له تأثير فى المجتمع وإن كان فى مستويات أقلّ.

تغيير النفس بحاجة إلى مقدّمات

فإذا كان تغيير النفس من الواجبات العينية بالنسبة لنا، فهذا يعنى أنّ على الإنسان أن يمهّد لها السبل والأساليب التى تجعله لا يعصى الله تعالى، وهذا أمر لا ينبغى الاستهانة به، بل لابدّ له من تهيئة مقدّمات وتمهيدات تساعده على ذلك، وكما قال الإمام سلام الله عليه: «أروضها».

إنّ رياضة النفس أكثر صعوبة فى مواجهة النوازع والغرائز الشهوانية التى تعترى الإنسان بحكم تعايشه مع البيئة والمجتمع، وهى موانع قوية جدّاً من قبيل: الأنا والهوى وما يستتبعهما وكما قال الشاعر:

إبليس والدنيا ونفسى والهوى كيف الخلاص وكلّهم أعدائى

هذه الموانع جميعها تواجهنا وبقوّة، ولكى نسيطر عليها ونكبح جماحها يتطلّب الأمر منّا همّة قويّة معاكسة للتغلّب عليها. وشهر رمضان مناسبة جيّدة جدّاً؛ وكما ورد فى هذه الخطبة المباركة نفسها من قول المصطفى صلى الله عليه وآله: «والشياطين مغلولة فاسألوا ربّكم أن لا يسلّطها عليكم» فلنكن حذرين، يقظين، منتبهين جدّاً.

فما من فرصة للرياضة الروحية وترويض النفس أعظم من الصوم؛ فالإنسان الخاوى البطن تقلّ شهواته، وتتقاعس رغبات نفسه الأمّارة بالسوء، كلّ حسب استعداده فى تقرّبه إلى الله تعالى. وهذه الأجواء الرائعة متوافرة فى شهر رمضان أكثر من غيره من الشهور والأيّام، أى: إنّ أجواء هذا الشهر تساعد الإنسان على ترويض نفسه، فلنتّخذ من هذا الشهر الكريم مناسبة لتغيير أنفسنا فيه حقيقة.

وهذا شىء ممكن، وهو فى هذا الشهر أسهل؛ لأنّ الإنسان مهما يكن بعيداً والعياذ بالله عن الخير والصلاح والتقوى، يمكنه أن يستفيد من أجواء هذا الشهر لتغيير نفسه، فإنّ الله تعالى قد أودع هذه القدرة فى الإنسان، وفرض عليه الصوم فى شهر رمضان كى تكون له فرصة مناسبة جدّاً لإتمام هذا الأمر.

من الممكن أن يغيّر الإنسان نفسه ولو خطوة خطوة. وشهر رمضان مناسبة جيّدة جدّاً للتغيير.

لا ـ تقولوا: نحن طلاّب علوم دينية نصلّى ونصوم ونقرأ القرآن وندرس وندرّس ونخطب ونكتب؛ واعلموا أنّ الشيطان يركّز عليكم أكثر، ولا حاجة به إلى غيركم لطمعه فيكم، فأنتم همّه الأوّل والأكبر.

روى عن أبى جعفر سلام الله عليه قال: «إنّ الشيطان يغرى بين المؤمنين ما لم يرجع أحدهم عن دينه، فإذا فعلوا ذلك استلقى على قفاه وتمدّد، ثمّ قال: فُزت».

إنّ الشيطان يحاول أن يؤثّر فينا مهما وسعه، ثمّ يتشجّع للتقدّم أكثر. فلو استطاع أن يؤثّر فى مجموعنا بنسبة الواحد فى المئة كان ذلك العمل عنده خطوة إلى الأمام، فيطمع بالاثنين فى المئة حتّى يصل لا سمح الله إلى التسعة والتسعين فى المئة.

إذاً نحن جميعاً بحاجة إلى ترويض وانتباه بحيث إذا دخل أحدنا شهر رمضان وخرج منه يكون قد تغيّر ولو قليلًا، وملاك التغيّر هو العمل بالمستحبّات وترك المكروهات.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم».

وقال صلى الله عليه وآله: «وما منكم أحد إلّا وله شيطان». فقيل له: وأنت يا رسول الله؟ قال: «وأنا، ولكنّ الله تعالى أعاننى عليه فأسلم».

الشقى مَن حرم رضوان الله

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله فى هذه الخطبة الشريفة: «فإنّ الشقىّ مَن حُرم رضوان الله».

إنّ الألف واللام الداخلة على كلمة «شقىّ» فى هذه العبارة تدلّ كما تعرفون فى علم البلاغة على الحصر، أى: إنّ مَن حُرم غفران الله فى هذا الشهر فهو الشقىّ لا غير. إذاً هذا الشهر مناسبة جيّدة للتغيير.

فإذا انتهت هذه المناسبة ومرّت دون أن يحصل الشخص على شىء فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد وصفه بالشقىّ؛ لأنّ عشرات الأبواب بل مئات بل ألوف الأبواب فُتحت لصلاح الإنسان فى هذا الشهر، لكن هذا الفرد لم يحصل على شىء منها ولا استفاد من أىّ باب، فهو الشقىّ إذاً.

أنفسنا مرهونة بأعمالنا

إنّ زمام الأمر بأيدينا نحن وليس بأيدى غيرنا، وكلّ واحد منّا زمام نفسه بيده، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وآله فى هذه الخطبة: «إنّ أنفسكم مرهونة بأعمالكم، ففكّوها باستغفاركم»....

فكما أنّ أحدكم إذا رهن داره إلى غيره لا يستطيع أن يتصرّف فيها ما لم يفكّ رهنها بالمال، فكذلك أنفسكم رهينة بأعمالكم، أى هى رهينة هذه النظرات والكلمات والأفكار والرواح والمجىء والنوم واليقظة.. إنّ أنفسكم مرهونة بهذه الأشياء، ففكّوها باستغفاركم. أى مع قولكم: «أستغفر الله ربّى وأتوب إليه»، ينبغى أن يقترن به ترويض النفس أيضاً، وهو من الواجبات العينية كما قلنا وكلّ ما علينا أن نعزم ونهمّ بالأمر، والتوفيق من الله.

إننا فى أىّ مرتبة كنّا من مراتب التقوى والورع والرياضة النفسية فهناك المزيد من المجال للتحوّل والارتقاء. وعلينا أن ننتهز الفرص كشهر رمضان، فهو كما قلنا أحسن فرصة لترويض النفس وتغييرها.

الثواب فى رمضان يضاعَف سبعين ضعفاً

أشار رسول الله صلى الله عليه وآله فى الخطبة نفسها قائلًا: «وجعل لمن تطوّع فيه بخصلة من خصال الخير والبرّ كأجر من أدّى فريضة من فرائض الله، ومن أدّى فيه فريضة من فرائض الله، كمن أدّى سبعين فريضة فيما سواه من الشهور». وهذا معناه أنّ كلّ فريضة فى شهر رمضان لها ثواب سبعين فريضة فى غيره. أى: أنّك لو أمرت بالمعروف فى هذا الشهر أو نهيت عن المنكر فثواب عملك سيكون سبعين ضعفاً.

ولو ألّفت كتاباً فى شهر رمضان أو خطبت خطبة أو أسّست مكتبة أو هيئة لإرشاد الناس، أو قمت بالتدريس، أو ساعدت المحتاجين

فى هـذا الشـهر، أو سـعيت لترويض نفسك وتغييرها، فثوابه عنـد الله يعادل سـبعين مرّة ما لو عملت مثله فى غيره من الشـهور. فمجلس واحد فى شهر رمضان يعادل سبعين مجلساً فى غيره وهكذا.

الواجب الثانى: هداية الناس

أنتم طلبـة فقه وأصول وتعرفون أنّ الواجب الكفائى قـد ينقلب عينياً إذا لم يوجـد مَن فيه الكفايـة، ومن جملة الواجبات الكفائية هداية الناس وإرشادهم، ولكنّى أسأل: هل يوجد العدد الكافى اليوم لهداية كلّ الناس؟ فهذا الكمّ الهائل من الغافلين والجاهلين بفروع الدين وأصوله من أتباع الـدين الإسـلامى ناهيك عن الـديانات الأخرى ¬هل يوجد مَن فيه الكفاية لهدايتهم وإرشادهم؟ كلاّ. إذاً، التصدّى للإرشاد والهداية واجب عينىّ أيضاً. وله مقدّمتان كلتاهما مهمّتان:

المقدّمة الأولى: تحصيل العلوم الإسلامية

إنّ الناس فى هـذا الزمان خصوصاً الشـباب ولا سيّما طلاّب المدارس العامّة والجامعيين منهم، هم بأمسّ الحاجة لمَن يقول لهم ما هى الواجبات وما هى المحرّمات، فأكثر هؤلاء أذهانهم محشوّة بعشرات، بل مئات الأسئلة حول الإسلام وتشريعه، بانتظار مَن يجيبهم، الأمر الـذى يحتـاج منّا إلى علم ودراسـة عميقين، فلا يتمكّن كلّ شـخص أن يجيب عن أسـئلتهم بسـهولة ويعرّض نفسه للجواب والخطاب والكتاب والنقاش من دون علم، بل إنّ ذلك يحتاج إلى أرضية وتعبئة علمية وافية.

كمـا لاـ يخفى أنّ مقدّمـة الوجود للواجب المطلق حسب اصـطلاح العلمـاء واجبـة أيضاً. فإذا وجب شـىء على الإنسان، وتوقّف ذلك الشيء على شيء آخر، صار ذلك الشيء الآخر واجباً عليه أيضاً.

فمَن وجبَ عليه الحـجّ مثلاً لا يُقال له: يجب عليك ركوب الطائرة أو السيّارة أو إعطاء النقود لهذا الغرض، بل هذه الأمور تجب عليه بداهة من باب وجوب الحجّ عليه وتوقّف الحجّ عليها بحسب استطاعته.

وهكـذا الأمر بالنسـبة لإرشاد الناس وهدايتهم. فهو واجب كفائى، لمَن توجد فيه الكفاءة، ولهذا الواجب مقدّمات قد تصـبح واجبة من بـاب كونهـا مقـدّمات وجـود الـواجب. فـالمهمّ والـواجب هـو أن يتمّ إرشـاد النـاس وهـدايتهم ليتحقّق انتشـالهم من الاـنحراف والـتيه والضلال، فإذا توقّف هذا المهمّ على مقدّماته كالتهيّؤ والاستعداد العلمى، وجبت كذلك من باب الملازمة.

فنحن مهما أوتينا من العلم فهناك آلاف الأسـئلة التى لا نعرف لها جواباً يلزم أن نتهيّأ لها. وشـهر رمضان مناسـبة جيّـدة لأن يسـتثمرها كلّ منّا حسب مقدرته، لأنّ كسب المقدّمات يعدّ من الواجبات المهمّة فى هذا المجال وغيره ممّا له صلة بالتقرّب إلى الله سبحانه.

إنّ تهيئة هذه المقدّمات أهمّ من قراءة القرآن فى شـهر رمضان فيما إذا اقتصر الهدف من القراءة على طلب الثواب والتبرّك، لأنّ قراءة القرآن بهذه الصورة المجرّدة تعتبر مستحبّة لكنّ التهيّؤ العلمى للقيام بدور الإرشاد والتبليغ واجب.

لاشكّ أنّ قراءة القرآن مقدّمـة لمعرفته، ومعرفته مقدّمة للعمل به ومقدّمة لتعليمه للآخرين، وهى مقدّمة لإرشاد الناس إلى القرآن، بيد أنّ القراءة بـذاتها مسـتحبّة، وهـذا الأـمر التحصـيل العلمى مقـدّم عليهـا، إلاّ إذا كانت القراءة بتـدبّر وتفكّر، حينها سـتكون هى الأخرى مقدّمـة وتعبئـة علميـة، ضـمن مقـدّمات الوجود فى مجـال ترويض النفس، فـإذا روّض الإنسـان نفسه بقراءة القرآن والتفكير عميقاً فى معانيه والتأمّل فى آياته، مهّـد لنفسه أساساً متيناً فى أساليب ترويض النفس، يساعـده أكثر فى بلوغ أهدافه ممّا إذا كانت قراءته للقرآن مجرّد قراءة وإن كانت مستحبّة.

صحيح أنّ كلّ آية يقرأها الإنسان فى شـهر رمضان كما ورد فى الخطبة الشـريفة نفسـها تعدل قراءة القرآن كلّه فى غير شـهر رمضان؛ لكنّ الحـديث فى مقـدّمات الواجب. فإذا كانت القراءة من باب المقدّميـة للواجب، فهى واجبـة بلا شكّ وإلاّ ف «لا قربـة بالنوافل إذا أضرّت بالفرائض».

إذاً فإرشاد الناس يعدّ من الفرائض العينية فعلًا، وإن كان من الفرائض الكفائية بذاته؛ لأنّ علماء الإسلام يُجمعون على أنّ الواجب الكفائی ينقلب عينيّاً إن لم يوجد مَن به الكفاية على أدائه، وكلّ على قدر سعته.

أجل: إنّ هداية الناس أفضل من مجرّد القراءة للاستحباب، كما نقول: عليكم أنتم طلّاب العلوم الدينية أن تكونوا مشغولين دائماً بالدراسة والتدريس والكتابة والتأليف، وشهر رمضان أفضل مناسبة لهذه الأمور.

المقدّمة الثانية: جمال التعبير فی القلم والكلام

يعتبر القلم والبيان فی هداية الناس وإرشادهم بمثابة إناء الإرشاد وظرفه ووعائه.

فالطعام مهما كان لذيذاً وطيّباً إلّا أنّه قد لا يستساغ فيما لو وُضع فی إناء أو وعاء غير نظيف أو غير صحّی، فترى الإنسان لا يفكر أن يمدّ يده نحو مثل هذا الطعام ليرى إن كان لذيذاً أم لا، وذلك لوجوده فی وعاء غير مناسب. أمّا إذا جیء بطعام عادیّ ولكن فی إناء نظيف وجميل فسوف تتناوله الأعين قبل الأيدی بشوق وإن لم يكن بمستوى الطعام الأوّل.

ووعاء الهداية والإرشاد هو القلم والبيان. فكلّما كانت الكتابة أجمل كان التأثير أفضل وأحسن. انظروا إلى القرآن وكلام الرسول صلّى الله عليه وآله وأهل البيت سلام الله عليهم، أوَليس كلّ ذلك قدوة لنا؟

إنّ القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد، فلماذا يهتمّ بجمال الأسلوب والتعبير؟ نقول فی الجواب: إنّ ذلك جزء من عملية الهداية. وهكذا الحال بالنسبة لكلام المعصومين سلام الله عليهم.

كثير من علماء المشركين والنصارى واليهود، اهتدوا عبر جمال التعبير فی القرآن الكريم.

إنّ الجمال مهمّ ومطلوب لهداية الناس، فلا يكفی أن يكون المطلب صحيحاً، بل لابدّ من جمال الأسلوب والتعبير أيضاً.

إذا كان الناس يبحثون عن البروتين فی اللحم فلماذا لا يكتفون بتناوله وحده هكذا من دون توابل ومرق و ... مع أنّه هو الأساس، فنراهم يخلطون معه عشرات الأشياء لا لشیء إلّا ليصبح لذيذاً ومقبولاً؟ هكذا هو الحال مع المعنى الصحيح، فلابدّ أن تجعلوه فی وعاء جميل لكی يتقبّله الناس منكم.

وهذا الأمر بحاجة إلى تعلّم وتمرين، لأنّه لا يأتی هكذا عفواً، بأن ينام الشخص مثلاً فی الليل ويستيقظ فی اليوم التالی وقد أصبح أديباً.

وشهر رمضان فرصة جيّدة لنا لتطوير قابليّاتنا فی هذا المجال أيضاً. فبقدر ما نستفيده فی هذا الشهر من فيوض الرحمة وأجواء المغفرة، لنستفد أيضاً من هذين الأمرين المهمّين: ترويض النفس، وإرشاد الناس.

أسأل الله سبحانه أن يوفّقنا فی هذا الشهر جميعاً لكلّ الصالحات ولكلّ أمور الخير لاسيّما هذين الأمرين: ترويض النفس، وهداية الناس.

(۱۴) مسؤولية العلماء فی عصر الغيبة

(۱۴) مسؤولية العلماء فی عصر الغيبة

من المناسب أن نذكر كلمة نعرب فيها لولیّ الله الأعظم صاحب العصر والزمان الإمام الحجّة المنتظر صلوات الله وسلامه عليه عن حبّنا له، وفی الوقت نفسه تكون تذكيراً لنا جميعاً إن شاء الله.

نعرض موضوعين على نحو الاختصار؛ الأوّل: يتعلّق بالإمام نفسه. والثانی: بنا نحن.

أمّا الموضوع الأوّل فقد روی متواتراً عن النبی صلى الله عليه وآله أنّه قال: «مَن مات ولم يعرف إمام زمانه مات مِيتة جاهلية» أی مات على الكفر.

فكما أنّ معرفة الله هى شرط الإيمان ولكنها لا تكفى ما لم تقترن بمعرفة النبىّ صلّى الله عليه وآله، فكذلك معرفة النبىّ لا تفى وحدها من دون معرفة الإمام. أى إنّ معرفة الله والنبى لا تنفع من دون معرفة الإمام، بل ليسا بمعرفة من دونها بالمعنى الدقّى.

مقادير الأمور بيد الإمام

لقد جعل الله تبارك وتعالى كلّ قوى الكون تحت تصرّف الإمام المعصوم، وهذا الأمر مستدلّ عليه من كلمات المعصومين سلام الله عليهم أنفسهم. هناك زيارة رواها الشيخ الكلينى فى الكافى وابن قولويه فى كامل الزيارات ولها أسانيد متعددة وهى برواية صحيحة، يقول الإمام الصادق سلام الله عليه: «إرادة الربّ فى مقادير أموره تهبط إليكم وتصدر من بيوتكم، والصادر عمّا فُصِّل من أحكام العباد»....

إنّ أهل العلم الأفاضل يعلمون جيداً أنّ الجمع المضاف يفيد العموم، أى له ظهور فى العموم. وكلمة «الأمور» جمع وقد أُضيفت إلى ضمير مرجعه «الربّ».

ما هى أمور الله؟ هل يوجد شىء فى الكون ليس من أموره عزّ وجلّ؟

إنّ كلّ ما سوى الله هو مصداق لأمور الله. فخلق الإنسان والحيوان والأفلاك والملائكة والجنّ والحور والجنّة والنار ...كلّها من مصاديق «أمور الله سبحانه وتعالى».

أمّا المقادير فهى مصدر ميمىّ وهى جمع «مقدار» فيكون معناها: إعطاء كلّ شىء قدره؛ مثلًا: مَن يأتى إلى الدنيا ومتى؟ ما هى الأمور التى تجرى عليه؟ وما مصيره؟ متى يموت، ومَن ذرّيته، وإلامَ ستستمرّ؟ وهكذا تقديرات غير الإنسان كالحيوانات والصحارى والبحار والملائكة وجبرئيل وميكائيل وحملة العرش وعزرائيل والجنّ والجنّة والنار ووقت ظهور الإمام نفسه سلام الله عليه و ...هذه كلّها مصاديق لمقادير أموره.

ولو كانت العبارة هكذا: (إرادة الربّ فى مقادير أمور عباده) لما كان لها هذه العمومية؛ لتقييدها فى إطار أمور العباد، ولكن عبارة: «فى مقادير أموره» تعنى جميع أمور الربّ سبحانه.

أمّا لماذا لم يقل: إرادة الله؟ فتلك تستبطن نكتة ظريفة ليس هنا مجال ذكرها، ولكن لندع الآن البحث الأدبىّ، ولنعد إلى القضية المهمّة، وهى أنّ إرادة الله فى كلّ ما هو مصداق لأموره أى كلّ الأمور التى تصدر عنه سبحانه إنّما تهبط إلى الأئمّة سلام الله عليهم وتصدر من بيوتهم. وهذا معناه: أنّ كلّ ما يريده الله تعالى بالنسبة إلى أموره التكوينية والتشريعية لم يجعل له إلّا طريقاً واحداً، وهو طريق أهل البيت سلام الله عليهم.

ولو قلنا إنّ الجملة الأولى تتحدّث عن التكوينيات ظاهراً بقرينة ما بعدها، فإنّ الجملة التالية تمدّدت بشمولها التشريعيات أيضاً، بقرينة قوله سلام الله عليه: «والصادر عمّا فُصِّل من أحكام العباد»....

فيكون معنى الجملتين إذاً: إنّ كلّ ما يرتبط بالله تعالى من التكوين والتشريع إنّما طريقه المعصومون الأربعة عشر، وامتداد فيضهما ملازم لامتداد وجودهم بدءاً برسول الله صلّى الله عليه وآله وانتهاءً بخاتم الحجج الإمام الحجّة بقيّة الله المنتظر صلوات الله وسلامه عليه.

إذاً كلّ ما يتعلّق بمقدّراتنا فرداً فرداً ومدى تبدّلها أو نقصانها وزيادتها فيما يخصّ العائلة والمجتمع والأقاليم والقوميات إنّما يشكّل صغرى من صغريات هذا الحديث الصحيح الشريف.

ويتبيّن مما مرّ أنّ كلّ شؤون الكون وقواه قد جعلها الله تعالى بيد الإمام المعصوم سلام الله عليه سواء فيما يتعلّق بالأشخاص أو الأشياء بالنسبة إلى الماضى أو الحاضر أو المستقبل. وتوجد عندنا روايات متواترة على هذا الأمر، والرواية التى عرضناها آنفاً هى إحدى تلك الروايات الصحيحة.

هـذا من جهـة، ومن جهـة أخرى، إنّ المعصومين سـلام الله عليهم هم أعرف منّا بفضـلهم وأنّه لا يقلّ من شأنهم مهما أعطوا. فإذا كان غيرهم يملك مليون دينار وأعطى منه ديناراً واحـداً فإن المليون سـينقص بمقدار الواحد، ولا يعود مليوناً بتمامه. ولو كان يملك ملياراً وأعطى واحـداً نقص المليـار وكسر بـذلك المقـدار، وهكـذا حتى لو كـان المبلغ ألف مليـار فـإنّه لابـدّ أن ينقص بالعطـاء، بـل حتى المحيطـات والبحـار لو أدخلتَ فيهـا إبرة وأخرجتهـا فـإنّ شـيئاً ولو قليلاًـ من الرطوبـة سـيعلق بهـا وينقص ماء المحيط أو البحر بـذلك المقـدار. صـحيح أنّ ذلـك لا يصـدق بالحمل الشائع لأنّه لا يظهر ولكنّه نقَص حقيقـةً. أمّا أهل البيت سـلام الله عليهم ومنهم بقيّـة الله الأعظم صاحب الأمر عجّل الله تعالى فرجه فهم يعلمون بحاجاتك أفضل منك، ولو سألتهم ألف حاجـة عظيمة واسـتجابوا لك فإنّه لا ينقص منهم شـیء أبداً، بل لو أنّ كلّ البشـر المتجاوز عددهم سـتّة مليارات نسـمة سألوا الإمام آلاف الحاجات فسيكون سلام الله عليه قادراً على إعطائها لهم دون أن ينقص منه بمقدار الرطوبة العالقة من ماء البحار برأس الإبرة.

ولكن المشكلة فينا نحن. فكلّ منّا فيه ما يمنع المعصوم من أن يفيض عليه، لأنّ الإمام المعصوم حكيم ولا يضع الشیء في غير موضعه. فينبغي إذاً أن يكون إدراكنا ونوع حاجاتنا وأسئلتنا وكيفيتها بنحو بحيث تقتضي الحكمة استجابتها.

هذا مختصر عن الإمام وقطرة من فيض ممّا ينبغي الحديث عنه وعن عظمته صلوات الله عليه.

مهمّة رجل الدين

أمّا القضيّة الأخرى المتعلّقة بنا نحن أهل العلم فهي من المسائل المهمّة جدّاً وتستحقّ أن نبذل الوقت والجهد من أجلها لكي نصل إلى النتيجة المرجوّة، وإلّا فلسنا على شیء، ومهما يكن عندنا فهو مساوق للعدم إن لم يكن أسوأ من العدم؛ فإنّ علماً لا ينتفع به صاحبه لا يزيده إلّا بعداً عن الله تعالى؛ «العلم إذا لم يُعمل به لم يزد صاحبه إلّا كفراً، ولم يزدد من الله إلّا بعداً»؛ العياذ بالله تعالى من ذلك.

فطلبـة العلوم الدينية على قسـمين؛ القسم الأوّل: أولئك الذين ترنو نفوسـهم لأن يبلغوا مقام العدالة والاجتهاد والتقوى ولازالوا سائرين لأجـل ذلـك وقـد يبلغونه وقـد لاـ يبلغونه، فهؤلاء مازالوا في مرتبـة جنود الإمام. أمّا القسم الآخر: فهم الـذين وُفّقوا لبلوغ مقام العـدالة والاجتهاد، وهؤلاء هم الوكلاء العامّون للحجّـة عجّل الله تعالى فرجه. وتعرفون أنّ الوكيل إذا تصـرّف بالنحو اللائق فأهمّيته عند موكّله أكثر من تصـرّف الإنسان العادي. وكـذا الجندي بالطبع إذا أحسن التصـرّف بين يدي قائده ومولاه كان جديراً بالاحترام أكثر من غيره من الأشخاص العاديين.

ولكن عكس الحالة صحيح أيضاً، فلو كان تصرّف الوكيل والجندي غير صحيح والعياذ بالله كان استحقاقهما للعقوبة أشدّ وآكد.

من بين الأمثلـة الكثيرة أذكر لكم نموذجين فقـط؛ الأـوّل: الفضل بن شاذان رضوان الله تعالى عليه الـذي كان مثالاً للوكيل الجيّـد، أمّا النموذج الآخر المضادّ فهو علي بن أبي حمزة البطائني، ومثله الحسين بن منصور الحلّاج ومن على شاكلتهما.

كـان الفضل بن شاذان من الوكلاء الجيّـدين للأئمّـة سـلام الله عليهم، فقـد روي أنّ الفضل بن شاذان أرسل مبعوثاً إلى الإمام الحسـن العسـكري سـلام الله عليه، وقال مبعوث الفضل بعد ذلك إنّ الإمام العسكري سلام الله عليه قال له: «أغبِطُ أهل خراسان لمكان الفضل بن شاذان بمكانه بين أظهرهم».

ينبغي القول: إنّ المقصود بالغبطـة هنـا معناها المجازي وليس الحقيقي؛ لأنّ الغبطـة تقابل الحسـد، فالحسـد هو تمنّي زوال نعمـة الغير، وهو من الرذائل، أمّا الغبطـة فليس فيها تمنٍّ لزوال نعمة الغير، بل هو تمنّي مثلها للنفس، وهي من الفضائل، وبما أنّ الغبطة بهذا المعنى لا يمكن أن تكون من شأن الإمام المعصوم سـلام الله عليه. إذاً فما هو ذلك الشـیء الجيّـد الـذين يتوفّر عند أحد من الناس ولا يوجد مثله أو أحسن منه عنـد الإمام المعصوم ليكون مثار غبطة المعصوم سـلام الله عليه؟ بل أيّ فضـيلة حقيقيّة من فضائل المعصومين توجد عند غيرهم من الناس؟!

فلاشـكّ إذاً أنّ الغبطـة هنـا غير مقصودة بمعناها الحقيقي بل لابـدّ أن تكون بالمعنى المجازي لها، ويُعرف أقرب المجازات عن طريق

القرائن الخارجيـة، فهنـا مثلاًـ يكون معنى قول الإمـام سـلام الله عليه: «أغبط أهل خراسان» أى أنّ من شأن مَن لم يكن فى خراسان أن يغبط أهلها على نعمـة الاسـتفادة من جوار الفضل بن شاذان وكانت خراسان يومذاك تعنى معظم بلاد إيران اليوم وهذا يعنى أن عمل الوكيل بواجبه جيّداً يوصله إلى هذه الدرجة.

أمّا إذا كان عمل الوكيل سـيّئاً والعياذ بالله فسـتكون عاقبته كعاقبـة على بن أبى حمزة البطائنى؛ فرغم أنّه كان وكيلًا لإمامين معصومين وكان هو السبب فى هداية بعض عمّال بنى أميّة، ولكن انظروا إلى عاقبة أمره كيف صار.

يقول الحسن بن على الوشا: دعانى سيّدى الرضا بمرو فقال سلام الله عليه:

«يـا حسن، مات على بن أبى حمزة البطائنى فى هـذا اليوم وأُدخل فى قبره الساعـة ودخلا عليه ملكا القبر فساءلاه مَن ربك؟ فقال: الله. ثم قالاـ مَن نبيّـك؟ فقـال: محمّـد. فقالاـ مَن وليّك؟ فقال: علىّ بن أبى طالب. قالا: ثمّ مَن؟ قال: الحسن. قالا: ثمّ مَن؟ قال: الحسـين. قالا: ثم مَن؟ قال علىّ بن الحسـين. قالا: ثمّ مَن؟ قال: محمّـد بن علىّ. قالا: ثم مَن؟ قال: جعفر بن محمّـد. قالا: ثمّ مَن؟ قال: موسـى بن جعفر. قالا: ثمّ مَن؟ فلجلج. فزجراه وقالا: ثمّ مَن؟ فسكت. فقالا له: أفموسى بن جعفر أمرك بهذا؟ ثمّ ضرباه بمقعمة من نار فألهبا عليه قبره إلى يوم القيامة». ومازال علىّ بن أبى حمزة معذّباً إلى الآن؛ بل سيبقى كذلك إلى قيام الساعة؛ فالإمام قال: «إلى يوم القيامة».

لقد كان على بن حمزة البطائنى وكيلًا للإمام الصادق والكاظم سلام الله عليهما ولكنّه انحرف، فضُرب ومازال يُضرب بمقعمة من نار.

إنّ العالِم مسؤول مسؤولية مضاعفة وكما فى الحديث الشـريف: «لتحملنّ ذنوب سـفهائكم على علمائكم». وليس المراد من العلماء هنا المراجع وحدهم، بل العالِم بالمعنى اللغوى وهو يشمل كلّ مَن يتحمّل مسؤولية هداية الناس.

مسؤوليتنا مضاعفة

فلنشـدّ العزم ونحثّ الخطى لنكون ممّن اجتاز المقام الأوّل بعـد أن أجهـد نفسه ليكون ضـمن جنود الإمام سـلام الله عليه وحصل على المقام الثانى فى الوكالـة والنيابة العامّة، التى حثّ الإمام المنتظر عج الله تعالى فرجه عليها شيعته بالرجوع إليها فى قوله سـلام الله عليه: «وأمّا الحوادث الواقعة، فارجعوا فيها الى رواة حديثنا، فإنّهم حجّتى عليكم». وإن كان كلا المقامين رفيع فيما إذا تصرّف الإنسان فيهما تصرّفاً صحيحاً، وإلّا فمشكل جدّاً.

قال الإمام الصادق سـلام الله عليه لأحد أصحابه: «الحسن من كلّ أحدٍ حسن، ومنك أحسن؛ لمكانك منّا. والقبيح من كلّ أحد قبيح، ومنك أقبح؛ لمكانك منّا».

فلنحسن التصـرّف، فإنّ الإمام عالِم بأعمالنا ونيّاتنا. ففى الكافى وغيره أنّه فى كلّ يوم تُعرض قائمّة أعمالنا وأقوالنا ونيّاتنا على الله تعالى وعلى النبى الأـكرم صـلّى الله عليه وآله وعلى الإمـام المعصوم سـلام الله عليه بـل فى بعض الروايـات أنّهـا تُعرض عليه كلّ صـباح فلا تسوءوه.

إنّ ارتقاء المدارج العالية يشبـه تسـلّق الجبل. فلو أنّ شـخصاً سقط من ارتفاع متر جرح جرحاً بسيطاً ولكن كلّما كان سقوطه من مكان أعلى كانت إصابته أشدّ ونتائجها أسوأ. فمَن سقط من ارتفاع ۲۰۰م ليس كمن سقط من ارتفاع مترين مثلًا فكيف بمن يسقط من قمّة الجبل؟!

صحيح أنّ مَن بلغ القمّة يشار إليه بالبنان، لكن السـقوط منها قد يقضى عليه تماماً. وكذلك الأمر لمن يسقط من المقامات العالية كما سقط الحلّاج والهلالى والشريعى والبطائنى وغيرهم ممّن خرجت اللعنة عليهم.

فما أسوأ حال من تناله اللعنة من صاحب أرأف قلب فى الوجود! حتماً ستكون أشدّ لعنة فى الوجود.

ختاماً، لنسعَ فى هـذه المناسـبة لتحصـيل رضا الإمام، فإنّه لاشكّ يسـتتبع رضا الله ورسوله صـلّى الله عليه وآله. ورضا الإمام يتحـدّد فى كيفيّة العمل وفق الشريعة. فنحن ولله الحمد نعرف وظائفنا ولو سألَنا شخص لأجبناه ولكن علينا أن نُقرن إجابتنا بالعمل أيضاً.

نسأل الله تعالى ببركة المولى صاحب العصر عجّل الله فرجه الشريف وصلوات الله وسلامه عليه أن يزيد فى توفيق العاملين، ويوفّق الباقين، وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين.

(۱۵) الإخلاص شرط القبول

(۱۵) الإخلاص شرط القبول

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الملَك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به فإذا صعد بحسناته يقول الله عزّ وجلّ: اجعلوها فى سجّين إنّه ليس إيّاى أراد بها».

القصد والنيّة أو ما يُطلق عليه العلماء: العمل الجوانحى أى الذى يكون محلّه القلب يكون إطاراً وحافظاً للعمل الذى يصدر بفعل الجوارح أو ما يسمّى «العمل الجوارحى». فالعمل الجوانحى هو الذى يقوّم العمل الجوارحى، وهذه قاعدة مطّردة عند العقلاء، ويكون الحساب عند الله تعالى على أساسها.

بعض الأعمال قوامها النية

لا شكّ أنّ بعض الأعمال لا مدخلية لنوع النيّة فيها، بل المطلوب أن تقع كيفما وقعت. ومثالها أن تستدعى بنّاءً لبناء دارك، فالمطلوب أن يؤدّى عمله بإتقان لقاء الأجر الذى يتقاضاه، ولا تهمّك نيّته وراء قيامه بهذا العمل سواء أراد بها الشهرة مثلاً أو الحصول على المال بل المهمّ عندك أن يكون العمل نفسه وهو البناء صحيحاً.

ولكن ثمة أعمال أخرى لا ـ يكفى أن تقع مجرّدةً عن النية والقصد الخاصّ، ومثالها أن تدخل مجلساً وتلاحظ أنّ شخصاً قام عند دخولك، فإن كان لأجلك فهو ذو قيمة بالنسبة لك ويستحقّ عليه أجراً معنوياً وهو الاحترام، أمّا لو كان قيامه لسبب آخر أو دونما سبب واتّفق مع دخولك، فلا يستحقّ عليك شيئاً؛ لأنّ المهمّ ليس أصل القيام، وإنّما القصد والنيّة والباعث من ورائه، فمثل هذا العمل هو الذى يكون للنية أو نوع النيّة دخل فيه وفى قيمته.

والحال نفسه يصدق على الأعمال التى يريد الله تعالى منّا القيام بها، فثمّة أعمال لا يشترط فى صحتها نيّة القربة كالأعمال غير العبادية، وإن كان يمكن التقرّب بها إلى الله إذا نوى المرء امتثالها كذلك.

ومثال آخر للأمور التى قوامها القصد والنية هى المسائل الإنشائية، أى القضايا التى فيها قصد الإنشاء حسب الاصطلاح العلمى. فما لم يقع هذا القصد لا ـ ينشأ فى الخارج، ومثاله العقود كعقد البيع والنكاح وسائر العقود. فالمطلوب أن يقع فيها القصد الخاصّ والنيّة. فالمدرّس مثلاً عندما يدرّس الطلاب ويمثّل لهم عقد البيع بقوله: «بعتك هذا الكتاب» فهذا المثال لا يتحقق فيه بيع واقعاً رغم إجراء الصيغة بصورة صحيحة، لأنّ القصد هنا ليس الإنشاء. وهذا جارٍ فى سائر الشؤون عند العقلاء.

ومثال آخر أكثر توضيحاً: يذكر الفقهاء شروطاً عديدة لصحّة عقد النكاح؛ منها: تقدّم الإيجاب على القبول، وأن يكون اللفظ بالعربية، وأن يكون بصيغة الماضى مثل" زوّجتك نفسى "وما أشبه، وأن لا يقع فصل بين القبول والإيجاب، وأن يكون القبول بمادّته مثل «قبلتُ» إلى آخره. والآن لو سألنا: ما حكم ألوف الألفاظ التى تقع بها صيغة عقد النكاح الحائزة على سائر الشروط أعلاه فى قاعات الدرس عندما يريد الأساتذة أن يمثّلوا لتلامذتهم كيفية وقوع عقد النكاح بها؟ فالجواب: إنّ هذه الألفاظ والصيغ وإن كانت حائزة على سائر الشروط إلّا أنّها تفتقد إلى الشرط الأساسى وهو القصد، ولذلك لا يقع بها نكاح، وهذا أمر مفهوم عند العقلاء؛ لأنّهم يدركون أنّ الأعمال التى تتقوّم بالنية والقصد لا قيمة لها إن افتقرت لهما.

ولا يكفى القصد المطلق، أى مجرّد القصد أىّ قصد كان، بل لابدّ من حصول القصد الخاصّ، فلو قال شخص «بعتُ» وقصد النكاح،

فلا البيع يقع ولا النكاح، بل لابدّ أن يريد من قوله «بعتُ» البيعَ ومن قوله «أنكحتُ» النكاح.

العبادات شرطها النية

كلّ ما تقدّم في معاملات العقلاء يصدق في العلاقة مع الله تعالى، ومن ثمّ قالوا: إنّ العبادة لا تقع صحيحة إلّا مقيّدة بالقصد الخاصّ، وهو قصد التقرّب إلى الله تعالى، كما قال سبحانه?: وَمَا أُمِرُوا إلّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، ?أي لا ينبغي وجود قصد آخر غير الله يختفي وراء عمل المرء ليكون هو الدافع.
بيد أنّ هناك بحثاً فقهياً حول العبادات غير الواجبة والتوصّليات؛ فإنّ الأمور التي أرادها الله سبحانه وتعالى منّا على قسمين: عباديات وتوصّليات. أمّا التوصّليات فهي التي لا يشترط فيها نيّة القربة رغم أنّ الله أراد منّا القيام بها، سواء ما كان منها على نحو الوجوب كطاعة الوالدين والتطهّر من النجاسات كشرط لبعض العبادات، أو على نحو الاستحباب كصلة الرحم والتصدّق على الفقراء.
ولا خلاف في أنّ التوصّليات إذا وقعت فهي صحيحة ولا علاقة للصحّة بالحليّة والحرمة فيها فضلًا عن النيّة. فإنّ الثوب النجس يطهر إن غُسل بماء طاهر وإن كان الماء مغصوباً، وأثم المكلّف على غصبه. ولا خلاف في أنّ العباديات وهي التي يشترط فيها النية لا تقع صحيحة من دون النية والقصد الخاص وإن كانت من المستحبّات.
ولا خلاف في أنّ مَن أتى بالواجب العبادي رياءً أي لم يكن قصده القربة والنية الخالصة لله فإنّه يحاسَب؛ لأنّ التكليف الذي كان في عهدته لم يسقط، حيث إنّ العبادة لم تقع صحيحة لكونها وقعت رياءً وافتقدت مقوّمها الأساسي وهو قصد القربة.
ولكن هناك كلام في المستحبّات العبادية (كصلاة الغفيلة أو صوم شهر شعبان) والتوصّليات عامّة (كالصدقة والإنفاق المستحبّ والواجب وطاعة الوالدين وصلة الرحم) إن وقعت رياء، أيكون المكلّف قد ارتكب عملًا محرماً بذلك أم لا؛ لعدم اشتراط النيّة فيها؟ هنا يختلف الفقهاء حيث ذهب بعضهم إلى الحرمة، وبخاصّة في العباديات المستحبة حيث إنّ القائلين بحرمة العمل المستحبّ رياء أكثر فمَن صلّى صلاة الليل رياءً مثلًا فإنّما يكون قد ارتكب فعلًا محرّماً. والذاهبون إلى هذا الرأي يتمسّكون بإطلاق أدلّة الرياء، رغم أنّ المسألة شائكة وبحاجة إلى جهد متميّز لاستنباط الموقف الصحيح. ولكن سواء قلنا بحرمة الرياء في العبادات فقط أو بحرمتها في التوصّليات أيضاً، أو اقتصرنا على القدر المتيقّن وهو الحرمة في الواجبات العبادية واكتفينا في غيرها بالبطلان وعدم القبول، فإنّ الأمر الذي لا شكّ فيه أنّ مَن لم يأتِ بالمستحبّ كصلاة الليل ويبيت نائماً أفضل كثيراً ممّن يقوم ويصليها رياءً؛ ولعلّ هذا يتّفق مع ما ورد في الحديث الشريف: «حبّذا نوم الأكياس وإفطارهم».

ما خفي على الملائكة لا يخفى على الله

في الحديث الذي صدّرنا به البحث من قوله صلّى الله عليه وآله: أنّ «الملَك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به» يتبيّن أنّ ذلك العمل لم يكن جديراً بأن يبتهج به لانعدام قيمته لأنّه لم يكن خالصاً لله تعالى، فأمر أن تجعل في سجّين؛ علماً أنّ الملك لا يبتهج بعمل لا قيمة له، وإنّ ابتهاجه بذلك العمل كان من جهة تصوّره أنّه لله، ولكن تبيّن خلافه.
النقطة الأخرى: ينبغي التوقّف ملياً عند لفظ الحديث، فهو مليء بالإشارات والمعاني العميقة، فكما يمكن أن تكون هناك قرائن لفظية تدلّ على التوكيد كالجُمل، كذلك يمكن أن تكون القرائن اللفظية حروفاً كما في المقام، فكان يمكن أن يقال «إنّ الملَك يصعد» إلّا أنّ اللام هنا جيء بها للتوكيد وليس لمجرّد جمال التعبير، فقد تدلّ الحالة التي تلفظ بها الجملة على التوكيد كالمولى يصرخ بعبده أو يطلب منه بقوّة أن يأتيه بالماء، ولابدّ أن يكون المقام مقتضياً للتوكيد هنا لأهميّته؛ فإنّ الإنسان قد يتصوّر أنّ مجرّد كون أعماله حسنات في ظاهرها يكفي، ولكنّ الحديث يقول: «إنّ الملَك ليصعد» بهذه الأعمال التي لا يُشكّ في كونها حسنات كما هو الحال في الصلاة أو الصوم أو التدريس أو الخطابة أو المطالعة أو التأليف وذكرتُ هذه الأمثلة لأنّها محلّ ابتلاء طلبة العلوم الدينية في الغالب

ولكن عندما يصعد بها الملك يقول الله عزّ وجلّ: «اجعَلوها في سِجّين» أي موضع أعمال الكفّار والمنافقين والظالمين! لماذا؟ أليست صلاة وصياماً وما أشبه؟! أكان فيها خداع أم شيء لا يعلَم به قائله وأطلقه جزافاً؟ أم ثَمّ مانع من قبولها؟

الجواب: كلا فالموانع كلّها منتفية والشرائط كلّها موجودة باستثناء أمر واحد. يقول الله عزّ وجلّ: «إنّه ليس إياى أراد بها». وهذا قاصم الظهر حقيقة. هذا الذى لا ـ أعرفه منك ولا تعرفه منى لأنّنا نتصوّر أنّنا أذكياء نستطيع إخفاءها. ولكنّها حتى لو خفيت على الملَك؛ فإنّها لا تخفى على الله تعالى.

أين الله؟!

كان أحد الكسبة القرويين فى العراق قد بلغ درجة عظيمة من التقوى. ولما سُئل عن سرّ بلوغه هذه الدرجة أجاب: يعود الفضل فى ذلك إلى عالِم فى قريتنا. يتبيّن من قصّته أنّه كان يجيد فنّ هداية الناس. وتفصيل القصّة:

سأل هذا الكاسب عالم قريته سؤالاً؛ قائلا له: أين الله؟ ولو سُئل أحدنا لقال فى جوابه: إنّه موجود فى كلّ مكان ولا يخلو منه مكان. ولكن العالِم الذى كان يعرف هداية الناس، أجابه سائلاً: ما شغلك؟ قال: صفّار.

ولما قال الرجل إنّه صفّار، قال له العالِم: إذا وضعت قطعة أصغر من المطلوب لسدّ ثغرة فى قدر أو ما أشبه، فستبقى فتحة صغيرة، أليس كذلك؟ قال: بلى. قال: أرأيت تلك الفتحة الصغيرة فى الوعاء، التى قد تفكّر بتلاشيها عن طريق التمدّد الحاصل من الطَّرق المتكرر والطلاء، فهناك يوجد الله وهو يراك ويراقب عملك.

وهكذا أصبحت هذه المسألة سبباً لمحاسبة الرجل نفسه يومياً، وربما أكثر من مرّة فى اليوم الواحد، لأنّه كان يرى الله مشرفاً عليه فى عمله دوماً.

الحالة نفسها يمكن أن تصدق مع المهن الأخرى، كالبنّاء الذى يرمّم جداراً مثلًا بحيث يبدو لصاحب الدار أنّه لم يعُد معيباً، ولكن الوضع لا ـ يدوم طويلًا، إذ سرعان ما تعود الحالة الأولى ويظهر الخلل ويحتاج الجدار إلى الترميم مجدّداً، وذلك لأنّ البنّاء لم يكن دقيقاً فى عمله أو لاستعماله الموادّ الرخيصة وغير المناسبة.

فلو أنّ البنّاء رأى الله مطّلعاً عليه حين يمارس عمله، لما غشّ الناس بعد ذلك وكان ذلك باعثاً على استقامته وتكامله.

ونحن طلبة العلوم الدينية غير مستثنين من هذه القاعدة، فإنّ عملنا سيكون ناجحاً ويعطى أفضل الثمار إذا لم يغب عن أذهاننا حين أداء دورنا أنّ الله هو الرقيب علينا، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله حاضر يرى أعمالنا.

يشكو لله غربة دينه

كان السيد أحمد القمّى الروحانى عالِماً مجتهداً وواعظاً مؤثّراً، لأنّه كان متّعظاً أدركتُه وحضرتُ مجلسه ليلة النصف من شعبان حيث كان يصادف زيارة الإمام الحسين سلام الله عليه وحضور الزوّار من كلّ المحافظات وعلى اختلاف الأطياف إلى كربلاء المقدّسة وكان يرتقى المنبر فى المدرسة الهندية وهى مدرسة علمية دينية فتمتلئ المدرسة بالعلماء والمدرّسين والخطباء والطلبة، وكان الحاضرون كلهم آذاناً صاغية له، وكأنّ على رؤوسهم الطير، لصدق كلامه، وبلاغة بيانه.

حكى أنّ هذا العالِم الواعظ كان قد حضر مجلساً خاصّاً عُقد فى طهران وحضره جمهرة من الخطباء المشهورين فى إيران يومذاك. فقال الخطيب الذى دُعى ليرتقى المنبر فى ذلك المجلس لزملائه الخطباء: إنّى مدعوّ لارتقاء المنبر فى مجلس يحضره أناس من مختلف الطبقات، وربما يحضره أشخاص لم يحضروا مجلساً طيلة عمرهم أو لم يحضروا إلّا مجلساً واحداً فى السنة كيوم عاشوراء مثلاً لذا أطلب منكم أن تشيروا علىّ فى الموضوع الذى يتناسب طرحه فى مجلسٍ كهذا.

فاقترح بعضهم أن يتناول أصول الدين، واقترح آخرون أن يتحدّث عن الأخلاق، واقترح غيرهم أن يعلّمهم أحكام الصلاة ويرشدهم

لوجوبها ومدى أهمّيّتها فمن المفترض أن يوجد في مجلس عامّ كهذا أناس لا يصلّون فعسى أن يهديهم الله ليصبحوا من المصلّين.

تكلّم الجميع وكلٌّ أدلى بدلوه إلّا السيّد أحمد القمّي فقد بقي صامتاً. وعندما انتهوا أجمعهم، التفت الخطيب إلى السيد أحمد القمّي وقال له: أحب أن أسمع رأيك. قال: السادة أعاظم أهل الفنّ قد أشاروا عليك. قال الخطيب: هذا صحيح ولكنّي أريد أن أعرف رأيك. قال السيّد القمّي: كلّ الذي قالوه جيّد، ثم إنّك لا تريد أن ترتقي أكثر من منبر، ففيما اقترحوه الكفاية إذاً، فما الداعي للإضافة؟ ولكنّ الخطيب أصرّ على السيد طالباً رأيه ولم يشتهر السيد يومذاك بكونه خطيباً من الدرجة الأولى، لكنّ إجابته كانت تكشف عن كونه كذلك فقد قال له: في الواقع، ليس لديّ موضوع خاصّ أقترحه عليك أكثر ممّا اقترحه عليك الإخوة، فقد اقترح كلٌّ موضوعاً واستوعبه ذهنك وبحمد الله، ولكن أسألك أسئلة أوّلاً ثم أتقدّم إليك باقتراحي وكان بإمكانه أن يطرح اقتراحه دون الحاجة إلى هذه الأسئلة ولكن أراد أن يهيّئه للموضوع ويجعل إجاباته من باب المقدّمات والإعداد النفسي.

فسأله من باب سؤال العارف عن المكان الذي يقام فيه المجلس ثم عن مساحة الأرض التي يقوم عليها، وكميّة الحضور مثلاً ثم طلب منه أن يصف له مكان المنبر والزاوية التي يوضع فيها ...وكان يريد بذلك أن ترتسم صورة المجلس في ذهنه.

وهنا قال له: عندما ترتقي المنبر وتبدأ بقراءة المقدّمة وتفكّر في ترتيب الموضوع الذي وقع عليه اختيارك، تصوّر وأنت في تلك الحالة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله جالس أمامك آخذاً لحيته بيده ويشكو لله غربة دينه. ثم انظر وأنت في تلك الحالة، ماذا ستقول، وكيف ستتكلم؟

قال ذلك الخطيب: عندما صعدت المنبر تراءى لي ذلك المنظر حقّاً، فقد امتلكني وهيمن عليَّ شعور بحضور الرسول صلى الله عليه وآله وأنّه يراني ويسمع ما أقول وكيف أخدم دينه؛ ثم انتخبت موضوعاً وبدأت أتكلّم فيه، وكان لكلماتي تأثير معنويّ عظيم في الناس، وأنا أجزم أنّه لم يكن ليحصل لولا تأثير تلك الالتفاتة المعنوية والإحساس بمراقبة النبي صلى الله عليه وآله.

الشيطان يأتي كلّ إنسان من نقطة ضعفه

إذاً يجب علينا أن نوجد هذا الشعور بأنفسنا، فإنّه وإن كان صعباً إلّا أنّه ممكن لأنّ الشيطان لا يأتي إلينا من الطرق التي أشربت بها نفوسنا، فهو لا يدعونا لترك الصلاة لأنّنا قد تعوّدنا عليها منذ نعومة أظفارنا، بل فتحنا أعيننا عليها واعتقدناها، فكان آباؤنا وأقرباؤنا وأصدقاؤنا يصلّون. ولكنّه يأتي كلَّ إنسان من نقطة ضعفه. فهو يأتي مَن يحبّ المال من جهة المال، ومَن يغضب بسرعة من جهة الغضب، والمحبّ للشهوات من جهة الشهوات. وهكذا فكلّ يأتيه من الجهة التي تتناسب مع طبيعة عمله. فإن لم نكن منتبهين، كنّا والعياذ بالله من الذين? وَبَدَا لَهُم مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ، ?وهذه قاصمة الظهر، وسببها التقصير في المقدمات. فمَن لا يعتني بالمقدّمات استرسل ثم تعوّد شيئاً فشيئاً، وإذا به يفتح عينيه فجأة ليرى نفسه أنّه ذهب إلى الآخرة خالي اليدين والعياذ بالله حيث لا ينفعه الندم والجزع؛ فقد ورد في الحديث: «فإنّكم لو عاينتم ما قد عاين مَن مات منكم، لجزعتم ووهلتم، وسمعتم وأطعتم. ولكن محجوب عنكم ما قد عاينوا، وقريباً ما يُطرح الحجاب».

والجزع لا يكون من العذاب فقط، بل كثيراً ما يكون نتيجة التقصير، بل القصور أيضاً، فيقول الإنسان: وا أسفاً؛ لماذا فعلت كذا تقصيراً ؟ أو لماذا فهمت الشيء الفلاني هكذا قصوراً ؟

ويمكن أن نضرب لذلك مثلاً في الحياة الدنيا بشخص يدعو أناساً محترمين لوليمة مهمّة ويرتّب لها كلَّ شيء. وعندما يُهيّأ لصبّ الطعام في الصحون والأواني يكتشف أنّ في الطعام عيباً وأنّه لا يمكن تقديمه إلى الضيوف هكذا، ولا يوجد عنده المال أو الوقت الكافي لتوفير البديل؛ فإنّ هذا الشخص لا ينسى هذا الإحراج الذي حصل له طيلة عمره، مع أنّه ربما لم يكن مقصّراً، فإنّ التألم والجزع قد يكون بسبب القصور أيضاً.

في السابق، عندما كان يدور الحديث عن القاصر والمقصّر، كان يُضرب مَثل للقاصر بالشخص الأمّي الذي يعيش في قرية لا يوجد

فيها أحد من أهل العلم ليسأله، أمّا في المدن فلا يوجد قاصر. وجرى هذا الحديث مرّة فذكر أحد العلماء المعاصرين أنّه حتى في القرى لا يوجد اليوم قاصرون.

وبغضّ النظر عن المناقشة في ذلك ولكن المسلَّم أنّ أحداً لا يعدّ أهل العلم من القاصرين.

لذا لا ينبغي أن تكون دراستنا لغرض التدريس والتبليغ والموعظة وإرشاد الآخرين والإجابة عن أسئلتهم فقط، بل يجب أن ندرس ونواصل البحث لأنفسنا أيضاً، لأنّ تهذيب النفس وإصلاحها واجب كما أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان. ولو بحثنا لوجدنا أشياء كثيرة لم نكن نعرفها، ولاكتشفنا مطالب جمّة لم نكن نتصوّرها على تلك الكيفية، أي نكتشف أنّا كنّا نجهل أموراً كثيرة. ولا نعذر في جهلنا هذا مادمنا نرى وجوده محتملاً لأن العلماء يقولون: إنّ دفع الضرر المحتمل واجب.

أمّا حديث: «رفع عن أمّتي تسعة ... وما لا يعلمون» فلا يمكن أن يقصد به الجاهل المقصّر، لأنّ هذا معناه أنّه لا يجب على أحد أن يتعلّم، ويصبح الكلّ معذورين، ولا يتصوّر وجود شخص غير معذور بعد ذلك.

حذار من الشرك الخفي

إذاً من الأمور الأكثر أهمّية بالنسبة لنا أن لا يكون طلبنا العلم لغرض رفع جهل غيرنا فقط بل لنزيل الغموض عن أنفسنا أيضاً، وأهمّ المسائل التي ينبغي أن نكون واعين لها ونبدأ بمعالجتها هي مسألة الإخلاص والتخلّص من الرياء. فلنراجع أنفسنا في كلّ موقف بدقّة وننظر كم كان منه لله وكم لأنفسنا، فلينظر الخطيب مثلاً إلى حديثه عندما يجهد نفسه لكي يجذب الآخرين، هل أتعب نفسه وعنى بعباراته ونمّق أسلوبه لكي يقال عنه إنّه خطيب ناجح، أم كان كلّه لله، أم بعضه لله وبعضه لنفسه؟ وهكذا الكاتب والمدرّس والمجتهد و....

وهذه العملية تتطلّب وعياً مستمرّاً؛ وذلك لأنّ الشيطان يجري في الإنسان مجرى الدم في عروقه، فلا نغفلْ ولا نخضع لوساوسه وتسويلاته. فإنّ كثيراً من الناس يرتكبون الخطأ ويتصوّرونه صحيحاً، وقد يعملون ما يضرّهم ويعلمون بذلك، ولكنّهم مع ذلك لا يتناهون عنه!

وكذلك الأمر بالنسبة لطالب العلم فربّما أتاه الشيطان عن طريق علمه وزيّن له عمله؛ فيرتكب ما نُهي عنه ثم يقول متذرّعاً إنّ هذا العمل منهيٌّ عنه إلاّ ما خرج بالدليل، وشيئاً فشيئاً تصبح «إلاّ» هذه تخصيصاً للأكثر!

ولذلك ورد في الحديث: «دبيب الشرك في أمتي كدبيب النملة السوداء على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء».

إشارة إلى اجتماع السواد الحاصل بالنملة والصخرة العظيمة في رأس الجبل مع الليل الأسود، بحيث يستحيل معها تمييز وجود النملة فضلاً عن دبيبها. وهكذا يكون الشرك أحياناً. وهذا هو المأزق!

داؤک منک ودواؤک فيک

إذاً، ما هو طريق الخروج من هذا المأزق؟ هل هو الدرس أم التدريس وما أشبه؟ نقول في الجواب: لا هذا ولا ذاك. وإنّما الدواء في داخلنا.

هناك حديث مقتضب العبارة بليغ المعنى عزيز المنال، إلاّ على من نظر إلى نفسه من خارجها وحاسبها وكأنّها نفس غيره، حينها يتّضح له معنى هذا الحديث، حيث يروى عن أمير المؤمنين سلام الله عليه قوله: إذا صعدت روح المؤمن إلى السماء تعجبت الملائكة. وقالت: عجباً! كيف نجا من دار فسد فيها خيارنا. ومفهومه أنّ المؤمنين قليلون جداً، فإنّه يموت الألوف من الناس يومياً ولا يثير ذلك عجب الملائكة، ولكن حيث إنّ المؤمنين قليلون فموت مؤمن اليوم لا يتكرر حتى تمرّ أيام أو أسابيع وربما أشهر حتى يتّفق أن يموت مؤمن آخر.

أمّا عجب الملائكة فهو للمؤمن كيف استطاع أن يفلت من كلّ تلك الفتن الشائكة ولم يقع في حبائل مضلّاتها وبقي مؤمناً حتى الممات.

ولكن مَن يسلك الطريق ويسير فيه قليلاً قليلاً، يصل. ومَن صدق مع نفسه، وفّقه الله. ولا ينبغي اليأس بل المطلوب اليقظة والحذر. إنّ الأمل برحمة الله كبير جداً. وإنّ من أرجى آيات القرآن الكريم قوله تعالى?: إِلَّا مَن رَحِمَ رَبُّکَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ، ?فصريح القرآن أنّ الله تعالى خلقنا ليرحمنا، أي إنّ رحمة الله هي الهدف والعلّة الغائية لخلقنا¬ حسب الاصطلاح الفلسفي.¬¬

فإن نحن صدَقنا مع أنفسنا فحاشا لله أن لا يأخذ بأيدينا ويوفّقنا. وهذا لا يعني أنّ الطريق سهل فهو صعب وصعب جداً ولكنه ممكن.

قد يظهر أحدنا أمام الآخرين بمظهر لا ينمّ عن نيّته الحقيقية، لعلمه بعجز الناس عن القدرة في معرفتها، بينما الأمر يختلف تماماً مع الله سبحانه الذي يعلم السرّ وأخفى، وبرحمته ستر علينا ولم يفضحنا.

أجل، هنا مكمن الصعوبة، ومع ذلك فتربية النفوس والإخلاص في النوايا يبقى أمراً ممكناً؛ لأنّ الله سبحانه وعد بالتوفيق، وما على الإنسان إلّا أن يسعى والتوفيق من الله? وَأَن لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى، ?فمع السعي والدعاء يوفّق الله عباده.

وإذا برزت عند الإنسان نقاط ضعفه وأرادت أن توقفه فليتذكّر أنّ الله موجود هناك عند تلك النقاط وليركّز على هذا الأمر، وبتكرار هذا التذكّر مع نفسه سيصلح ما قد فسد من نفسه شيئاً فشيئاً إن شاء الله تعالى.

(١۶) الاخلاص وآثاره

(١۶) الاخلاص وآثاره

?قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ? إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ.?

الفرق بين المخلِص والمخلَص

هناك فرق بين المخلِص والمخلَص.

فالمخلِص بكسر اللام مَن كانت أعماله خالصةً لله، أي يقوم بها لله فقط، وقد وردت في هذا المعنى آيات عديدة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى?: وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ. ?فالمخلصين هم الذين أخلصوا دينهم لله. أمّا المخلَص بالفتح فهو من أخلصه الله لطاعته.

وفي هذا المعنى أيضاً وردت آيات عديدة، منها الآية التي ذكرناها، والتي ورد فيها أنّ الشيطان أقسم بعزّة الله تعالى بعد أن طرده الله من الجنّة لمّا رفض السجود لآدم عليه السلام أنّه سيقوم بإغواء بني آدم ولكنّه استثنى منهم عباد الله المخلَصين. فإنّ مَن استخلصهم الله تعالى ووقّع على إخلاصهم، لن يقدر إبليس على إغوائهم، ولم يستثنِ غيرهم حتى المخلِصين.

الإخلاص من الأمور الواقعية

هناك في الحياة أمور واقعيّة أعمّ من أن تكون مادّية أو معنوية. فمن الأمور الواقعية في الحياة مثلاً أنّ الإنسان الذي يستطيع أن يسيطر على أعصابه ويملك نفسه تجاه السفهاء من الناس لا يفقد صحته ولا دينه ولا كرامته في المجتمع، خلافاً لمَن يثور بسرعة فيفقد السيطرة على أعصابه وربما ردّ الكيل بكيلين والصاع بصاعين، فينقلب ظالماً بعد أن كان مظلوماً فيفقد دينه، كما يخسر صحّته بسبب غيظه، وتتزلزل مكانته الاجتماعية لتعرّضه للنقد من قِبل الآخرين. فالشخص الأوّل في المثال تصرّف بصورة ربح فيها الموقف بينما فرّط به الشخص الآخر.

والإنسان مفطور على حب الكمال، فحتى الـذى ليس عنـده علم يحبّ أن يقال عنه عالِم، ويفرح بذلك. كما أنّ الجاهل لا يرضـى أن يقال عنه جاهل وإن كان كذلك حقيقة. وهذا إنّما يدلّ على أنّ العلم له واقعية والجهل كذلك.

وكون الإخلاص أمراً حسـناً وممـدوحاً فهو من الأمور الواقعية؛ فالإنسان عادة تجده ينزعج ويتأثّر لو قيل أنّه غير مخلص فى عمله، كما أنّه حتى غير المخلص يفرح لو قيـل عنه أنّه مخلص وإن لم يكن كـذلك واقعاً. وهكـذا حـال سـائر الواقعيّات كالصـدق والشـجاعة والكرم.

آثار الإخلاص فى الواقع العملى

وللأمور الواقعية آثار عملية تترتّب عليها، وتلك الآثار تتناسب مع درجة الواقعية، فكلّما زادت واقعيّة الشىء زادت آثاره.

نقل فى أحوال أحد العلماء الماضين رحمه الله أنّه كان إذا دُعى للصلاة على ميّت، يحضر الجنازة فيصلّى عليها ولا يتأخّر بعد ذلك بل ينصـرف إلى أعماله وشؤونه الاخرى فقد كان مرجعاً صاحب رسالة عملية يرجع إليه الناس فى أمور دينهم واتّفق فى يوم من الأيّام أن توفّى أحد القصّابين فى ذلك البلد، فأُخبر العالِم، فحضر للصلاة عليه، ولكنّه وعلى خلاف عادته تأخّر هذه المرّة حتّى دفنوا الميت، ثم جلس على قبره وقرأ له جملة من الأدعية وبعض السور من القرآن الكريـم.

فأثار هـذا الأمر استغراب البعض، لأنّ القصّاب الميّت لم يكن من أقرباء العالِم ولم يكن من العلماء أو الزهّاد! وعندما أراد الانصـراف توجّه إليه أحـدهم بـالسؤال عن وجه اهتمامه بهـذا الميّت، والإكثار من الترحّم عليه، فقال: إنّ هـذا القصّاب ساعـدنى فى أيّام عسيرة، فكـان يقرضـنى وهو لاـ يعرفنى فى وقت كنت محتاجاً دون أن يرجو قـدرتى على إرجاع المال إليه. فيوم قـدمتُ إلى هـذا البلـد كنت معيلاًـ فقيراً ولم يكن أحـد يعرفنى بمن فيهم هـذا القصّـاب، غير أنّى كنت أشترى منه اللحم، وفى إحـدى المرّات لم يكن عنـدى مال لأـدفع الثمن، فقـال لى: لاـ بأس أنا مستعدّ لأن أبيعك اللحم دَيناً، وتكرّرت الحالـة فى اليوم الآخر، ولعـدّة أيام، وهو يقرضـنى برحابة صـدر دون أن يعرفنى أو يعلم أنّى قـادر على تسديـد الـديون، فقـد كنت طالباً ولا أملك مورداً آمل أن يأتينى منه المال، فسألته يوماً: هل أوصاك أحد بى؟ قال: لا. قلت: تعرفنى؟ قال: لا. قلت: لماذا إذاً تقرضنى؟ قال: رأيتك مؤمناً بادى الصلاح ومعيلاً؛ فأقرضتك فى سبيل الله، فإن حصلتَ على المال رددته إلىّ، وإن لم تحصل فلا بأس عليك ولا أخسر فى صفقتى مع الله.

يقول العالِم: أُعجبتُ بإخلاص هذا الرجل الذى ساعدنى قربة إلى الله تعالى دون أن يعرفنى.

فإذا كنّا نحن البشـر لا ننسـى المساعـدة المخلصة، ونسـتطيع أن نميّزها من دون آلاف المساعدات الأخرى، ونقدّرها، وإذا كنا ندرك هذه الحقيقة ولا نختلف فيها وهذه الحقيقة من الواقعيات، وللواقعيات آثارها كما قلنا فكيف بالله تعالى وهو العليم الحكيم.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ لنا محبين لو قطّعنا الواحد منهم إرباً إرباً ما زادوا إلّا حبّاً، ولنا مبغضين لو ألعقناهم العسل ما ازدادوا إلّا بغضاً».

فهل يُعقل أن يُقطَّع أحدٌ بالسيف ومع ذلك يحب مَن بسببه قُطِّع؟! إلّا إذا كان حبّه لله تعالى.

الإخلاص ونتائجه المستقبلية

جاء فى الروايـة: «لما أُهبط آدم عليه السـلام إلى الأرض جاءته وحوش الفلاة تسلم عليه وتزوره، فكان يـدعو لكل جنس بما يليق به، فجـاءته طائفـة من الظباء فـدعا لهن ومسـح على ظهورهن فظهر منهنّ نوافـج المسك، فلما رأى ما فيها من ذلك غزلان أُخر قالوا: من أين هذا لكنّ؟ فقلن: زرنا صفىّ الله آدم فدعا لنا ومسح على ظهورنا، فمضى البواقى إليه فدعا لهنّ ومسح على ظهورهنّ فلم يظهر لهن من ذلك شىء، فقالوا: قد سلّمنا كما فعلتم فلم نرَ شيئاً ممّا حصل لكم. فقالوا: أنتم كان عملكم لتنالوا كما نال إخوانكم وأولئك كان عملهم لله من غير شىء فظهر ذلك فى نسلهم وعقبهم إلى يوم القيامة».

حكى أنّ رجلًا من الأعراب زار قبر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ونظم عنده بيتاً واحداً من الشعر مختلّ الوزن وعارياً من البداعة ونحوها، فانحلّت عروة قنديل من الذهب كان معلّقاً فى سقف الحرم، وسقط القنديل أمامه على الأرض، فقيل للأعرابى: إنّ هذا القنديل سقط إكراماً وهدية لك من الإمام؛ وذلك لأنّ الأمر كان خلاف العادة، فالقناديل كانت محكمة الربط بسلاسل حديدية، الأمر الذى فُسّر على أنّه كرامة من الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه لهذا الأعرابى.

فسمع أحد شعراء النجف فى تلك الأيام بالقصّة، فنظم قصيدة عصماء وقرّر أن يلقيها عند ضريح الإمام، ليحصل على قنديل من ذهب إن لم يكن أكثر وسمعة طيبة، واجتمع مع أصدقائه عند حرم الامام عليه السلام فى اليوم المقرّر الذى أخبرهم به، وشرع بقراءة البيت الأوّل ولم يسقط شىء، واستمرّ فقرأ البيت الثانى ثم الثالث والرابع حتى نيّف على العشرين إلى أن أكمل القصيدة، ولكن دون جدوى. حينها تألّم الشاعر كثيراً وتقدّم نحو الضريح المقدّس وخاطب الإمام قائلًا: أنشدك ذاك الأعرابى بيتاً واحداً من الشعر الذى لاـ يُعرف أوّله من آخره، فضلًا عن خلوّه من المعانى البديعة، فأعطيته جائزة، وأنا أتيتك بهذه القصيدة العصماء التى أتعبتُ نفسى فيها، ولم تكافئنى عليها! ثم انصرف متألّماً.

فرأى الإمام عليه السلام فى عالَم الرؤيا يقول له: لماذا عتبتَ علىَّ هذا اليوم؟ فقال: إذا كانت القضية قضية شعر، فشعرى أجمل وأبلغ، فلماذا أعطيته وحرمتنى؟ قال له الإمام: إنّ ذلك الأعرابى قال الشعر لى، وأنت قلته للقنديل! صحيح أنّك مدحتنى لكن لأجل القنديل والكرامة الاجتماعية.

مسؤولية رجال الدين

إنّ طلاب العلوم الدينية مبتلون فى مسألة الإخلاص أكثر من غيرهم، لأنّهم قد يصلون نتيجة دراستهم إلى مكانة فى المجتمع يطمع الشيطان بسببها فى إغرائهم، لأنّ أحدهم لو زلّ لا سمح الله فسيزلّ ويضلّ بسببه خلق كثير؛ كما لو بلغ أحد مقام المرجعية حيث تُجبى إليه الأموال ويحظى باحترام الناس وتقديرهم وحبّهم، وكذا لو كان وكيلًا للمرجع أو خطيباً أو أىّ مركز اجتماعىّ مرموق. فإنّ مثل هذه الأمور مغريات وكثيراً ما تتطلّب اليقظة بدءاً واستمراراً. فإذا كان نظر الإنسان إلى هذه اللوازم التى تنشأ من التصدّى للمسؤولية كالهيبة والتقدير والوجاهة أو الأموال والمكاسب المادّية الأخرى، حينها يقال للإنسان بعد تعب مرير وعناء كثير: لقد فعلت ما فعلت من أجل هذه الأمور، وقد حصلت عليها، إذاً فلا شىء لك عندنا بعد. لقد عملتَ للشهرة والسمعة ليقال عنك مثلًا: كاتب جيّد أو خطيب مصقع أو عالم عامل أو ما أشبه، وقد نلت مرامك. فيكون حينها كمَن نظم القصيدة للقنديل، أو كالغزلان التى ذهبت للقاء آدم من أجل نوافج المسك وليس من أجل الله تعالى، أمّا مَن عمل هذه الأمور ولم يكن يرجو من ورائها مالاً ولا جاهاً ولا أموراً دنيوية أخرى، بل عمل لله خالصاً فإنّ الله سوف يقدّر له عمله ويجازيه أحسن الجزاء.

فلنعتبر قبل فوات الأوان وقبل أن نكتشف الأمر، ولات حين عبرة، ولنأخذ الدروس من قصص الآخرين. فإذا كان الإنسان بفطرته يدرك أنّ المخلِص هو الحرىّ بالثواب دون غيره كما تبيّن لنا ذلك فى قصّة العالِم الذى كرّم القصّاب بعد وفاته بسبب إخلاصه وأنّ للإخلاص آثاراً وضعية وتكوينية بل تبقى حتى فى أعقاب الشخص إلى يوم القيامة، فليراجع نفسه إذاً وينظر أيقوم بأعماله ودراسته وجهاده لله حقّاً، أم هناك ضمائم يشركها مع الله سبحانه؟ وليعرف أهل العلم خاصّة أنّ بلاءهم أعظم لأنّ الشيطان يستهدفهم أكثر من غيرهم، والمغريات أمامهم قد تكون أكثر يشهد لذلك قلّة المخلصين.

الإخلاص المزيّف وانعكاسه

والإخلاص مرتبة صعبة البلوغ، وبالنسبة إلى أهل العلم أصعب؛ لمعرفتهم بعض الشىء أن يكيّفوا أعمالهم بنحو بحيث يتصوّر مَن يلاحظهم أنّهم مخلصون حقّاً. حتى إذا شعر من يصاحبهم بعد فترة أنّهم كانوا يتصنّعون الإخلاص ولم يكونوا مخلِصين حقاً، سرى فى

نفسه الشك فى المخلصين من أهل العلم كلّهم، مخاطباً نفسه: إنّ هذا الذى عاشرته كلّ هذه المدّة متصوّراً أنّه مخلص تبيّن لى زيفه، فلا بدّ أن يكون الآخرون كذلك.

وهكذا يكون لمن تظاهر من أهل العلم بالإخلاص تأثيراً سيّئاً على المخلصين الحقيقيين من العلماء؛ إذاً من الأسس التى يجب على الإنسان أن يسأل الله التوفيق فيها والاستمرار عليها هى أن تكون أعماله لله حقيقة.

لا ـ بأس أن يدرس الإنسان لكى يكون مرجعاً ينفع الناس أو مبلّغاً أو خطيباً أو عالِماً فى بلدة ما، ولكن ليكن كلّ ذلك لثواب الله وأجره. ومَن كان هذا هدفه لا يهمه ما يقوله فى حقّه زيد أو عمرو، سواء كان سلباً أو إيجاباً. صحيح أنّ التشجيع والتثبيط لهما أثر فى نفس الإنسان، ولكن مَن بلغ درجة الإخلاص لاتؤثّر هذه الأمور فيه كثيراً.

لا ـ ضير فيما لو شجّعنا أحد بشىء. أمّا لو كنّا فقط ننتظر أن يقول لنا الآخرون ذلك من باب الإطراء والاحتفاء، فلنعلم أنّ هذا الأمر الذى أدركته عقولنا القاصرة لا يخفى على الله تعالى، وكلّ شىء عنده بمقدار.

إنّ الشيطان الغوىّ قادر على أن يفرّق بين المخلِص والمخلَص، وعندما يقسم بالله يعرف كيف سيكون العمل مع كلّ منهما. فهو يستثنى المخلَصين من دائرة إغوائه، مركّزاً على من سواهم ابتداءً بالمخلِصين فمن دونهم.

ثم إنّ الله سبحانه يعرف كلّ ذلك ويكيل لنا بنفس المكاييل ويعرّفنا بها حتى تنقطع حجّتنا؟ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ.؟

لننظر إلى أنفسنا، كم يؤثّر فينا التشجيع والتثبيط؟ فإن كان التثبيط يؤثّر فينا مئة فى المئة، فذلك دليل على أنّ الإخلاص غير موجود فينا، حتى ولو بنسبة الواحد فى المئة. وذلك كما لو أردت أن تقوم بعمل مثلاً تأليف كتاب ثم لاحظت أنّ هناك مَن يتكلّم ضدّك فى حضورك أو غيابك ويصفك بالمراء أو كذا وكذا. فإن قلت: لا فائدة فى هذا العمل! أنا أعمل والناس يتكلّمون ضدّى، فلأتركه إذاً! فهذا دليل على أنّه لا ـ وجود للإخلاص فى عملك؛ إلّا إذا كان هناك مصلحة دينية فى ترك العمل، أى كان الترك أيضاً لله وليس بسبب تأثّرك لنفسك.

أو مثلاً: لو لم تكن تفكّر فى القيام بعمل ما ولكن شجّعك الآخرون ورأيت بأنّه توجد رغبة عند الناس فى هذا الأمر، فقمت به من أجل رغبة الناس وليس لأنّ الله أمرك به أو أحبّه، فهذا أيضاً يعنى غياب الإخلاص.

فهذان مثالان على عدم وجود الإخلاص حتى بنسبة واحد فى المئة.

ولكن لو كان العمل لله وكان التشجيع وراء العمل، أو كان الترك لله وكان التثبيط وراء العمل، وكان لكليهما مصلحة دينية، فهذا يعنى وجود الإخلاص.

فعلينا أن نربّى أنفسنا على الإخلاص، ويكون كلّ عملنا لله تعالى، لنكون قد أرغمنا أيضاً أنف الشيطان، فإنّ الإمام عليه الصلاة والسلام يقول: «لابن آدم لمّتان؛ لمّة من الملك ولمّة من الشيطان».

والإمام المعصوم هو خير مَن يعرف الشيطان ولذلك يجتنبه، لكنّا لا ـ نعرفه كما يعرفه الإمام وإلاّ ـ لكان ابتعادنا عنه كابتعاد الإمام. أرأيت كيف يفرّ أحدنا من الظالم أو من الحيوان المفترس؟! إنّ ذلك لمعرفتنا بهما. فلو كنت فى غرفة ليلاً وأردت النوم وقيل لك إنّ فى الغرفة أفعى مختبئة فهل يغمض لك جفن أم تبقى حذراً حتى الصباح؟!

إنّ الشيطان أخطر من الأفعى وهو عدوّنا الذى حذّرنا الله منه، فلنحذره ولا ننخدع به قبل أن يفوتنا الأوان وينتصر علينا لا سمح الله ويسخر منّا ونندم عند ذلك ولا يفيدنا الندم. ورد فى الحديث: «إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يغلب خيره شرّه قبّل الشيطان بين عينيه، وقال: هذا وجه لا يفلح».

لاشكّ أنّه لا يأس من رحمة الله لمَن بلغ الأربعين أو أكثر ولكن التحوّل عند ذلك استثناء؟ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّیَ ؟وفيه صعوبة بالغة.

فالشباب أقدر على أن يسحقوا جبين الشيطان ويرغموا أنفه، فليبادروا قبل أن يتمكّن الشيطان منهم؛ فإنّ الخلاص من ربقته فى المستقبل أصعب. والشيطان يعرف ذلك، ويعرف أنّ الإنسان إذا بلغ الأربعين ضعفت قواه وإرادته على محاربة الشيطان إلّا مَن رحم

الله.

فإذا كان الأمر كذلك فلنبدأ من الآن فی مراجعهٔ أنفسنا کلّ یوم، کلّ فی مجال عمله، ولنزنها قبل أن یصعب الأمر علینا أکثر، وقبل أن تصیبنا الغشاوهٔ التی تکون مانعاً من نفاذ نور الیقین والعلم إلی أعماقنا، لکی نتمکّن أن نمیّز أصلاً ما هو الشیطان، وما هو الإخلاص!

انظروا الآن إلی مدی اهتمامنا بهذا الواقع الذی نعتقد به ونعتقد أنّه أساسی وأنّ کلّ الأمور الأخری مبتیّهٔ علیه.

إذاً علینا نحن طلبهٔ العلم أن ننتبه إلی خطر عدم الإخلاص فی أوساطنا أکثر من غیرنا؛ لأنّ عدم إخلاصنا سیکون له والعیاذ بالله أسوأ الآثار، وربّما تبقی علی مرّ التاریخ، ویسلک الطریق المعوّج کثیرون بسببنا نحن، أو نتیجهٔ لما استنبطوه من سلوکنا؛ ولهذا یجب علینا الاهتمام بموضوع الإخلاص أکثر من غیرنا.

هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإنّ الشیطان ینشط فی أوساط المتدیّنین أکثر، ویدلّیهم علی الطرق التی یمکن أن یظهروا فیها بصورهٔ المخلِصین وإن کانوا لیسوا کذلک.

نعوذ بالله من الشیطان ونسأل الله التوفیق لأن یجعلنا من المخلصین إن شاء الله تعالی.

(۱۷) ثمن الجنهٔ

(۱۷) ثمن الجنهٔ

عن الإمام جعفر بن محمد الصادق علیه السلام: «ثلاث من أتی الله بواحدهٔ منهنّ أوجب الله له الجنّهٔ: الإنفاق من إقتار، والبِشر لجمیع العالَم، والإنصاف من نفسه».

الحدیث یقول أنّ مَن کانت فیه واحدهٔ من هذه الصفات وبها خُتمت حیاته فهو یستحقّ الجنّهٔ، وهذا لا یعنی أن یکون الشخص مستحقّاً للنار ومع ذلک یجعله الله من أهل الجنّهٔ، بل یعنی أنّ مَن توجد فیه هذه الصفات أو واحدهٔ منها فإنّه یکون مؤهّلاً للجنّهٔ.

إنّ أعمال الإنسان وتصرّفاته إنّما تنبعث عن نفسه؛ فالأعمال الصالحهٔ والخصال الحمیدهٔ تصدر عن نفسٍ قد ملکَ صاحبها زمامها کنفوس المعصومین علیهم الصلاهٔ والسلام وأولیاء الله تعالی، کما أنّ المعاصی لا تصدر إلّا عن نفس غیر مسیطَر علیها. ومن الطبیعی أنّ مثل هذا الإنسان لا یتمکّن من الاتّصاف بالصفات التی من شأنها أن تورده الجنّهٔ. أمّا الإنسان المالک لزمام نفسه فسینتقل من خیر إلی خیر حتی یکون من أهل الجنّهٔ. وهذه الخصال التی ذکرها الإمام علیه السلام لا تتوافر إلّا عند ذوی النفوس العالیهٔ.

الخصلهٔ الأولی: الإنفاق من إقتار

عن مروان بن أبی حفصهٔ قال: «کان المنصور قد طلب معن بن زائدهٔ الشیبانی طلباً شدیداً وجعل لمن یأتی به مالاً، فحدّثنی معن بالیمن أنّه اضطرّ لشدّهٔ الطلب إلی أن نام فی الشمس حتی لوّحت وجهه، وخفّف عارضیه، ولبس جبّهٔ صوف غلیظهٔ ورکب جملاً من الجمال الثقالهٔ، وخرج علیه لیمضی إلی البادیهٔ، وکان قد أبلی فی حرب یزید بن عمرو بن هبیرهٔ بلاءً حسناً، فخاف فاغتاظ المنصور وجدّ فی طلبه.

قال معن: فلما خرجتُ من باب حرب تبعنی عبد أسود متقلّداً سیفاً حتّی إذا غبتُ عن الحرس قبض علی خطام الجمل فأناخه وقبض علیّ.

فقلت: ما لک؟

قال: طلبهٔ أمیر المؤمنین.

قلت: ومَن أنا حتی یطلبنی أمیر المؤمنین؟

قال: أنت معن بن زائدة.

فقلت: يا هذا اتّق الله، وأين أنا من معن؟

قال: دع هذا عنك، فأنا والله، أعرَف بك منك.

فقلت: فإن كانت القصّة كما تقول، فهذا جوهر حملته معى بأضعاف ما بذله المنصور لمن جاء بى، فخذه ولا تسفك دمى.

فقال: هاته. فأخرجته إليه فنظر إليه ساعة وقال: صدقت فى قيمته، ولستُ قابله حتى أسألك عن شىء، فإن صدّقتنى أطلقتك.

فقلت: قل.

فقال: إنّ الناس يصفونك بالجود، فأخبرنى هل وهبتَ قطّ مالَك كلَّه؟

قلت: لا.

قال: فنصفه؟

قلت: لا.

قال: فثلثه؟ حتى بلغ إلى عشره. فاستحيت وقلت: أظنّ أنى فعلت هذا.

فقال: ما أراك فعلته، وأنا والله راجل ورزقى من أبى جعفر عشرون درهماً، وهذا الجوهر قيمته ألف دينار وقد وهبته لك، ووهبتك لنفسك وجودك المأثور بين الناس، لتعلم أنّ فى الدنيا من هو أجود منك، فلا تُعجبك نفسك، ولتحتقر بعد هذا كلّ شىء فعلته، ولا تتوقّف عن مكرمة.

ثم رمى بالجوهر فى حجرى وخلّى خطام البعير وانصرف.

فقلت: خذ ما وهبته إليك فإنّى عنه غنىّ.

فضحك وقال: أردتَ أن تكذّبنى فى مقالى هذا، والله لا آخذه ولا آخذ للمعروف ثمناً أبداً!

ومضى. فوالله، لقد طلبته بعد أن أمنت وبذلت لمن جاءنى به ما شاء، فما عرفت له خبراً وكأنّ الأرض ابتلعته».

فمَن كان يحمل بين جوانحه نفساً كنفس هذا الرجل فهو مُرشَّح لأن يتحوّل ويكون إنساناً صالحاً.

الإنفاق من إقتار أفضل من الإيثار

إن الإنفاق من إقتار أعلى درجة من الإيثار، ومثاله الإنفاق الذى قام به الإمام أمير المؤمنين والسيدة الزهراء وابناهما عليهم السلام حين قدّموا إفطارهم إلى المسكين واليتيم والأسير ثلاث ليالٍ متواليات وبقوا جائعين. أمّا الإيثار فقد لا يكون مع شدّة حاجة المؤثر إلى ما يؤثر به غيره، ومثاله أن يؤثر المرء بعباءة لا يملك غيرها ولكنه قد لا يحتاجها الآن أو أنّه يستطيع شراء غيرها، أمّا الإنفاق من إقتار فهو كما لو أنفق المرء عباءته مع أنّه لا يملك غيرها ولا يستطيع شراء غيرها، وحاجته فعليّة وشديدة إليها، كما لو كان الفصل شتاءً وهو يدفع بها البرد عن نفسه.

الخصلة الثانية: البِشر لجميع العالم

ومعناه أن يكون الإنسان طلق الوجه مع كلّ مَن يلقاه، سواء كان قريباً أوبعيداً، مسلماً أو كافراً، تربطه به علاقة ما أو لا تربطه. وهذا أيضاً أمرٌ صعب جداً. ولو قرّر أحد أن يجرّب هذا الأمر لَلمسَ صعوبته. فأنّى للمرء أن لا يضجر ولا يتبرّم ولا تظهر عليه آثار الاستياء مع أنّ فى مجتمعه وبيئته الأذواق المختلفة والسلوكيات المتباينة، ناهيك عن الأحقاد والعداوات والمشاحنات والمشاكسات، فهذا يحسدك، وذاك يعاديك، والآخر لا يتّفق مع ذوقك فى الطعام والشراب أو الدرس أو غير ذلك. فربّما ظهرت من صديق فلتة لا ينساها من كانت بحقّه ولو مضى عليها خمسون سنة، بل سيظلّ يتألّم منها كلّما تذكّرها.. فما أعظم الشخص الذى ينكر نفسه ويقاومها

رغم كلّ ذلک ويظلّ منطلق الوجه مع الكَلّ.

إنّ الضحک بصوت عالٍ، أو القهقهة مكروه خلافاً للتبسّم، لذلک عبّر عليه السلام بالبشر ليميّز به التبسّم عن الضحک.

والأمر يعود إلى نفس الإنسان وإمكانية السيطرة عليها فى مواجهة كلّ الحالات بصدر رحب ووجه طلق وبِشر وبشاشة؛ فإنّ ضبط النفس يحتاج إلى همّة عالية وتمرين ورياضة مستمرّين.

الاستقامة شرط أساسى

•كان أحد العلماء يذكر عن نفسه أنّه كان زميلاً لأحد المراجع المعروفين، وقد قطعا معاً جميع الأشواط الدراسية والعلمية، وأنّه لا يقلّ ذكاءً وعلمية عنه، ولكن عيبه الوحيد الذى حال دون بلوغه مقام زميله هو أنّه كان ينطوى على طبيعة ساخرة لا يستطيع معها أن يضبط نفسه فيما إذا رأى أدنى ما يثير انتباهه، بل كان يسخر ويستهزئ بكلّ مَن يلقاه.

يقول الرجل: آلمنى وضعى ذات مرّة فقرّرت مع نفسى أن أضع حدّاً لحالتى هذه التى جعلتنى متأخّراً، فيما تقدّم غيرى. فعزمت على أن لا أُظهِر استهزاءً أو سخرية بعد اليوم لأحدٍ، وبالفعل واجهتنى بعد ذلک عدّة حالات، فضبطت نفسى إزاءها واستطعت بمشقّة بالغة تجاوزها الواحدة تلو الأخرى، ولكنى بعد فترة وجدت أن نفسى فى ضيق شديد، فقلت: لا جدوى من صلاحها بعد الآن فلأنطلق وأدعها على سجيّتها تاركاً لها العنان لما تشتهى، وفعلاً تمّ لها ما أرادت، وعدتُ إلى شخصيتى السابقة. وها أنا اليوم لم أجد إلّا التكسّب من صلاة الاستئجار التى أقبض ثمنها من ذلک المرجع الذى كان زميلى فى الدراسة.

وهذا إن دلّ على شىء فإنّما يدلّ على أنّ السيطرة على النفس أمر صعب إلّا أنّه وفى الوقت نفسه لاينبغى التراجع عن ترويضها.

•كانت الوالدة رحمها الله توصينا دائماً بأن نبتلع الكلمة على حدّ تعبيرها سبع مرّات قبل أن ننطق بها، أى لا نستعجل فى إطلاقها بل نفكّر فيها سبع مرّات لئلا نندم بعد ذلک. وهذه الوصيّة إنّما تعبّر عن حكمة استُلهمت من حكم الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام: «لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه». أى أنّ العاقل يفكّر أوّلاً ثم يتكلّم. أمّا الأحمق فيتكلّم ثم يفكّر فى الكلمة التى قالها وفى أضرارها، وفوائدها، ولماذا قالها؟ أمّا العاقل فلا يعرّض نفسه للاستجواب بعد صدور القول منه، لأنّه فكّر فى الأمر قبل ذلک عدّة مرّات.

•لا شکّ أنّ مَن يفكّر فى عواقب أموره عدّة مرّات يتمكّن من إتقان مقدّماتها ولا يخطئ فيها غالباً. كما أنّ مَن يكرّر مطلباً يتقنه ويتفوّق فيه.

يقول الشهيد الثانى فيما يوصى به طالب العلم فى حفظه لدرسه: «ثم يحفظه حفظاً محكماً، ثم يكرّره بعد حفظه تكراراً جيداً، ثم يتعاهده فى أوقات يقرّرها لمواظبته، ليرسخ رسوخاً متأكّداً، ويراعيه بحيث لا يزال محفوظاً جيّداً».

وهكذا الحال بالنسبة لتعويد النفس على الخصال الحسنة كما فى البِشر مع كلّ العالَم؛ فإنّ للناس أذواقاً مختلفة، وقد يواجه المرء يومياً عشرات الأشخاص والحالات، فربّما يتألّم من بعضهم، ولكى يحافظ على خصلة البشر مع الناس ينبغى له أن يضغط على نفسه لكى لا يظهر التأثّر على وجهه وسلوكه، فإن نجح فى تكييف حياته بهذه الصورة فهذا معناه أنّه مسيطر على نفسه.

•قال أحد العلماء: إنّ أحد أساتذتى كان يتبرّم بسرعة وربّما أغلظ مع الطلّاب. فناقشته يوماً فى مسألة وبقيت ألفّ معه وأدور، وكلّما أجابنى رددت عليه وناقشته حتى تأثّر كثيراً، فضربنى بقوّة على صدرى بظهر كفّه ضربة بقيت أعانى منها لمدّة ثلاثة أيام حتى أنّنى استعملت اللصقة الطبّية من شدّة الألم.

يبدو أنّ الأستاذ لم يملک نفسه فتصرّف هكذا، مع أنّ النقاش المثمر هو الطريق الأمثل لتنمية الطلّاب علمياً، ولا ينبغى للأستاذ أن يتصرّف بغير الكياسة وسعة الصدر. ربّما يتألّم الأستاذ من تلميذه لأنّه لم يفهم الدرس بسرعة أو لأنّه فهمه ولكنّه يراه مشاكساً، ولكن تبقى النقطة المهمّة فى الأمر هى أن يسيطر الإنسان على نفسه ويتمالک أعصابه، ويلقى الجميعَ بالبِشر ورحابة الصدر.

المؤمن هشّ بشّ

ورد في الأثر أنّ: «المؤمن هشّ بشّ». فالمؤمن ينبغي أن يكون بشّ الوجه والمحيّا وإن كان متألّماً، وهذا يتطلّب إرادة قويّة ونفساً متربيّة، لأنّ النفس بطبيعتها لا تترك الإنسان هكذا، بل تدعوه للعبوس في وجه الآخرين بسبب أزمات الحياة والحالات المختلفة التي لا ترتاح لها إلّا إذا كان الإنسان مؤمناً كما وصفه أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: «حزنه في قلبه وبشره في وجهه».

ولا عجب إن كان التحلّي بهذه الخصال أمراً صعباً لأنّها ثمن الجنّة، والجنّة لا تثمّن، فاللحظة الواحدة فيها لا يعدلها ملايين ولا المليارات من كنوز الدنيا؛ خصوصاً بعد اقترانها بالخلود.

فالحديث الذي صدّرنا به الكلام وهو أنّ صاحب النفس التي تتمتع بإحدى الخصال التي ذكرها الإمام عليه السلام يستوجب الجنّة، وقلنا إنّ ذلك بحاجة إلى تمرين وترويض مستمرّين للنفس، وأضيف: إنّ مَن تحلّى بإحدى هذه الخصال جاءته البقية تباعاً؛ لأنّها صفات متلازمة.

الخصلة الثالثة: إنصاف الناس من النفس

يجدر بالمؤمن فيما لو اكتشف أنّ الحقّ ليس معه بل مع مقابله سواء كان أستاذه أو تلميذه أو صديقه أو قريبه أو زميله أو أيّ شخص آخر يتعامل معه أن يقرّ له ويتراجع، وهذه الخصلة لا يمكن أن تكون إلّا في نفس خاضعة للإيمان وللعقل.

يقول الله تعالى في وصف النفس الخاضعة لغير الحقّ؟: وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ، ?وقد يكون هذا حال معظم الناس إلّا مَن روّض نفسه على خلاف أهوائها وغرائزها. فلو قيل للمؤمن؟ اتّق الله ?فإنّه سيشعر بذلّ المعصية، أمّا إذا لم يكن الشخص مؤمناً حقّاً أخذته العزة بالإثم وكابر.

كنت في بعض الأيّام أتمشّى مع أحد الإخوان، في مكانٍ، فرأينا شخصاً يسبّ الله والعياذ بالله فنهره ذلك الأخ وردعه. ولكنّ ذلك الشخص التفت إلينا قائلاً: أنا أشعر وأعني ما أقول ولست جاهلاً أو غافلاً! وهكذا أخذته العزّة بالإثم.

من النادر أن تلقى أحداً يتقبّل النصيحة من أعماقه ولا أعني بالنصيحة الموعظة العامّة كالحديث الذي يلقيه الخطيب أو المحاضر، بل المقصود بها النصيحة المباشرة في موقعها المناسب وإن كانت بالأسلوب الصحيح وباللطف واللين فإنّ النفوس في الغالب لا تخضع للحقّ ولا تذعن له وإن لم يكن موقفها صحيحاً، بل كلٌّ يحاول أن يُظهِر لنفسه وللآخرين أنّ موقفه كان صحيحاً وأنّه لم يكن جاهلاً بحقيقة الأمر.

وهذه الخصلة كالخصلتين السابقتين تماماً، وهي كلّها أمامكم وبأيديكم. وبإمكانكم أن تجرّبوا أنفسكم فيها لتروا بأُمّ أعينكم إن كانت سهلة أم صعبة، وإن كانت النفوس مختلفة فيما بينها إزاء كلّ من هذه الخصال حسب المحيط والتربية والأجواء التي عاشتها والمراحل التي قطعتها، إلّا أنّه تبقى الصعوبة موجودة عند كلّ النفوس ولكن بدرجات مختلفة، فبعضها أصعب لدى بعض وبعضها أقلّ صعوبة وهكذا.

مزيداً من التفكير في الجنّة

نحن طلّاب العلوم الدينية حريّ بنا أكثر من غيرنا أن نفكّر في الجنّة والشوق لنيلها؛ ذلك لأنّ المفترض أنّ سبب توجّهنا إلى هذا السبيل هو طلب رضى الله سبحانه وتعالى، وبسبب زيادة معرفتنا عموماً بهذه الأمور.

فينبغي لطالب العلم أن يفكّر أكثر من غيره في الجنّة، وليُعن نفسه في الثبات على ما أخلص فيه، فهو أَولى من الجميع بذلك؛ لأنه ترك الدنيا وإن كانت مقبلة عليه من أجل الله سبحانه.

ولا ـ شكّ أنّ كثيراً منا لو لم يكن من طلاّب العلوم الدينية لكان وضعه المالى والاقتصادى أحسن. إذاً مادمنا قد تخلّينا عن الدنيا وبعناها ولو إلى حدّ ما فلنركّز قليلاً ـ ونهتمّ ليكون المثمن هو الجنّة؛ فإنّ الله تعالى قد خلق الجنّة للمؤمنين المخلَصين والخيّرين المخلِصين، وأنتم الطلبة قد قطعتم مسافةً باختياركم، فأكملوا الطريق. وكما تحملتم عناء الابتداء فتحمّلوا لتكملوا المسيرة.

فلنجرّب من الآن ولنبدأ بأسهل الخصال ثم نرتقى، فنبدأ بالبِشر للعالم، فهو أسهل نسبياً من الإنفاق عن إقتار، ومن إنصاف الناس.

وأكرّر أنّ ذلك لا ـ يعنى الضحك دائماً؛ فإنّ الله تعالى قد ذمّ الضحك بقوله عزّ من قائل?: فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا. ?بل المقصود بشر الوجه بحيث لو رآه المهموم زالت همومه؛ علماً أنّ هذا التصرّف يؤثّر فى الناس أكثر من القول. فقد تحاول أن تزيح الهمّ عن صدر أخيك من خلال كلامك معه لمدّة نصف ساعة أو أكثر ولا ترى استجابة، بينما يمكن أن يكون لمقابلتك الطيّبة معه ولقائك إيّاه بالبِشر الأثر فى تحسّن حالته، مع أنّ هذا الموقف قد لا يستغرق دقيقة واحدة، ولهذا ورد فى الحديث عن الصادق عليه السلام: «كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم».

فلنجرّب أن نكون منبسطى الوجوه مع مَن نلقى، ولا ـ نيأس؛ فإنّه وإن كان أمراً صعباً فى الجملة إلا ـ أنّه ممكن التحقق بالممارسة والمواظبة.

•كان اثنان من أقربائنا بينهما مشكلة، فذهب إليهما قريب لهما توفّى هو الآخر ونصحهما بطريقة لطيفة، فقال: إنّكما لا ينقصكما شىء إلاّ ـ إزالة التخاصم الموجود بينكما، فأنتما بحمد الله مسلمان مواليان لأهل البيت سلام الله عليهم ومن المصلّين الصائمين القارئين للقرآن والعاملين للخيرات والعارفين لأحكام الدين، فلماذا تحتفظان ب «بعرة الفأر» هذه فى صحيفة أعمالكما؟!

وأنتم طلاب العلوم الدينية الذين تركتم فى الغالب معظم اللذات الدنيوية من أجل الله سبحانه، لماذا لا تكملون صحيفة أعمالكم بجعلها خالصة كلّها لله تعالى؟ فما على المرء إلاّ أن يحاول ويبدأ، والله تعالى هو الذى يعينه شيئاً فشيئاً حتى يبلغ المقصود.

أمّا الصعوبة فى ذلك فشىء طبيعى ويحتاج إلى تمرين وممارسة واستمرار واستعانة بالله تعالى.

(۱۸) حبّ الذمّ وكراهة المدح

(۱۸) حبّ الذمّ وكراهة المدح

روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «ويل للصائم وويلٌ للقائم وويل لصاحب الصوف إلاّ من». ... ويظهر من الرواية أنّه صلى الله عليه وآله سكت هنا، فقيل: يا رسول الله إلاّ من؟ فقال: «إلاّ من تنزّهت نفسه عن الدنيا وأبغض المدحة واستحبّ المذمّة».

يستفاد من هذا الحديث الشريف وأحاديث أخرى أيضاً أنّ من أسس تربية الإنسان لنفسه أن يكون بحيث لا يتأثّر ويتغيّر بمدح أو ذمّ فضلًا عن ظهور آثارهما على أعماله وأفعاله.

إنّ الإنسان بطبعه الأوّلى يحبّ المدح ويكره الذمّ، ولكى يصل إلى مرحلة يبغض فيها المدح ويحبّ الذمّ يحتاج إلى ملكة لا يمكن تحصيلها إلاّ بعد أن ينزّه نفسه عن الدنيا وملذّاتها.

ربّما يكون تحصيل هذه الملكة أصعب من الحصول على ملكة العدالة، ولكنّ الآثار المترتّبة على هذه الملكة هى الأخرى أكثر من الآثار المترتّبة على ملكة العدالة.

وليس المقصود ممّا ورد فى هذا الحديث بغض المدحة لأنها مدحة، ولا حبّ المذمّة لأنّها مذمّة، بل لأنّ المدح والثناء يقلّلان من قيمة الإنسان غالباً إذا عمل لأجلهما؛ إمّا بخيلاء أو تفاخر أو تكبّر أو غير ذلك، بينما المذمّة على العكس؛ فهى مدعاة لأن تحثّ الإنسان على تصحيح أحواله وأفعاله.

وبعبارة أخرى: ينبغى للإنسان أن يبغض المدح لأنّ الآثار المترتّبة عليه تضرّه، وكذا الحال بالنسبة لحبّ المذمّة، فهو يحبّها لا لكونها

حسنة وإنّما لأنّه إذا ما ذُمّ فإنّه سيلتفت غالباً إلى عيوبه ويسعى لتصحيحها، فتكون نتيجة الذمّ لصالحه.

لكى يصل الإنسان إلى مرحلة بغض المدحة وحبّ المذمّة، يحتاج إلى جهدٍ كبير فى المراقبة والتركيز، وإذا وفّق إلى تحصيل هذه الملكة سيكون من أعظم الناس راحة، بل حتّى الذين لم يصلوا إلى هذه الملكة سيشعرون بأنّه أكثر منهم راحة واستقراراً.

وفى خبر عن النبى صلى الله عليه وآله أيضاً أنّه قال: «إنّما هلك الناس باتّباع الهوى وحبّ الثناء» لأنّ حبّ الثناء ربّما يهلك الإنسان، وكلّما زاد مدح الإنسان تعرّض للمحرّمات أكثر، إلاّ من ربّى نفسه.

بغض المدح رأس التواضع

روى عن النبى صلى الله عليه وآله أنّه قال: «رأس التواضع أن تكره أن تُذكر بالبرّ والتقوى».

فمن الجدير بالإنسان وإن كان برّاً أن يكره أن يقال عنه أنّه برّ؛ لأنّ مدح الناس للبرّ لا يزيد فى الأمر شيئاً إن لم يفسد؛ لذلك ترى البرّ الحقيقى يكره أن يقال عنه بَرّ، وهذا يعدّ قمّةً فى التواضع الذى هو من قمم الأخلاق.

قد تكون للمدح آثار سيّئة ربما تترتّب عليه، فالإنسان الكاره للمدح يتصوّر نفسه كمن يرى ثقباً فى جدار بيت قديم مشرف على السقوط فلا يُدخل يده فيه خشية أن تكون ثمة حشرة مؤذية أو أفعى سامّة أو غيرهما.

فمن طبيعة الإنسان أنه إذا احتمل المضرّة يفرّ، وليست المضرّة فى المدح مجرد احتمال وإنّما هى غالبة، إلاّ إذا ربّى الإنسان نفسه تربية حسنة وحاز على ملكة تحصّنه من آثارها السيّئة.

الآثار السيّئة للمدح

روى عن النبى صلى الله عليه وآله أنّه قال لرجل أثنى على آخر بحضرته: «لو كان صاحبك حاضراً فرضى بالذى قلت فمات على ذلك، دخل النار».

فما أكثر ضرر المدح بالإنسان إذاً؟ لربما كان المدح كذباً فتترتّب على الرضا به آثار تسوق الممدوح إلى النار. ويشهد لذلك أنّ بعض النوايا تقود الإنسان إلى النار؛ روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّما خلد أهل النار فى النار لأن نيّاتهم فى الدنيا أن لو خلدوا فيها أن يعصوا الله أبداً».

قد لا يكون المدح بنفسه موجباً لدخول النار، إلاّ أنّه يفتح باباً يجرّ إلى جهنّم؛ ومن هنا حسن بغض المدحة وحبّ المذمّة.

ولو قيل لإنسان فقير: كلّما مُدحت نأخذ منك ديناراً، وكلّما ذُممت نعطيك ديناراً، أفتراه بعد ذلك يحبّ المدح أم الذمّ؟

بالطبع سيحبّ الذمّ لأنّه لو ذُمّ فى كلّ يوم عشر مرّات فسيحصل على عشرة دنانير بينما إذا مُدح عشر مرّات أُخذ منه عشرة دنانير. وهكذا يكون حال الإنسان المؤمن؛ لعلمه بأنّه سيثاب على حبّه للذمّ وبغضه للمدح.

فعندما يقارن الإنسان الأمور المعنوية بالأمور الماديّة تتجلّى له تلك الحقائق بكلّ وضوح، وبقدر ما يفرح الإنسان المحتاج للدينار بحصوله على عشرة دنانير عندما يُذمّ فى اليوم عشر مرّات، فكذلك يكثر فرحه فى المعنويات. وبالتأكيد إنّ الفوز بالجنّة أفضل من الدنيا وما فيها مهما طالت أيّامها وكثر متاعها، فهى لا تعدّ شيئاً مقابل خلود الآخرة وعظيم نعمها? فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ.?

حقيقة التأثر وعدمه

لا ـ يخفى أنّ عدم تأثّر الإنسان بالمدح أو الذمّ لا يعنى سلب شعوره بمرارة الذمّ أو حلاوة المدح، بقدر ما يعنى أن يجعل غضبه وسروره تحت إرادة عقله؛ فقد روى عن النبى صلى الله عليه وآله أنّه قال: «أشدّكم من ملك نفسه عند الغضب».

فالإنسان إذا ذُمّ أو شُتم يتأذّى، وقد يغضب ولكن عليه أن لا يتعامل مع غضبه بصورة سلبية. وقد دلّت الروايات على ذلك فضلاً عن سيرة أهل البيت عليهم السلام.

يروى أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لما أدرك عمرو بن عبد ود، لم يضربه! فوقعوا فى علىّ عليه السلام، فردّ عنه حذيفة، فقال النبىّ صلى الله عليه وآله: مه يا حذيفة، فإنّ علياً سيذكر سبب وقفته. ثمّ إنّه ضربه، فلمّا جاء سأله النبى صلى الله عليه وآله عن ذلك. فقال: قد كان شتم أمّى، وتفل فى وجهى، فخشيت أن أضربه لحظّ نفسى، فتركته حتى سكن ما بى ثمّ قتلته فى الله.

إنّ المدح والذمّ إمّا أن يكونا صادقين فيوقفان الإنسان على حقيقة أمره، أو يكونا كاذبين فيطلعانه على انطباع المجتمع عنه. فكراهة المدح الكاذب تزيده معرفة وتعينه على هداية الناس وموعظتهم، ومحبة الذمّ الصادق تزيده معونة فى تغيير سلوكه نحو الأفضل لكى يتعامل بصدق مع المجتمع، فيوفَّق لموعظتهم وإرشادهم؛ فإنّ الأخلاق الفردية الصالحة لها تأثير قوىّ على هداية الناس.

وإذا روّض الإنسان نفسه بالرياضات الشرعيّة، عن علمٍ ودراية، وضمّ إليها الدعاء والاستعانة بالله سبحانه، فإنّه يوفّق حتماً.

التخبّط فى الشبهات

ذُكر فى أحوال البسطامى الذى عدّه المتصوّفة صوفياً، واعتبره العرفاء عارفاً أنّه قال: دعوتُ نفسى إلى طاعة الله، فلم تجبنى، فمنعتها الماء سنة.

السؤال الذى يُطرح فى المقام: هل هذه الرياضة يقبلها الشرع؟

ألا ينبغى للإنسان أن يكون متشرّعاً فى تحصيل المقدّمات التى توصل إلى النتائج ولا يقتصر على النتائج فقط؟

حتى العرف يقرّ ذلك، فعندما يدعو الإنسان ضيفاً إلى داره، ويحبّ مجيئه، فهذا لا يعنى أنّه يرضى بأن يدخل داره من أىّ مكان، كما لو يتسلّق الجدار ويدخل عليه، وإنّما يريد مجيئه عن طريق خاصّ وهو الباب.

وكما يكره الإنسان قدوم الضيف إذا تسلّق عليه داره بغتة، كذلك الشرع، الذى جعل لكلّ شىء حكماً.

ومع كثرة الأحاديث والروايات التى بين أيدينا، فهل من مسوّغ لأن نلجأ إلى طرق لا يُعلم مدى صحّتها من بطلانها؟ ثم ما الداعى لأن يخترع الإنسان طرقاً لرياضة النفس مع وجود الطرق الشرعيّة؟! هذا إن لم نقل بحرمة أو كراهة بعض هذه الطرق المخترعة.

وعلى أىّ حال: إنّ ترويض النفس بهذه الصفة (كراهة المدح وحبّ الذّم) يستغرق زمناً طويلاً، إلاّ إذا حظى الإنسان بهمّة عالية.

كما أنّ أهل البيت عليهم السلام تصدّوا فى أحاديثهم وسيرتهم إلى بيان طرق تربية النفس، وإنّ آثارهم سلام الله عليهم موجودة بين أيدينا، فلا حاجة لأن نسلك معها سُبلاً مخترعة قد تقود المرء إلى المكروهات فالمحرّمات.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفّقنا للسير على خطى أهل البيت عليهم الصلاة والسلام، وصلّى الله على محمد وآله الطاهرين.

(۱۹) النظر إلى ملكوت الله

(۱۹) النظر إلى ملكوت الله

إنّ التخلّى عن الرذائل طريق إلى التحلّى بالفضائل، والتحلّى بالفضائل طريق إلى الإمدادات والفيوضات الإلهية.

قد يحمل الإنسان نفسه قسراً على تقمّص الفضائل، لكنّه فى الوقت نفسه تجده قد احتوشته الرذائل، حتى لا تجد تلكم الفضائل لها مكاناً فى القلب إلا لوقت محدود وسرعان ما تزول.

يقول علماء الأخلاق: إنّ على الإنسان أن يصلح نفسه أوّلاً ـ باقتلاع جذور السيئات والرذائل المتعلّقة بقلبه لتحلّ بعد ذلك محلّها الحسنات والصالحات.

وهنـاک العديـد من الأحـاديث التی تشـير إلی هـذا المعنی إجمالاًـ؛ منهـا مـا روی عن رسول الله صـلی الله عليه وآله أنّه قال: «لولا أنّ الشياطين يحومون حول قلب ابن آدم، لنظر الی الملکوت».

حام: أی دار و طاف، والملکوت کما جاء فی التفاسـير المعتبرة يعنی الأمور الماورائيّة والأشياء التی لا تُدرَک بالحواسّ العامّة کالسمع والبصـر و ... فالإنسان لا يری الملائکة مثلاً ولا يسمع أصواتها، کما لا يری کلّ آثار رضی الله وغضبه، شأنه فی ذلک شأن عجزه عن الإحساس بحـدوث مقـدّمات الزلزلـة قبل وقوعها، فی حين إنّ الله تعالی قـد زوّد بعض الحيوانات قابليـة الإحساس بقرب وقوع الزلزلة، بحيث تراها تصـرخ قبل وقوعها، وتسـعی لمغادرة المکان، بل لعلّها تهجره قبل يوم أو يومين من حـدوث الزلزال، فهی إذاً تدرک أمراً يعجز الإنسان رغم فکره وعقله عن توقّعه أو تحسّسه.

فمن کانت الشيـاطين تحوم حول قلبه لتغمره بالأمراض الروحيّة والمساوئ النفسـية، يعجز عن النظر إلی ملکوت السماوات والأرض، و عن معرفة الحکمة، ولا يعی أهميّة العقل والفضيلة، وبالتالی ينجرّ إلی حيث تسوقه شياطينه المحيطة بقلبه.

القلب أوّلاً

لکـلّ شـیء فی الحيـاة آثـار يـدرکها الإنسان إذا توفّر شـرط الإيمان وشـرط العلم، فالنظر مثلاً إلی ملکوت السـماوات والأرض، ليس بحاجة إلی معجزة ليتحقّق، بل أمره متوقّف علی توفّر جملة من العوامل، فی مقدّمتها إصلاح القلب.

ومثَل الناظر إلی ملکوت السـماوات والأرض مثل المهنـدس المعماریّ الـذی يحدّد عمر هذه البناية أو تلک من أوّل نظرة إليها، ومثل الطبيب الحـاذق الـذی يسـتطيع تشـخيص المرض بمجرّد أن يلقی نظرة علی المريض؛ لمـا يراه من آثـار فی وجهه وغير ذلـک، ومثل الخبير فی علم اللغة والخطابة الذی يستطيع معرفة الخطيب المفوّه من أوّل جملة يتفوّه بها هذا الخطيب أو ذاک.

إذا فمـا حـازه أولئـک من علوم وفنون حتی صاروا يعرفون ضـمن إطار تخصصـهم، إنّما حصل بفعل إعمالهم العقل والعنايـة، فهکـذا الحـال لمن يريـد الوصول إلی معرفـة الملکوت يجب عليه إعمال القلب وتهيئته للتوسّم بآيات الله؛ قال سـبحانه وتعالی?: إِنَّ فِی ذَلِکَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ.?

ومن هـذا الحـديث الشـريف وأمثاله قال علماء النفس والأخلاق أنّ علی الإنسان لکی ينظر إلی الملکوت أن يصـلح قلبه أوّلاً، وذلک عبر انتزاع الرذائل منه، ثمّ بعد ذلک يحاول زرع الفضائل مکانها.

وهذا يلزم قلع جذور السوء من قلبه أوّلاً، فإن اسـتطاع، فبمقدار ما اسـتطاع وبنفس النسبة يکون تسديد الله سبحانه، إليه وشمول رحمته له.

روی عـن الإمـام أمير المـؤمنين عليـه السـلام قـوله: «إنّ مـن أحبّ عبـاد الله إليه، عبـداً أعـانه الله علی نفسه، فاستشـعر الحزن، وتجلبب الخوف، فزهر مصباح الهدی فی قلبه».

و(فاء) التفريع المتکرّرة فی هذا الحديث تدلّ علی ترتّبٍ يکون فی مقام حصول النور فی القلب. فابتداءً لابدّ من عزيمة وإرادة حقيقية ليتمکّن الإنسان من السيطرة علی شهواته وأهوائه.

وممّـا ينبغی الإشـارة إليه أنّ الحواسّ الظـاهرة أسـهل فی الامتلاک من القلب. فلعلّ من السـهل علی الفرد أن يحاول امتلاک لسانه إذا تعرّض للسبّ والإهانة، أو أن يسـيطر علی يده إذا تعرّض للضـرب، فيشبک أصابعه لئلاّ ينفلت منه زمامها ولکن من الصعب أن يملک المرء قلبه. فالجبان مثلاً حتی إذا خاض بجسـمه فی الأمر المهول، إلاّ أنّه يعجز عن امتلاک قلبه وأن يتحکَّم بـدقّات القلب فيحول دون اشتدادها.

فامتلاک الجوارح أسهل علی الإنسان بکثير من امتلاکه قلبه وباطنه، لاسيّما فی اللحظات الحرجة والحسّاسة، کلحظات الغضب والطمع والحسد. وهذه حالة موجودة فی القلب ولکن إذا غذّاها الإنسان اشتدّت وزادت، أما إذا أنّبها وحاول إزالتها تقلّ الحالة وتضعف.

وما ورد فی هذه الروایهٔ من قوله علیه السلام: «فاستشعر الحزن» یفید أنّ الحزن لا یکون إلّا من النفس؛ فیصیب قلب الإنسان فتور فی الانقباض والانبساط فتظهر آثاره علی البدن والوجه، والمراد هنا الحزن علی ما فرّط وارتکب من الذنوب وعلی ما قد ینتظره من مستقبل غیر معلوم من هذه الجهات. لذا فإنّ من أعانه الله علی نفسه لابدّ أن یکون کثیر التأکید والترکیز علی نقاط الضعف الکثیرهٔ والمتأصّلهٔ فی قلبه والتی عادهٔ ما یکون استسلام الإنسان لشهواته مسبّباً عنها.

آثار حزن القلب

ثمّ إن استشعار الحزن یتبعه تجلبب الخوف واتّخاذه لباساً، أی یکون الخوف بادیاً علیه کلّه، ولذلک فإنّک لا ـ تری المؤمن یمتلئ ضحکاً کما فی بعض الأحادیث وإذا ضحک لم یتعمّق فی الضحک، لأنّه یعرف ویدرک مَن الناظر إلیه، وما الذی یمکن أن ینتظره إن زاغ قلبه عن الجادّهٔ. قال رسول الله صلی الله علیه وآله: «کثرهٔ الضحک تمحو الإیمان». ولذلک، فالمؤمن فی حزن دائم، وقد ورد فی الأحادیث والروایات ضرورهٔ أن یسعی العابد لأن تظهر آثار العبودیهٔ علی جوارحه وأعضائه.

ثمّ یقول علیه السلام: «فزهر مصباح الهدی فی قلبه»، تفریعاً علی ماسبق، فأصبح یری بعین الله ما وراء الأشیاء، فلا یؤخذ من حیث یجهل، فیتجنّب بذلک کثیراً من المهاوی؛ فیکون قلبه نورانیّاً، لأنّ فیه مصباح الهدی.

وعلماء الأخلاق یقولون بأنّ هذه الحالهٔ تدرک ولا توصف کما هو حقّها؛ إذ یضاعف الله من نعمه علی الإنسان، فیقذف فی قلبه نور العلم، فبدلاً عن الرذائل تکون المحاسن، وعوضاً عن الجهل تکون المعرفهٔ، أی یتحوّل القلب إلی وعاء نورانیّ بفضل الله تعالی بعد قیام إرادهٔ الإنسان ونیّته الصالحهٔ فتنبعث فی داخل الفرد حالهٔ من السکینهٔ والاطمئنان، یتمکّن بسببها من مواجههٔ الصعاب واقتحام العقبات.

فالحاجهٔ ملحّهٔ إلی إصلاح القلب قبل إصلاح الجوارح، ولیس الإصلاح بکثرهٔ الصلاهٔ والصیام رغم مطلوبیتهما، ولکن الإنسان مدعوّ إلی الترکیز علی اقتلاع جذور الفساد والاستعانهٔ بأفضل العبادات. وقد أشارت الآیات والروایات إلی فضل التفکّر فی أمر الله علی کل عبادهٍ، فالإنسان إذا لم یهتمّ بإصلاح قلبه، لا تؤثّر العبادات الظاهریهٔ فی حاله.

وسائل التطهیر

للتطهیر والإصلاح وسائل، منها: الإخلاص لله سبحانه وتعالی، والذی یتأتّی بالإرادهٔ والممارسهٔ. ورد عن النبی صلی الله علیه وآله: «من أخلص لله أربعین صباحاً تفجّرت ینابیع الحکمهٔ من قلبه علی لسانه».

فالقلب کالمرآهٔ، کما أنّ الإنسان لا یستطیع أن یری نفسه جیّداً فی المرآهٔ التی تراکم الغبار علیها، کذلک إذا علا قلبه رین الرذائل، لا یستطیع أن ینظر إلی ملکوت الله؛ قال عزّ وجلّ?: الَّذِینَ إِذَا ذُکِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِیَتْ عَلَیْهِمْ آیَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِیمَانًا وَعَلَی رَبِّهِمْ یَتَوَکَّلُونَ.?

فلِمَ توجل قلوب هؤلاء عند ذکر الله تعالی؟ الجواب: لأنّ قلوبهم عامرهٔ فی الأساس، فعندما یسمعون اسم الله تعالی، یستذکرون أشواط حیاتهم ویستعیدونها ویتوقّفون عند مساوئهم ویستغفرون الله من المعاصی.

والإخلاص لا ریب مهمّهٔ صعبهٔ إلّا أنّها ممکنهٔ.

ویتلو الإخلاص لله تعالی، مهمّهٔ الاستمرار فی محاسبهٔ النفس.

کما یعتبر التوکّل علی الله سبحانه وتعالی وطلب المعونهٔ منه من وسائل الإمدادات الإلهیّهٔ فی تطهیر القلب من الرذائل، وتعویضها بالفضائل.

وهذه الوسائل سلسلهٔ متّصلهٔ الحلقات، لا ـ تنفکّ. أسأل الله سبحانه وتعالی أن یمنّ علینا بتسهیل الطریق لنتحلّی بالفضائل ونتجنّب

الرذائل.

(۲۰) الابتعاد عن هوى النفس

(۲۰) الابتعاد عن هوى النفس

قال الله تبارك وتعالى?: وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ?فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى.?

التلازم بين الخوف واجتناب الهوى

إنّ الخوف من مقام الله ونهى النفس عن الهوى وجهان لشيءٍ واحد قوامه الورع والتقوى فى الذين آمنوا. فمتى نهى المؤمن نفسه عمّا تهواه يكون قد خاف مقام ربّه، ومتى خاف مقام ربّه فقد نهى النفس عن الهوى. فالعطف هنا شبه تفسيرىّ.

ولعلّ الحكمة فى ذكر الجانبين فى سياق واحد هوظهور أحدهما لبعض الناس أسرع من الآخر، فقسمٌ من المؤمنين يخاف أوّلاً مقام الربّ فينهى نفسه عن هواها وبعضهم بالعكس، ينهى نفسه عن هواها فيخاف مقام ربّه.

وقد ورد هذا الأصل الأصيل فى أحاديث عديدة تشير إلى أنّ الميزان الإلهى فى الجزاء للخلق وأعمالهم هو كونها منبعثة عن هذين الأمرين: خوف مقام الله، ونهى النفس عن الهوى. فإن كانت الطاعات والعبادات منبعثه عن خوف الله ونهى النفس عن الهوى، فهى المقبولة.

ومن ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام: «لو صُمْتَ الدهر كُلَّه، وقمت الليل كُلَّه، ثم قُتلت بين الصفا والمروة أو قال: بين الركن والمقام لما بعثك الله إلا مع هواك بالغاً ما بلغ، إن فى جنّة ففى جنّة، وإن فى نار ففى نار».

فمن يقضى كلّ أيامه بالصوم وكلّ لياليه بالسهر والعبادة، وختمت حياته بالشهادة بين الصفا والمروة أو بين الركن والمقام وهو البقعة التى تتساقط فيها ذنوب العباد؛ لما لها عند الله من الحرمة والقداسة فإنّه مع كلّ ذلك لن يتعدّى طبيعة هواه. فإذا كان يهوى الدنيا وكانت أعماله وعباداته مجرّدة عن خوف الله تعالى ومقامه، فإنّه سيُحشر مع طبيعة هذا الهوى وحسب نسبتها، والعكس بالعكس.

الهوى أعدى أعداء الإنسان

روى عن الإمام الصادق عليه السلام: «احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم، فليس شيءٌ أعدى للرجال من اتّباع أهوائهم».

فإذا كان للإنسان عدوّ خطير، وأراد أن يتجنّب شرّه، فإنّه يحذره فى مجلسه، فتراه يجمع كلّ انتباهه، وينظر إليه بعين الحذر وإن كان منشغلاً بالتحدّث إلى غيره أو يقرأ كتاباً، وربّما يتساءل فى نفسه عن سبب مجيئه إلى المجلس، أيريد به سوءاً، أم كان مجيئه صدفةً؟ كذلك يحذره أينما يراه، وإذا ما قدّم له طعاماً، فإنّه يتأنّى ويتوجّس، وإذا دعاه إلى مكان، يتثبّت ويوجل، وهكذا. فكذلك ينبغى أن يكون الأمر مع الهوى الذى هو أعدى أعداء الإنسان، بمعنى ضرورة التثبّت منه واليقظة لدى أىّ عمل يقوم به الإنسان أو كلمة يتفوّهها، لئلّا تكون مشوبة بالهوى.

يُنقل أنّ خطيباً كان مريضاً طريح الفراش، فى ساعاته الأخيرة، وصفه أحد زائريه، قائلاً: رأيت عينيه تفيضان بالدموع، مع أنّه ينبغى أن يتوقّع الأجر الجزيل من الله تعالى لما بذله من جهود فى خدمة أبى عبد الله عليه السلام فسألته عن السبب!؟ فازداد بكاؤه وأشار إلى حوض ماءٍ كان قريباً منه، قائلاً: لقد أخذتُ من أعين الناس دموعاً بمقدار ماء هذا الحوض، ولكنّ جهودى لم تكن خالصة لله سبحانه وتعالى بقدر ما كانت لشخصى، لأزيد من شهرتى، وأرضى نفسى.

فأىّ عمل يعمله الإنسان أو قول يقوله يعلم بنيّة نفسه، ويعلم ما إذا كان قلبه وفكره متوجّهاً إلى الله تعالى، أم متعلّقاً بغرض آخر.

ومن ناحيـة أخرى؛ فـإنّ أسوأ مـا يتعرّض له الإنسان من أعـدائه أنّ العـدوّ يقضـى على جزء من حياته، فيُحرمه مثلًا سـنين معـدودة من عمره، بينما الهوى وهو أعدى الأعداء فى حال استرسل الإنسان معه، تاركاً له العنان، يحطّم كلّ حياته، حتى يأخذ بآخرته مع دنياه.

روى عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتّباع الهوى وطول الأمل، فأمّا اتّباع الهوى فيصدّ عن الحقّ، وأمّا طول الأمل فينسى الآخرة».

ولكن كيف يمكن للإنسان الحصول على ملكـة نهى النفس عن الهوى؟ لاسـيّما طلاب العلوم الدينية الذين آثروا حرمان أنفسـهم عن جملة من الزخارف لأنّهم إذا اتّبعوا الهوى تركوا آثاراً سلبيةً أكثر على من يعيشون معهم؛ نظراً لما يتوقّعونه منهم.

إنّ خسارة أهل العلم والعياذ بالله فيما إذا اتّبعوا الهوى كالخسارة المادّية للشـخص الذى تقرّب من ملك أو رئيس أو تاجر ليستفيد منه ومع ذلك لم يسـتفد من مقامه أو أمواله، حينها سـيكون أكثر حسرة وخسارة من الإنسان البعيد عنه كليّاً، وعليه؛ فإنّ خسارة من سلك هذا الطريق متزلّفاً ولم يظفر بجملة من المظاهر الدّنيويّة ستكون أكبر.

بين الخسارة الدنيويّة والربح الأخروى

يروى عن الإمام الصادق عليه السـلام، أنّه كان له خادم أوصاه بأن يمسك زمام فرسه حالما يزور قبر جـدّه النبى الأكرم صـلى الله عليه وآله، وحينمـا دخـل الحرم الشـريف جـاء رجـل من تجّار خراسـان إلى الخـادم وعرض عليه أن يهبه كـل أمواله بإزاء تفويض خـدمة المسـكة بزمام الفرس إليه، ففكّر الخادم هنيئـة ثمّ قال له: سأذهب لمولاى وأسـتأذنه فى الأمر، ثمّ سـلّمه زمام الفرس وذهب إلى الإمام وقـال له: يـابن رسول الله، هـل رأيت منّى سوءاً طيلـة خـدمتى، فنفى الإمـام أن يكون رأى منه ذلك. فسأله مرّة أخرى: إذا كان هناك خيرٌ يصـلنى فهـل تمنعنى عن نيله، فأجـابه الإمام بالنفى أيضاً. فقال له الخادم أنّ تاجراً خراسانيّاً عرض عليه ما عرض، وطلب منه الإذن فى الانصراف عن الخدمة ليزاول عمل التجارة فيما سيمنحه الرجل الخراسانى، فوافق الإمام على ذلك، ولكنّه حينما همّ بمغادرة الحرم سمع نـداء الإمام يطلبه، فعاد إليه، فقال له الإمام: حيث خـدمتنا فترة فإنّ لك علىّ النصـيحة، وأخذ يذكّره بما لشـيعة أهل البيت عليهم السـلام وملازميهم من درجـات عنـد الله ومنازل قريبـة منهم فى الـدار الآخرة، وأنّ الخير كلّ الخير فى الـدنيا والآخرة من نصـيب مَن يلازمهم. فتغيّرت حالة الخادم لكلام الإمام وقرّر البقاء فى خدمته عليه السـلام. وحينما خرج من الحرم رآه التاجر، فقال له: جئتنى بغير ما ذهبت ولا أرى على وجهك علامة الشوق لعقد الصفقة، فأعلمه الخادم بأنّه لن يتبادل المواقع معه.

إنّنا لم نعرف ذلك التاجر كما لا نعرف من كان ذلك الخادم، ولكن هـذه القصّـة تدلّ على عظمة شخصـيّة التاجر والخادم معاً، حيث كـان الأـوّل على اسـتعداد للتخلّى عن كلّ أمواله فى مقابل خدمـة الإمام عليه السـلام، فيما وعى الخادم من رحلـة قصـيرة عميقـة الأثر وأعرض عن المال الكثير لأجل الله سبحانه والدار الآخرة.

من يتّق الله يُرزق

وروى أنّه: كان رجل من العبّاد فى بنى اسرائيل يصنع السلال ويعيش هو وعياله من ذلك، وذات يوم مرّ على باب دار أحد السلاطين، وكـان الرجـل جميل السـيماء، فبصـرت به زوجـة السـلطان، فأرسـلت عليه ليقتادوه إلى داخل القصـر، وحينما جاءها راودته عن نفسه، فاسـتعصم، فـأبت عليه إلاـ ارتكـاب الإثم، فارتأى لنفسه حيلـة يتخلّص منها، فطلب من زوجـة السـلطان أن يتنظّف على سـطح القصـر، فأوعزت إلى الخدم أن يصحبوه إلى السطح، فقال الرجل فى نفسه: لقد قضيت عمرى بالعبادة ولن أفسد عبادتى الطويلة بساعةٍ، ثم قرّر أن يلقى بنفسه من على سـطح القصر لعلّ الانتحار للتخلّص من الذنب كان جائزاً فى بعض الأمم السابقة، أو كان هذا عابداً غير متفقّه، أمّا فى الإسلام فذلك ممّا لا يجوز. فمن أجبر على الحرام فى مثل هذه المواقع فعليه أن يتخلّص منه بالحلال أو بحرام آخر أقلّ خطراً، لا أن يقتل نفسه.

ولكن ما تدلّ عليه هذه القصّة تفانی هذا الرجل فی الخوف من مقام الربّ وقدرته علی مصارعة هواه.

فصمّم علی إلقاء نفسه من فوق القصر، ولكن الله تبارك وتعالی أمر جبرئيل بأن يتلقّفه ويهبط به إلی الأرض، ففعل جبرئيل ذلك ولم يلحق به ضرر، وهرب من زوجة السلطان.

وحيث كان الرجل قد ترك سلاله فی قصر السلطان، فإنّه عاد إلی زوجته بلا سلال أو ثمن مال يشتری به لعياله شيئاً يأكلونه كما هی عادته، فسألته زوجته شيئاً يشتريه، فقال لها بأنّه لا يملك شيئاً أبداً، ثمّ أمرها بإشعال التنور لئلّا يتصوّر الجيران بأنّهم جياع، فامتثلت المرأة أمر زوجها. وصادف أن جاءت إحدی الجيران تطلب منهم ناراً، فقالوا لها: أمامك التّنور وخذی منه. وحينما أخذت ناراً عادت إليهم لتقول: إن خبزكم يكاد يحترق: فلمَ لا تخرجونه، فجاءوا إلی التّنور، فرأوا الخبز فيه بالفعل، فتناولوه وأكلوه، وعلموا أنّ الله هو الذی رزقهم به، وما كان ذلك إلا نتيجة نهی النفس عن الهوی والخوف من مقام الرب، ومصداقاً لتحقّق الربح فی الدنيا والآخرة.

الفصل الثانی: الوصايا

(۱) الاقتداء والاعتبار

۱ الاقتداء بالعلماء الربانيين

لا ريب أننا وإيّاكم وسائر علماء الدين وطلّاب العلوم الدينية ورثة حوزات يمتدّ تاريخها لقرون، وورثة الألوف من طلاب العلوم الدينية والأساتذة وأئمّة الجمعة والجماعة والعلماء. فلسنا الرعيل الأوّل ولسنا الجيل الأخير، وينبغی لنا جميعاً أن نهتدی بهدی القرآن الكريم وهدی رسول الله وفاطمة الزهراء والأئمّة الاثنی عشر صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وأن نتعلّم ونقتبس من حياة العلماء الماضين حتی نكون صالحين وحتی تتعلّم منّا الأجيال القادمة إن شاء الله تعالی.

أذكر لكم قصّة من تاريخ الحوزة العلمية فی مدينة النجف الأشرف عن أحد العلماء الماضين والذی كان بدوره فی يوم من الأيام شابّاً متعلّماً ثم أصبح أستاذاً ثم عالماً ومرجعاً للتقليد، وهو المرحوم الشيخ محسن خنفر.

عاش الشيخ خنفر فی زمان الشيخ الجواهریّ صاحب كتاب الجواهر و(ربما) كان متقدّماً فی مرجعيته علی صاحب الجواهر كما يستفاد من تاريخه، وقد تتلمذ علی يديه المئات، صار العشرات منهم فقهاء ومراجع تقليد، أحدهم المرحوم الشيخ محمد طه نجف.

يذكر أنّ الشيخ محسن خنفر مرض فی أخريات حياته مرضاً أجلسه فی البيت وألزمه الفراش، بحيث لم يستطع مزاولة شؤون المرجعية من قبيل التدريس وتحقيق المسائل والإجابة علی الأسئلة الشرعية، ... وطال به المرض إلی أن توفّی رضوان الله تعالی عليه عام ۱۲۷۰ ه وتوفّی الشيخ صاحب الجواهر قبله بأربع سنوات أی عام ۱۲۶۶ ه وفی الفترة ما بين وفاة صاحب الجواهر إلی وفاة الشيخ خنفر صارت المرجعية للمرحوم الشيخ مرتضی الأنصاری رضوان الله تعالی عليه.

وحيث إنّ من طبع الناس غالباً أنهم لا يسألون عن الشخص إذا مرض أو غاب لسبب ما، وإن كان شخصاً مهمّاً، بل ينسونه بسرعة، لا يزورونه ولا يسألون عنه! فأصبح الشيخ خنفر هذا المرجع الكبير والمربّی لعشرات الفقهاء لا يمتلك ما يسدّ به حتی قوت عائلته.

وفی هذا الوقت جیء للشيخ الأنصاری رضوان الله تعالی عليه بكيس كبير مملوءاً بالليرات الذهبية، وبدون أن يفتحه الشيخ الأنصاری قال: احملوه إلی الشيخ محسن خنفر. فأتوا به إلی الشيخ خنفر فقال: ما هذا؟ قالوا: الشيخ الأنصاری يبلّغك السلام ويقول هذا لك. فسأل عما فيه؟ قالوا: ليرات ذهبية. فجلس الشيخ خنفر وفتح الكيس وأخذ ليرة واحدة وكسر منها كسرة وأخذها وأرجع المتبقّی منها فی الكيس وقال: عودوا به إلی الشيخ الأنصاری، فهذا المقدار الذی أخذته يكفينی حالياً.

وعندما أرجعوا الكيس إلی الشيخ الأنصاری قام بتوزيع ما فيه علی الفقراء والأيتام وعلی المساجد والحسينيات ومجالس أهل البيت سلام الله عليهم وعلی المشاريع الخيرية الأخری.

وبعد أيام تُوفّى الشيخ خنفر وتبيّن أنّ المقدار الذى أخذه من الليرة سدّ حاجته وحاجة عائلته للأيام المتبقّية من حياته.

أجل لقد رحل الشيخ محسن خنفر وبعده بزهاء عشر سنوات توفّى الشيخ الأنصارى ومرّ على وفاتهما زهاء ۱۵۰ سنة لكن آثارهما وقصصهما لن تموت إلى قيام الساعة.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «هلك خزّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقى الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة».

لقد كانت هذه القصّة فى الحقيقة امتحاناً كبيراً للشيخ محسن خنفر، حيث استطاع بتحمّله للمرض والفقر والألم وعدم اغتراره بمال الدنيا أن يخرج من الدنيا مرفوع الرأس.

إنّ أهل العلم يواجهون ظروفاً صعبة، وفى أكثر الأحيان ابتلاءات كثيرة، فيجب عليهم أن يقوا أنفسهم من الانجرار وراء شهوات النفس ورغباتها. جاء فى الروايات الشريفة: «إنّ الإمام علىّ بن أبى طالب صلوات الله وسلامه عليه سمع رجلًا يقول: اللهم إنّى أعوذ بك من الفتنة. فقال: أراك تتعوّذ من مالك وولدك، يقول الله عزّ وجلّ?: إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ? ولكن قل: اللهم إنّى أعوذ بك من مُضلّات الفتن».

إنّ منشأ سعادة الماضين وسرّ التوفيق الإلهى الذى حظوا به هو تحمّلهم لمصاعب الدنيا ومشاكلها ومشاقّها، وعدم اغترارهم بزخرفها وملذّاتها، وبذلك خلّدهم التاريخ علماء عظاماً.

لذا ينبغى أن تكونوا على وتيرة العلماء الماضين وفى طريقهم. إقرؤوا تاريخهم وتعلّموا منهم حتى يتعلّم الأجيال منكم، فعلماؤنا رضوان الله تعالى عليهم ورّثونا تراثاً ثميناً، وعلينا أن نورّث الأجيال القادمة ما ورثنا. فلا ينبغى لأحدكم أن يفكّر فى المشرب الأهنأ أو المطعم الألذّ أو الثياب الأنعم أو البيت الأجمل والأرفه وما شابه ذلك من المادّيات وأمور الدنيا الفانية. فلم يكن بيت النبى صلى الله عليه وآله أفخم بيت فى المدينة، ولا كان بيت الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه أفخم بيت فى الكوفة.

فهذه الأمور ليست مفخرة للعلماء، بل المهمّ والمدعاة للفخر هو أن تكونوا الأحسن علماً وتقوى وزهداً.

۲ الاعتبار بعاقبة الظالمين

فى أطراف مدينة سامراء منطقة تسمّى ب (الخلفاء) تقع بالقرب من المأذنة المعروفة ب (الملويّة) التى تبعد عن الروضة العسكرية الطاهرة حوالى كيلومترين، هذه المنطقة فيها قبور سلاطين بنى العباس ومنهم الطاغية المجرم المتوكّل الذى ظلم وطغى زهاء عشرين سنة وذبح الآلاف من محبّى أهل البيت سلام الله عليهم وشرّد الآلاف منهم، وسجن الألوف. ولكن لو ذهب اليوم أحدكم إلى هذه المنطقة لما وجد أىّ أثر لقبور العباسيين حتى ولو بمقدار آجرة واحدة.

ومن نوادر ما جاء فى كتاب (مآثر الكبراء فى تاريخ سامراء) أنّه ذهب ذات مرّة أحد أحفاد طغاة بنى العباس مع مجموعة من أصدقائه إلى سامراء، حيث مرقد الإمامين العسكريين سلام الله عليهما وقرأوا الفاتحة ثم ذهبوا إلى قبور العباسيين. فقال أحدهم للحفيد العباسى: لقد كان آباؤك خلفاء وملوكاً وقد حكموا نصف المعمورة، وكان عندهم الحول والطول والمال والجيش والرجال والسلاح وكلّ شىء، وهؤلاء وأشار إلى مرقدى الإمامين العسكريين سلام الله عليهما كانوا أسراء بيد آبائك، فما بال قبورهم مشيّدة وتزورها الناس بينما لا نجد أثراً لقبور آبائك؟ فقال العباسى: لأنّ هؤلاء وأشار إلى ضريحى الإمامين الهاديين سلام الله عليهما كانوا مع الحقّ، وآبائى كانوا على باطل.

(۲) تعلّم محاربة «الأنا» من العلماء

قال الله تعالى?: مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ.?

نقـل أنّ الشـيخ البهـائی رحمـه الله ذهـب ذات مرّة فی زمن مرجعيّته وزعـامته للشـيعة إلی زيـارة العتبـات المقدّسـة فی العراق، والتقی بالمقدّس الأردبيلی فی مدينة النجف الأشـرف وكان حينها من أكبر الشخصـيات العلمية. فتباحثا حول مسألة ما فی مجلس كان غاصّياً بالعلماء والشخصيات الدينية. وبعد مناقشات كثيرة وردّ وإثبات استطاع الشيخ البهائی أن يثبت رأيه ويكسب جولة النقاش.

ثم بعـد عـدّة أيام ذهب هـذان العالمان الجليلان إلی مقبرة وادی السـلام. وبعـد أن قرآ الفاتحـة جلسا جانباً وطرح المقـدّس الأردبيلی المسألة نفسها وناقشها مع الشيخ البهائی واستطاع أن يقنع الأخير برأيه بأدلّة محكمة وقويّة. فقال الشيخ البهائی: أكنت تعلم بهذه الأدلّة فی بحثنـا ذلـک اليوم، أم علمت بها بعـد ذلک؟ قال الأردبيلی: نعم، كنت عالماً بها ذلک اليوم، لكننی لم أطرحها خشـية أن أخـدش شأنكم العلمی، وتصغر شخصيّتكم فی عيون الحاضرين وأنتم فی مقام الزعامة المطلقة للمذهب.

يمرّ اليوم علی هذه الحادثة زهاء أربعمئة سنة تخرّج خلالها الألوف من الطلاب فی حوزة النجف الأشرف، ولكن كثيراً منهم لم يبق له حتی الاسم، فيما بقی اسم المقـدّس الأردبيلی وأمثاله؛ لأنّ ما كان لله تعالی ينمو، وما كان لغيره فهو فانٍ وزائل. لقد بقی ذكر المقدّس الأردبيلی وسيبقی اسمه مخلّداً، لأنّه كان يعمل لله تعالی فقط.

نعم، لقـد عاصـر المقـدَّسَ الأـردبيلی كثير من العلمـاء ولكن لو راجعتم كتب التراجم والتاريـخ لما وجـدتم لأكثرهم أیّ ذكر. فالعمل الخالد هو ما كانت صبغته إلهية، أما الأهواء النفسية ففانية وزائلة.

أيّهـا الأـعزّة، بمـا أنّكم الآـن تسـلكون طريـق العلم، فعليكم أن تختـاروا بين أن تعملـوا بنحـو تكونون معه مخلّـدی الـذكر كالمقـدّس الأردبيلی والشـيخ البهائی وغيرهما، أو تكونوا ممّن لم يبق منهم أیّ ذكر، وهذا تابع لنواياكم وأعمالكم، فإن كانت لله سبحانه فسيخلّد ذكراكم، أما إذا كانت لغير الله تعالی فلا خلود ولا ذكر.

ثمّ إنّ حبّ الظهور هو من صـفات النفس الأمّـارة بـالسوء ومن شـهوات النفس الموجودة فی بـاطن كـلّ إنسان، وكلّ واحـد يحبّ أن يتظاهر بقدراته وإيجابياته.

إذاً من يبغی التوفيق الكثير، عليه أن يعزم لوقاية نفسه من هذه الخصلة السيّئة، وذلک بالسيطرة علی شهوات نفسه.

(۳) العلماء وإقامة الدين

(۳) العلماء وإقامة الدين

قال الله تعالی?: أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ، ?وقال تعالی?: إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ.?

من خلال إجراء مقارنة بين هاتين الآيتين المباركتين نسـتنتج أنّ الله تعالی أمرنا أن نفعل ما من شأنه إقامة الإسـلام وإعلاء كلمته. ومن الواضـح أنّ إقامـة الإسـلام تشبه إقامـة عمـارة أو بنيان؛ لأنّ الإسـلام عنوان عام لمجموعـة من الأخلاق، والعقائـد، والقيم، والأحكام، والآداب المختلفة فی حياة الإنسان، تحدّدها طائفة من الأحكام الشرعية.

والمقصود من إقامـة الدين أن يلتزم به جميع الناس كباراً وصـغاراً، رجالاً ونساءً وأن يعملوا بأحكامه. فإقامة الدين أعمّ من فهمه، وهی تتطلّب الإيمان والالتزام بقوانين الدين وتطبيق أحكامه جميعاً.

مقدّمات إقامة الدين

إنّ إقامـة الـدين تتطلب مقـدّمات عـدّة، أحـدها تعلّم العلوم الإسـلامية، والعلوم المتعلّقـة بهـا كالعربيـة والبلاغـة. وبعبارة أخری: العلوم المعروفة بالعلوم الدينية أو الحوزوية. فالمتطلّع بالعلوم الإسلامية يمكنه أن يقيم مناظرة مع أصحاب الديانات الأخری وخاصّة علمائهم، فيثبت بطلان عقائدهم ويُتمّ الحجّة عليهم ويهديهم إلی مذهب أهل البيت سلام الله عليهم.

لقـد شـاء الله تعـالى أن يختـار أهـل الحقّ والهـدى طريقهم فى الهدايـة والصـلاح عن علم ووعى، وأن يعى أهـل الباطـل أيضـاً بطلان عقائـدهم، كما اختاروا طريقهم عن علم أو بعـد إتمام الحجّة عليهم؛ قال الله تعالى?: لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ?.

سألت أحـد الفضـلاء الـذين يعيشون فى إحـدى الـدول عمّا يقال من أن تلك الدولـة قـد أعدّت مليون ومئتى ألف كادر متعلّم لتبليغ مـذهبهم الباطل؟ فقال: هـذه الإحصائيـة تعود إلى ما قبل عـدّة سـنوات سابقة من الآن. أما الآن فقد بلغ عددهم مليون وخمسـمئة ألف تشكّل النساء أكثر من مئة ألف منهم، وكلّهم منحرفون عن مذهب أهل البيت سلام الله عليهم!

ولكى ننجح فى مواجهـة هـذا المدّ السـلبىّ فلاشك أنه يجب أن يكون لنا أيضاً طاقات متعلّمة وكفوءة. ومقدّمة ذلك هو تعلّم العلوم الإسلامية.

واقعية التشيّع

إنّ هناك الآلاف من علماء المـذاهب الأخرى وبعـد عمرٍ من الاتّكاء على مسـند التـدريس والفتيا، قـد استبصـروا وتحوّلوا إلى مذهب التشيّع. وبعضهم حدث عنده هذا التحوّل الروحىّ المبارك بعد أن ناهز السبعين أو الثمانين من العمر.

من المسلّم أنّ الإنسان ما لم يكن عالماً لا يمكنه أن يناظر عالماً من مذهب آخر وأن يهديه إلى الصراط المستقيم.

فمن يدقق فى بعض مناظرات علماء الشيعة مع علماء الأديان والمذاهب الأخرى، يجد روائع العلوم والآثار؛ خذ منها مثلاً مناظرة السيّد محمد باقر القزوينى مع علماء اليهود فى مدينة ذى الكفل فى العراق قبل حوالى مئة وخمسـين سنة والتى انتهت إلى اهتداء جملة منهم إلى نور الإسلام والتشيّع.

الخبرة فى سوق العلم

ههنـا أودّ أن ألفت نظركم إلى مسألـة وهى كمـا توجـد فى عـالم البضـائع والاقتصـاد والتعاملات التجاريـة ظاهرة باسم «الغش»، والتى تعرض فيها سلع مزوّرة بدل السلع الأصليّة، فكذلك الحال فى سوق العلم أيضاً، وما أكثر الحالات التى تزيّف فيها الحقائق ويلبس فيها الباطل لبوس الحق، وتحلّ المغالطة وهى الاستدلال الباطل الذى يظهر بمظهر الحق محلّ البرهان والاستدلال الحقيقى.

وكما أنّ أهل الخبرة فقط هم الذين يسـتطيعون تمييز العقيق والياقوت وسائر الأحجار الكريمة عن غيرها من الأحجار العادية، فكذلك العلمـاء الـدارسون والضـالعون هُم فقـط يمكنهم أن يفرّقوا فى سوق العلم بين الحق والباطـل، ويميّزوا الخـبيث من الطيب، والمغشوش المزيّف من النقى الأصيل.

ثمّ إنّ الخسـارة والغشّ فى سوق العلم أعظم بكثير من الخسارة فى الأمور الماديّـة؛ فلو أنّ أحـداً اشترى بـدل العقيق حجرة لا قيمـة لها بثمن غال جـداً من دون اسـتشارة أهل الخبرة بالأحجار فإنّه سيخسـر مبلغاً كبيراً من أمواله فقط، أما من ابتلى بالمغالطات المضـلّلة فإنّه سيخسر دنياه وآخرته.

وصاحب العلم النزيه لا يقتصر ربحه على نفسه، بل يحول دون ضلال الآخرين أيضاً.

كما أودّ لفت انتباهكم إلى كثرة الخرافات الموجودة فى الأديان غير السـماوية، لذا يجب عليكم أن تطلبوا العلم عدّة سـنين، وتتباحثوا فيما بينكم، وتعزّزوا من قـدراتكم العلمية لئلا تشـعروا بالعجز إزاء أية مغالطة قد تواجهكم ولكى تجيبوا على الشـبهات بأسـلوب علمىّ صحيح. ففى هذه الصورة وحدها توفّقون فى نشر الإسلام وإقامة الدين.

إقامة الدين مسؤولية عامّة

إنّ قوله تعالى? أقيمُوا الـدين ?أمر، والأمر يفيـد الوجوب، أى يجب إقامـة الدين. كما أنّ الله تعالى لم يقيّد إقامة الدين فى الحجاز أو ايران أو فى مكان آخر؛ أى إنّ فى الآيهٔ إطلاقاً، وهذا يعنى: وجوب إقامهٔ الدين فى كلّ مكان من العالم.

من هنا يجب على كلّ إنسان أن يعمل حسب طاقته من أجل إقامهٔ الدين فى كلّ مكان. وهذا الواجب لا يقتصـر على الرجال وحدهم، فالرجال والنساء فيه سواء، والمسؤوليـهٔ مشتركهٔ، فإنّ الأمر القرآنىّ يشـمل الرجال والنساء معاً. وما أكثر النساء اللواتى وقفن عبر التاريخ فى وجه الشبهات والمغالطات ودافعن عن مدرسهٔ أهل البيت صلوات الله عليهم وصنَّ المبادئ والمقدّسات.

(۴) لنتعلم من ورع العلماء

قبـل زهـاء أكثر من قرن كـان الشيـخ الآخونـد الخراسـانى قـدس سره يـدرّس بحث الخـارج فى حوزهٔ النجف، فعزم يوماً ما اثنان من تلامـذته أن يحصـوا عـدد الحاضـرين فى الـدرس، فوقف أحـدهما على بـاب الـدخول إلى قاعـهٔ الـدرس والآـخر على بـاب الخروج، وأمسك كلّ منهما بمسبحهٔ للعدّ، فكان مجموع ما أحصوه (۱۲۰۰) طالب.

ولكن كم من هؤلاء بقى اسمهم فى التاريخ؟ ربما مئهٔ أو على أكثر التقادير مئتان.

لذا أوصى جميع طلاب العلوم الدينيهٔ خصوصاً، والمسلمين عموماً بوصيّتين هامّتين:

۱. التعبئهٔ العلميهٔ، باغتنام الفرص وعدم تضييع الوقت بل استغلاله للعلم والتعلّم.

۲. التقوى الحقيقيهٔ «الاحتياط فى الدين».

لقـد كان للشيـخ مرتضـى الأنصارى قـدس سـره زميل أيّام دراسـته، يـدرسان معاً، واتّفق فى أحـد الأيّام أنّ هذين الشخصـين (الشيخ الأنصـارى وزميله) لم يكونـا يملكـان أكثر من فلس واحـد، فـالتفت ذلك الزميل للشيـخ الأنصارى وقال له: هل توافق على أن نشترى بهذا الفلس رغيفاً من الخبز نصـفه لك ونصـفه لى؟ فوافق الشيـخ الأنصارى وذهب ذلك الزميل إلى السوق ليأتى بالرغيف ولكنّه فى طريق عودته صادف بائع دبس فقال له: هل تعطينى من الدبس ما قيمته فلساً واحداً قرضاً؟

فوافق البائع وأعطاه الدبس، فوضعه الشخص وسط الرغيف وعاد إلى الشيخ.

وعنـدما رأى الشيـخ الأنصـارى الـدبس فى الخبز سـأله مسـتغرباً: من أين لك بثمن الـدبس ولم يكن عنـدنا سوى فلس واحـد؟ فقال: أقرضَنيه بائع الدبس.

وهنـا التفت الشيـخ الأنصـارى إلى زميله وقال: وهل تضـمن بقاءك حياً لتفى له؟ وما كان ينبغى لك أن تفعل هـذا؛ لأنّ رغيف الخبز وحده كان سيشبعنا أيضاً. أما إنى فسآكل من أطراف الخبز التى لم يمسّها الدبس وأترك لك الباقى.

ومضت الأيـام وانقضت على هـذه الحادثـهٔ ثلاـثون سـنهٔ. وعـاد زميـل الشـيخ الأنصـارى من إيران إلى النجف الأشـرف وكان الشـيخ الأنصارى يومـذاك مرجعاً كبيراً يـدرّس فى الروضـهٔ العلويهٔ المباركهٔ. وعندما وصل الزميل كان الشـيخ قد أتمّ الدرس توّاً والطلبهٔ فى حال الخروج من الروضهٔ، وعندما ولج الزميل القديم الصحن الحيدرى التقى الشيخ الأنصارى وهو فى حال الخروج فسلّم عليه وخاطبه بلهجهٔ الصديق القديم: ما ضرّ لو استمرّت رفقتنا؟ كيف بلغت أنت هذا المقام السامى فى حين إنى لم أبلغ شيئاً؟

فالتفت إليه الشيخ الأنصارى وأجابه بلهجهٔ الصديق القديم والممازح: ربما لأنى تخلّيت عن ذلك الدبس ولم تستطع أنت التخلّى عنه.

صحيح أنّ كلام الشيخ الأنصارى رحمه الله كان مزاحاً، ولكنه فى الوقت نفسه لم يخل من الصدق، وإن لم يكن أىّ إشكال فى الدَّين ولم يَقُلْ أحد بحرمته، إلّا أنّ شدّهٔ احتياط الشـيخ الأنصارى لم تسـمح له بذلك. وفى النتيجهٔ كانت شدّهٔ الورع لدى الشيخ هى السبب وراء خلود اسمه.

وعليه، فليفكّر كلّ منكم من الآن مع نفسه وليقرر أيريـد أن يكون ضـمن الألف المنسـيّين أم القليلين الـذين بقيت ذكراهم؟ فمن كان يحبّ أن يبقى اسمه حتى بعد مرور ألف سنهٔ، فليعمل بهاتين الوصيتين على أفضل وجه.

(۵) التأسی برسول الله فی صموده وأخلاقه

قال الله تعالى فى القرآن الحكيم?: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ.?

لا ريب أنّ المعنى المستفاد من هذه الآية الشريفة هو أنّ القرآن يأمرنا أن نتعلّم من رسول الله صلى الله عليه وآله كلّ شيء، حيث قال علماء البلاغة: «حذف المتعلّق يفيد العموم». فاقرأوا تاريخ رسول الله صلى الله عليه وآله واستثنوا ما كان من مختصّاته صلى الله عليه وآله كصلاة الليل التى كانت واجبة عليه، وزواجه من تسع بالعقد الدائم، ودخوله مكّة المكرمة بالسلاح حيث أبيح له ذلك ولمرّة واحدة فقط، وهذا الأمر لا ـ يجوز لغيره مطلقاً. فاقرأوا وانظروا كيف كان يتعامل مع الأسرى والعبيد والأطفال والمؤمنين والعاصين والمنافقين. وكيف كان يعاشر زوجاته وأصحابه وأقرباءه، وكيف يتعامل مع أعدائه، وكيف كان يفصل بين ماله الشخصى ومال الأمّة، وكيف كان يعبد الله سبحانه. انظروا إلى سيرته بتمعّن ثم تأسّوا به، فالتأسّي برسول الله صلى الله عليه وآله واجب لمن يريد الفوز والنجاة فى الآخرة، كما قال عزّ من قائل?: لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ.?

أذكر لكم بالمناسبة نقطتين عن حياة وسيرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وأكتفى بذكر مثال واحد عن كل نقطة، لأنّ الحديث عن سيرته صلى الله عليه وآله يتطلّب المئات والمئات من الليالى والأيام.

۱. صموده

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله صامداً فى الحقّ صموداً لا نظير له فى تاريخ الإنسانية، فضلًا عن صمود الأنبياء والرسل عليهم السلام. وهناك العشرات من الأمثلة على ذلك؛ منها: عندما بعثه الله تعالى كانت الكلمة الأولى له صلى الله عليه وآله مع المشركين هى: «قولوا لا ـ إله إلاّ ـ الله تفلحوا». وبما أنّ المشركين كانوا يعبدون آلهة متعدّدة ومتنوّعة حيث كان لهم إله من خشب ومن قطن وحديد، وإله من حجر وطين، وإله من ذهب وفضّة ونحاس، وكان لكلّ قرية صنم، ولكل عشيرة صنم، بل لكل عائلة صنم، وأحياناً لكلّ فرد صنم،

وبما أنّهم نشأوا على عبادة الأصنام، فكان لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وقع كبير عليهم. فشقّ عليهم ذلك وجاءوا إلى أبى طالب سلام الله عليهم عمّ النبيّ صلى الله عليه وآله وقالوا له: إنّ ابن أخيك سفّه أحلامنا وأفسد شبابنا و، ... فقل له إن كان يشكو العُدم، فسنجمع له من المال ما يكون به أغنى العرب ونملّكه علينا. وذكروا كثيراً من هذه المغريات.

فنقل أبو طالب سلام الله عليه كلامهم إلى النبيّ وكان بإمكانه صلى الله عليه وآله أن يقول: هذا اعتقادى، ولى أدلّة عقلية تثبت ذلك، وأستطيع إقناع من يناقشنى بأنّه لا إله إلا الله وأنّى رسول الله إلى الناس كافّة. لكنّه صلى الله عليه وآله أجابهم بكلام قطع به الطريق عليهم أن يأتوا له ثانية حيث قال:

«لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى، ما أردته».

هذا صمود رسول الله صلى الله عليه وآله. وعليه، ينبغى لكلّ من يعرف الحقّ ويقتنع به، أن يستقيم، كما فى قوله تعالى?: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ?وليصمد، ولكن بأخلاق حسنة، لا بعنف أو بإرهاب أو بشدّة.

لنتعلّم الصمود من رسول الله صلى الله عليه وآله، وأن نعزم فى نفوسنا وقلوبنا بأن نعاهده على الصمود، لكى نحظى بدعائه صلى الله عليه وآله. فكلّ إنسان مسؤول أمام الله سبحانه عمّا يعتنق ويعتقد، ومسؤول فى الدنيا أمام مجتمعه، وأمام من يبلغهم خبره، وأمام التاريخ عندما يطّلع عليه الأجيال فى المستقبل. فالذى يعتقد برسول الله صلى الله عليه وآله عليه أن يصمد فى سبيله، والذى يعتقد بأمير المؤمنين عليه أن يصمد فى سبيله سلام الله عليه، والذى يعتقد بفاطمة الزهراء فعليه أن يصمد من أجلها وفى طريقها سلام الله عليها، والذى يعتقد بالحسن والحسين عليه أن يصمد فى سبيلهما سلام الله عليهما، والذى يعتقد بباقى الأئمّة من أهل البيت عليه أن يصمد فى سبيلهم سلام الله عليهم، والذى يعتقد بولىّ الله الأعظم صاحب العصر والزمان فليصمد معه عجّل الله تعالى فرجه الشريف.

۲. أخلاقه

عندما تتصفحون تاريخ رسول الله صلّى الله عليه وآله وتقرأونه بتمعّن، تعرفون أخلاقه العظيمة، وسجاياه الكريمة. والشواهد عليها كثر؛ منها: عندما كان صلى الله عليه وآله فى المدينة المنوّرة وكان يومها حاكماً ورئيساً للدولة الإسلامية وكان كلّ شىء تحت أمره ونهيه جاءه «أعرابى فأخذ بردائه فجبذه جبذة شديدة حتى نظرتُ كما يصفه أنس بن مالك إلى صفحة عنق رسول الله صلى الله عليه وآله وقد أثّرت به حاشية الرداء من شدّة جبذته ثم قال له: يا محمد مُر لى من مال الله الذى عندك. فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وآله متبسماً وأمر له بعطاء» أى أنّه صلى الله عليه وآله عفا عنه ولم يقابله بالمثل. وكان بإمكانه صلى الله عليه وآله أن يصفع الأعرابى، أو أن يترك ذلك لأصحابه، أو أن يقتصّ منه، لأنّ الله تعالى يقول?: فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ? لكنه صلى الله عليه وآله لم يقابله بالسيّئة بل عامله بالفضل. فهل فى دنيا اليوم يوجد رئيس حكومة يمكن الاقتراب منه فضلاً عن جذب ردائه؟!

كذلك كانت لرسول الله صلى الله عليه وآله زوجات وكان بعضهنّ يُسئن الأدب معه صلى الله عليه وآله وقد عاتبهنّ القرآن بل هدّدهن كما فى قوله تعالى?: إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ. ?بل وصل الأمر بإحداهنّ أن شكّكت فى نبوّته صلى الله عليه وآله، فقد ذكرت الروايات أنّها قالت لرسول الله صلى الله عليه وآله: أنت الذى تزعم أنّك نبىّ الله؟ ولم ينقل أحد أنها تيقّنت بعد ذلك. ونقل أيضاً: أنّه كان بينها وبينه صلى الله عليه وآله كلام فأدخل أباها حاكماً فقالت لرسول الله صلى الله عليه وآله: قل، ولا تقل إلّا حقّاً. فلطمها أبوها وقال: يا عدوّة الله! النبىّ يقول غير الحقّ؟!

فلم نجد ولو مرّة واحدة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قابل إساءة إحداهن بالمثل، سواء كانت إساءة بالكلام أو بالفعل.

كما كان لرسول الله صلى الله عليه وآله أصحاب كثيرون وكان فيهم الجيّد والجيّد جداً، والسيّئ والسيّئ جداً، بل بعضهم كان من المنافقين بصريح القرآن الكريم حيث قال تعالى?: وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ. ?فابحثوا فى التاريخ وانظروا كيف تعامل معهم صلى الله عليه وآله.

يجب إذاً أن نتعلّم من رسول الله صلى الله عليه وآله هذه الأخلاق ونقتدى به ونصنع كما كان يصنع، ونقابل إساءة الأصدقاء والجار والأقارب وغيرهم كما كان يصنع مولانا رسول الله صلى الله عليه وآله. ولا يكون هذا إلّا بعد عزم، ومن يعزم يوفّقه الله تعالى ليكون فى رضوانه سبحانه ضمن الذين اقتدوا برسول الله وتأسّوا به صلى الله عليه وآله، وممّن عمل بالآية الشريفة فى صدر البحث. فالتوفيق لا يحصل دون عزم وتصميم.

واعلموا أنّ وراءكم مئات الملايين فى العالم، فى آسيا وأوربا وأمريكا وغيرها وكذلك فى القارة الأفريقية التى هى الآن معظمها حرّة أو مقبلة على الحريّة، فحاولوا الاستفادة من أجواء الحريّة بإيصال تاريخ وسيرة النبى المصطفى صلى الله عليه وآله وأهل بيته الأطهار سلام الله عليهم إلى كل هذه الملايين. فإن تسعين بالمئة من الشعب الأفريقى مثلاً ليسوا مسلمين أو لا يعرفون أهل البيت سلام الله عليهم لكنهم فى الوقت نفسه ليسوا معاندين، بل حتى المتعصّبين الذين خضعوا لغسيل الدماغ، إذا ما عرفوا الصورة الحقيقة للرسول الأكرم وأهل البيت صلوات الله وسلامه عليه وعليهم سيتبدّلون ويتغيّرون.

فلعلّ كلمة واحدة، أو قصّة واحدة، أو سطراً واحداً من عبارة حق وصدق تغيّر تاريخ الإنسان وحياته، كما حصل لعالِم لم يكن يعرف أهل البيت سلام الله عليهم واستوقفه حرف الجرّ (من) فى قوله تعالى?: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا.?

هذا العالِم تأمّل فى هذه الآية الشريفة وتدبّر فيها، وفكّر وبحث فى الكتب والأحاديث والتاريخ فوجد الحقّ وصمد فى سبيله، حيث استنتج أنّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ليسوا كلّهم على صواب أو مغفوراً لهم، ولا يؤجرون جميعاً على صحبتهم لرسول الله

صلى الله عليه وآله وعلى ما أدّوه من صلاة وصيام وحجّ و...

لذا عليكم الاقتداء برسول الله وآله صلوات الله وسلامه عليهم في القول والعمل، وأن تطبّقوا في حياتكم أسلوب رسول الله صلى الله عليه وآله، وتتعلّموا منه الصمود والأخلاق الحسنة. فالملايين في العالم ينتظرون هدى الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بسببكم وبواسطتكم، وهدى القرآن الحكيم عبركم، وهدى أهل البيت سلام الله عليهم بقلمكم ولسانكم وأسلوبكم، فلا تحرموهم، وهذا بحاجة إلى خدمة وتعلّم كبيرين ومعمّقين، وعمل واسع حتى توفّقوا.

(۶) طلب العلم فريضة

قال مولانا رسول الله صلى الله عليه وآله: «طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة». فكما أنّ الصلاة والصيام والحجّ والزكاة واجبة بشرائطها، كذلك طلب العلم واجب على الرجال والنساء.

إنّ علوم الإسلام الحقيقية ثلاثة، وهي:

۱. أُصول الدين.

۲. فروع الدين.

۳. الأخلاق والآداب.

والمقصود من أصول الدين هو معرفة تفاصيل وأدلّة التوحيد والعدل والنبوّة والإمامة والمعاد. ومعرفة أصول الدين تبعث على الاعتقاد بالله تعالى والإيمان به وبملائكته وأنبيائه ورسله وأوصيائه، والتصديق بكتبه ورسالاته وصحفه. كما يمكن أن يُستدلّ من أُصول الدين على أنّ أوصياء رسول الله صلى الله عليه وآله هم اثنا عشر أوّلهم أمير المؤمنين الإمام علي سلام الله عليه وآخرهم الإمام المهديّ الموعود عجّل الله تعالى فرجه الشريف. وقد استشهد منهم أحد عشر، أمّا الإمام المنتظر فهو حيّ لكنه غائب وسيظهر ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً. هؤلاء الاثنا عشر مع رسول الله صلى الله عليه وآله ومولاتنا فاطمة الزهراء سلام الله عليها هم المعصومون الأربعة عشر، الذين عُصموا من السهو والنسيان، وهم أهل الكمال، وطاعتهم واجبة على الجميع.

وفروع الدين يمكن أن تجدوا تفاصيلها في الرسائل العملية. أما الأخلاق والآداب فهي ترتبط بسلوك الفرد والمجتمع وتعامل الإنسان مع نظرائه كالزوجة، والأولاد، والأقارب، والأصدقاء، والجار، وزملاء العمل و ... الخ.

وكما أنّ معرفة أصول الدين قدر الحاجة واجبة على الجميع، ويمكن التعرّف عليها عبر مظانّها، فكذلك الأمر بالنسبة إلى فروع الدين، حيث يمكن الرجوع فيها إلى العالم الفقيه. كما يجب على كلّ فرد أن يعرف الواجب والحرام من الأخلاق والآداب وتتّبع موارد الابتلاء فيهما من خلال دراسة سيرة النبي صلّى الله عليه وآله وسيرة آل بيته عليهم السلام. ومن الجدير تعليم هذه العلوم للآخرين بعد تعلّمها.

ولا بأس أن نذكر بعض الأمثلة التي لها ارتباط بالأخلاق والآداب حيث ذكر لنا التاريخ نساء كثيرات قمن بهداية الآخرين، منهن ديلم بنت عمرو، زوجة زهير بن القين أحد أصحاب الإمام الحسين سلام الله عليه.

فقد كان زهير عثمانيّ الهوى، وكان في طريقه إلى العراق من مكّة المكرّمة، فعلم أنّ الامام الحسين سلام الله عليه أيضاً في المسير نفسه، فكان زهير وكما نقل جماعته من فزارة ومن بجيلة، قالوا: كنّا مع زهير بن القين البجلي حين أقبلنا من مكّة، فكنا نساير الحسين عليه السلام فلم يكن شيء أبغض إلينا من أن ننازله في منزل، فإذا سار الحسين عليه السلام ونزل منزلاً لم نجد بدّاً من أن ننازله، فنزل الحسين عليه السلام في جانب ونزلنا في جانب، فبينما نحن جلوس نتغذّى من طعام لنا إذ أقبل رسول الحسين عليه السلام حتى سلّم ثم دخل فقال: يا زهير بن القين! إنّ أبا عبد الله الحسين بعثني إليك لتأتيه، فطرح كل إنسان منّا ما في يده حتى كأنّ على رؤسنا الطير. فقالت له امرأته: سبحان الله أيبعث إليك ابن رسول الله ثم لا تأتيه؟! لو أتيته فسمعت من كلامه، ثم انصرفت. فأتاه زهير بن القين. فما

لبث أن جاء مستبشراً قد أشرق وجهه، فأمر بفسطاطه وثقله ورحله ومتاعه فقوّض، وحمل إلى الحسين عليه السلام، ثم قال لامرأته: أنت طالق، إلحقى بأهلك فإنّى لا أحبّ أن يصيبك بسببى إلاّ خير، ثم قال لأصحابه: من أحبّ منكم أن يتبعنى وإلاّ فهو آخر العهد».

فالمرأة المؤمنة تستطيع أن تبدّل وتغيّر حياة إنسان من عدوّ لأمير المؤمنين إلى محبّ وتابع له سلام الله عليه. وقد صار زهير بفضل إرشاد وتذكير زوجته ممن يخاطبهم يومياً الآلاف من الناس: بأبى أنت وأمّى.

ومن هذه النساء أم الأسود بنت أعين بن سنسن التى استطاعت أن تهدى إخوتها العشرة إلى طريق أهل البيت سلام الله عليهم، منهم الراوية زرارة بن أعين الذى خرج من نسله كبار المحدّثين الذين قدّموا خدمات جليلة للتشيع، منهم أبو غالب الرازى.

وهكذا بوسع المسلمين والمسلمات ممارسة ذات الدور فى الأخلاق والآداب روماً فى الوصول الى مرضاة الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وآله وآل بيت رسوله صلوات الله عليهم.

(۷) كيف نحظى برعاية صاحب الزمان؟

كان المرحوم السيّد مهدى بحر العلوم رضوان الله تعالى عليه قد حظى بشرف اللقاء مع مولانا المفدّى الإمام المهدى الموعود عجّل الله تعالى فرجه الشريف مرّات عديدة. ونقلوا عنه عندما كان مرجعاً للتقليد أنّه سافر ذات مرّة من مدينة النجف الأشرف إلى مدينة الحلّة. وحين وصوله للحلّة استقبله الناس وكان كلّ واحد منهم يرجو السيّد أن ينزل فى بيته. إلا أنّ السيّد سألهم عن عنوان واسم أحد كسبة المدينة، لكن أكثرهم لم يعرفه. وبعد أن بحثوا عنه تبيّن أنّ الذى سأل عنه السيّد هو كاسب عادى يملك دكّاناً بسيطاً فى إحدى أحياء المدينة. فأخبروه بأنّ السيّد بحر العلوم يبحث عنك. ففرح الرجل، وعندما حضر سأله السيّد: هل تسمح لى أن أنزل فى بيتك؟ فأجاب الرجل: أنت تمنّ علىّ بذلك، لكنّ بيتى صغير وبسيط جداً ولا يسع لاستقبال من يريد اللقاء بك. فقال السيّد: سأنزل وحدى فى بيتك وأجعل اللقاء بالناس فى مكان آخر.

أمّا الناس فاعترضوا وقالوا للسيّد: هذا المكان لا يليق بكم كونكم أحد المراجع الكبار، ومحلّ تشرف كثير من الناس. فأجابهم السيّد: سأحضر فى أىّ وقت كان وفى أىّ مكان تنتخبونه أنتم للقاء الناس. فوافق الجميع على إصراره بتعجّب!

ثم بعد فترة من الزمن سألوا السيّد بحر العلوم عن سبب إصراره للنزول فى بيت ذلك الكاسب البسيط. فقال رحمه الله: لقد أمرنى سيدى ومولاى الحجّة بن الحسن عجّل الله تعالى فرجه الشريف بذلك.

قالوا: وهل سألت المولى عن سبب ذلك؟ قال: أنا مطيع له ولا يسعنى سوى تنفيذ أمره.

قالوا: إنّ أهل البيت سلام الله عليهم كلامهم كلّه حكمة، فهل تستطيع أن تبيّن لنا سبب ذلك حسب قناعتك الشخصية؟

قال السيّد: عندما كنت ضيفاً عند الرجل أحببت كثيراً أن أجد فيه ما كان سبباً فى رعاية المولى صاحب العصر والزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف له فوجدت حياته بسيطة وكان متديّناً بسيطاً، لكنه كان ملتزماً بالفرائض كلّها. وعندما أخبرته أنّى أُمرت من قبل المولى عجّل الله تعالى فرجه الشريف بالنزول فى بيته، تعجّب وفرح وبكى! ثم قال: إنّى كاسب بسيط وإنّ تركى العمل ليوم واحد يجعلنى أبات ليله جائعاً، ولكن سعيت قدر استطاعتى أن أحافظ على دينى وألتزم بأحكامه وأخلاقه.

يقول السيّد بحر العلوم: وبعد أن ألححت عليه ذكر لى ما اعتبره سبباً لكلّ ما حظى به من الخير والبركات فى حياته.

هذه القصّة لا خصوصية فيها، فكلّ إنسان سواء كان رجلاً أو امرأة، شابّاً أو كهلاً، متعلّماً أوغير متعلّم، قد أودع الله تعالى فيه قوّتين متضادتين إحداهما العقل والأخرى الرغبات، وهما من عجائب صنع الله جلّ شأنه. فكلّ واحد منّا يمكنه أن يحظى برعاية الإمام المهدى عجل الله تعالى فرجه الشريف وينال القرب منه بمقدار ما فضّل به معتقداته على أهواء نفسه وشهواتها.

(۸) ليكن يومنا خيراً من أمسنا

قال الإمام الصادق سلام الله عليه: «من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان آخر يومه شرّهما فهو ملعون». وقال مولانا أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه: «الكيّس من كان يومه خيراً من أمسه».

هذه الحالات الثلاث التي وردت في الحديثين الشريفين ترتبط بكلّ فرد، مهما كان دوره في الحياة، سواء كان عالماً أو جاهلاً، كاسباً أو موظّفاً، ورجلاً أو امرأة. ومعنى المغبون: هو بيع الشخص شيئاً ثميناً بقيمة بخسة أو شرائه شيئاً رخيصاً بسعرٍ غالٍ، وبالطبع ستكون نتيجة هذا العمل هي الحسرة والندم.

إن خسر المرء أو فَقَد ثروته فيمكنه أن يعوّض عنها في يوم ما، أما خسارة العمر فلا يمكن التعويض عنها أبداً، فما فات لا يرجع، وكلّ إنسان يقضي عمره وأيّام حياته تبعاً لواحدة من تلك الحالات الثلاث فلا بدّ أن يكون قد غبن نفسه.

فمن استوى يوماه فهو كمن خسر ثروته. وهكذا من لم يرتقِ في طلب العلم، أو في التقرّب إلى الله تعالى بالعبادات وخدمة الناس والتعامل الحسن مع عائلته وأقاربه وأصدقائه، فهو كمن خسر عمره. فالكيّس كما ورد في الحديثين أعلاه من كان يومه خير من أمسه، والملعون والعياذ بالله هو من كان يومه أسوأ من أمسه.

لقد منّ الله تبارك وتعالى بنعم كثيرة على الإنسان كالسمع والبصر والحياة، والعقل الذي جعله الله تعالى معياراً للثواب والعقاب، والقدرة على الفعل والإنتاج.

إذاً ينبغي للمرء أن يستفيد من هذه النعَم بشكل صحيح ويستثمرها في أن يعزم ويبذل ما في وسعه لأجل أن يكون يومه خيراً من أمسه، وشهره الذي فيه خيراً من شهره الذي فات، حتى لا يتحسّر على ساعات وأيّام حياته، ولكي ينال التوفيق والسعادة في الدارين.

(۹)التأسي بالصديقة الزهراء

إنّ أحد عشر إماماً معصوماً سلام الله عليهم هم من ذريّة مولاتنا فاطمة الزهراء سلام الله عليها وطاعتهم مفروضة وهم أسوة وحجج على الخلق أجمعين وسيّدتنا الزهراء سلام الله عليها حجّة عليهم، كما ورد في الحديث الشريف عن الإمام الحسن العسكري سلام الله عليه: «نحن حجج الله على خلقه وجدّتنا فاطمة حجّة علينا». ومعنى هذا أنّه من الواجب على الإمام الحسن والإمام الحسين وباقي الأئمّة الهداة الأطهار سلام الله عليهم أن يتأسّوا بأمّهم البتول سلام الله عليها.

لقد شاءت إرادة الله سبحانه أن لا يخلق قبل مولاتنا الزهراء وبعدها امرأة بمستوى فضلها ومقامها سلام الله عليها.

حضرت امرأة عند الصديقة فاطمة الزهراء سلام الله عليها فقالت: إنّ لي والدة ضعيفة وقد لبس عليها في أمر صلاتها شيء، وقد بعثتني إليك أسألك. فأجابتها فاطمة سلام الله عليها عن ذلك، ثم ثنّت، فأجابت، ثم ثلّثت [فأجابت] إلى أن عشّرت فأجابت، ثم خجلت من الكثرة، فقالت: لا أشقّ عليك يا بنت رسول الله. قالت فاطمة سلام الله عليها: هاتي وسلي عمّا بدا لك، أرأيت من اكترى يوماً يصعد إلى سطح بحمل ثقيل، وكراؤه مائة ألف دينار، أيثقل عليه؟ فقالت: لا. فقالت: اكتريت أنا لكلّ مسألة بأكثر من ملء ما بين الثرى إلى العرش لؤلؤاً، فأحرى أن لا يثقل عليّ، سمعت أبي [رسول الله] صلى الله عليه وآله يقول: «إنّ علماء شيعتنا يحشرون، فيخلع عليهم من خلع الكرامات على قدر كثرة علومهم وجِدِّهم في إرشاد عباد الله، حتى يخلع على الواحد منهم ألف ألف خلعة من نور».

لذا يجدر بالأمّهات والنساء المؤمنات عامّة أن يتأسّين بسيّدتنا الصديقة الكبرى سلام الله عليها في كلّ شيء، فيتعلّمن المسائل الشرعيّة وعلوم أهل البيت سلام الله عليهم، ويسعين في تعليم قريناتهن.

إنّ علوم أهل البيت سلام الله عليهم موجودة في الأحكام والعقائد والآداب والسنن، فاسعين إلى تعلّمها بعمق وعلّمن الأخريات اقتداءً بمولاتنا فاطمة سلام الله عليها، وبمقدار ما تبذلن من الجهد والسعي في هذا المجال تنلنَ يوم القيامة القرب من مولاتنا سيّدة نساء العالمين سلام الله عليها.

إنّ كثيرات من بنات اليوم لا يعرفن المسائل الشرعية ولا آداب الإسلام ولا ثقافته، فأوصيكنّ أن تنتهزن العطلة الصيفيّة وتسعين في

جمع النساء من أقاربكن ومن محلّتكن، واعقدن لهنّ جلسات تعليم أصول الدين وأحكامه وأخلاقه وآدابه وسننه.

فعلى كل واحد منّا واجبان: الأوّل العمل بأحكام الإسلام، والثانى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. فنحن مكلّفون بإعطاء الخمس وتحفيز الآخرين على ذلك. فالذى يخمّس ولا ـ يأمر بالمعروف، أو لا ـ يحفّز الآخرين على دفع الخمس، فإنّه قد عمل بواحد من الواجبين. والذى يخمّس ويأمر بالمعروف أو يدعو الآخرين لدفع الخمس، فإنّه قد عمل بالواجبين، والذى يترك كلا العملين فإنّه تارك لكلا الواجبين.

إنّ هذين الواجبين، واجبان مستقلّان عن بعضهما. لذا لا ينبغى لنا أن نترك تبليغ وتعليم أحكام الدين إن لم نوفّق للعمل بهما. بل من الجدير ضمن سعينا فى تبليغ وتعليم أحكام الإسلام للآخرين أن نسعى فى العمل بأحكام الإسلام وأن نطبّق ما نقول.

(۱۰) السعى فى قضاء حوائج الناس

كان أحد الطلبة يسمّى(الشيخ محمد الكوفى) يسكن فى مدينة النجف الأشرف، وبعد فترة سكن مدينة الكوفة واتخذ من إحدى غرف مسجد الكوفة سكناً له، وكان من المواظبين على زيارة مسجد السهلة وذلك فى عصر مرجع الشيعة الكبير سماحة السيّد أبى الحسن الإصفهانى رحمة الله عليه أيّام كان يعطى كلّ واحد من الطلبة ديناراً شهرياً مع كميّة من الخبز تكفى لشهر واحد، حيث كان الطلاب يستلمونها من المخابز على حساب السيّد.

وكان الشيخ محمد الكوفى يذهب إلى النجف الأشرف مرّة كل أسبوع فيستلم مقداراً من الجبن واللبن ويجفّفهما ليستطيع الاستفادة منهما خلال أسبوع، كما كان يستلم معهما وجبة من الخبز، وكذلك كان خادم مسجد الكوفة يعطيه ما يفضل من طعامه.

وذات يوم دخل الشيخ محمد على السيّد أبى الحسن وأخذ يبكى بكاءً شديداً، وبعد أن سأله السيّد: ممّ بكاؤك؟ قال: كنت لسنين أبحث عن مولاى الحجّة بن الحسن عجّل الله تعالى فرجه الشريف، فرأيته ذات مرّة ولكننى ما عرفته وعندما تعرّفت عليه فقدته.

فسأله السيّد: وكيف حدث ذلك؟ قال: كنت ماشياً فى الطريق الذى يربط بين مسجدى الكوفة والسهلة، فأحسست أنّ خلفى شخصاً، فقال لى: يا شيخ محمد، من أين تأكل؟ فقلت: من دينار وخبز السيّد أبى الحسن الإصفهانى الذى يعطيهما معونة للطلاب. فقال لى: قل للسيّد أبى الحسن: «رخّص نفسك، واجلس فى الدهليز واقض حوائج الناس، نحن ننصرك». فتناول السيّد أبوالحسن على الفور ورقة وكتب فيها هذه الوصية.

وقد نقلوا عن السيّد رحمه الله قوله: عندما كنت أحسّ بالتعب والضغط جرّاء الأعمال اليومية والمسؤوليات كنت أتناول هذه الورقة واقرأ ما أوصى به مولاى الحجة عجّل الله تعالى فرجه فكان التعب يذهب عنى، ومعنوياتى تتجدد.

لقد رحل السيّد أبوالحسن ولكن وصيّة مولانا صاحب العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف باقية وهى وصيّة للجميع.

إذاً علينا أن لا ـ نعطى مجالاً للتعب، وأن نتنزّه عن عبارات من قبيل: هذا ليس من عملى، أو ليس بشأنى، أو وقتى ثمين و ... فأئمّتنا الهداة الأطهار صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كانوا يقضون معظم أوقاتهم فى قضاء حوائج الناس. ثم إنّ وقتنا ليس بأقدس وأعزّ من أوقاتهم سلام الله عليهم.

ولعلّ أحدنا يصرف بعض وقته لشخص بسيط فيقضى حوائجه بمقدار ما يتمكّن، فيتبين أنّ ذلك الشخص هو ولىّ من أولياء الله تعالى، كما ورد فى الحديث الشريف عن مولانا سيّد الشهداء الإمام الحسين صلوات الله وسلامه عليه حيث قال: «إنّ الله عزّ وجلّ أخفى أربعة فى أربعة ...: وأخفى أولياءه فى الناس فلا يستصغرنّ أحدكم أحداً؛ فإنّه يوشك أن يكون ولياً لله تعالى»....

(۱۱) الأجر على قدر المشقّة

قال الله عزّ وجلّ?: فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ?

إنّ الله تبارك وتعالى شبّه أحوال الدنيا بالسيل الذى يجرف فى طريقه كثيراً من الأشياء الخفيفة كالشوك ونشارة الخشب والتبن وما شابه ذلك. ولأنّ هذه الأشياء خفيفة فهى تُرى على سطح الماء طافية ولكن بعد مدّة تزول وتختفى وتبقى الأشياء النافعة والمفيدة.

لقد شاءت إرادة الله تعالى أن لا تخلو أمور الدنيا من المشاكل؛ لذلك ترى أنّ أفضل مَن خلق الله تعالى ومَن لأجلهم خلق الكون بأفلاكه وهم فاطمة وأبوها وبعلها وبنوها صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين قد تعرّضوا خلال تبليغهم رسالة ربّهم إلى أشدّ أنواع الأذى والظلم والاعتراض والمخالفة.

ولئن كان المؤمنون المبلّغون لا يواجهون اليوم ردود فعل سلبية أو مشاكل خلال ممارستهم للتبليغ فى مكان ما، فلعلّ مردّه التضحيات التى بذلها السلف الصالح، وما تحمّلوه من المتاعب والمشاقّ فى هذا السبيل.

على سبيل المثال: إنّ مدينة إصفهان وهى إحدى المدن المعروفة بتمسّكها بالتشيّع والتى ينطلق منها الكثير من المبلّغين إلى أرجاء العالم كان أهلها فى فترة من الزمن لا يكتفون بردّ الفعل السلبى تجاه المبلّغين وعلماء التشيّع بل كانوا لا يطيقون سماع كلمة (الشيعة). ولكن إثر جهود وتضحيات العلماء الأعلام كالعلّامة المجلسى والمحقّق الكركى وأمثالهما رضوان الله تعالى عليهم باتت إصفهان اليوم إحدى المدن الكبرى المتمسّكة بالولاء والحبّ لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله.

إنّ التعامل السلبى مع المبلّغين الشيعة اليوم أقلّ من الماضى، وإذا راجعتم كتاب (شهداء الفضيلة) للعلّامة الأمينى رضوان الله تعالى عليه يتّضح لكم مدى الأذى والمشاقّ والتعذيب الذى تعرّض له السلف الصالح فى نشر علوم أهل البيت سلام الله عليهم، بل إنّ بعضهم كان يُلقى حيّاً فى النار.

قبل زهاء ألف سنة كانت الدراسة والتأليف والتحقيق عملاً شاقّاً جدّاً، حيث إنّ جمع بضعة أحاديث كان يتطلّب زماناً لا يقلّ عن سنة، وربّ شخص كان يصرف الكثير من الجهود ويتحمّل الكثير من مشاقّ السفر علّه يسمع من محدّث ما حديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «علىّ مع الحقّ والحقّ مع علىّ يدور معه حيثما دار» أو «فاطمة بضعة منّى من آذاها فقد آذانى». حيث إنّ العثور على حديث واحد فى ذلك الزمان، كان أصعب من تهيئة عدد من الكتب فى زماننا الحاضر، بل إنّ كلّ من كان يحمل معه ورقة فيها حديث حول منقبة من مناقب مولاتنا الزهراء سلام الله عليها، كان يعرّض نفسه للخطر.

يذكر أنّ شاباً (فى ذلك الزمان) كان يسكن فى الكوفة وقد بذل عمره فى خدمة علوم أهل البيت سلام الله عليهم وجمع الكثير من الأحاديث التى تذكر ولاية آل الرسول صلى الله عليه وآله فى أوراق وعرضها على زملائه وقال لهم: أريد أن أخرج بهذه الأوراق من الكوفة لأنشرها فى بقية المناطق. فقالوا له: نتخوّف عليك من ذلك!!

وبما أنّه كان مصمّماً على ذلك مهما كلّف الثمن، اقترح عليه زملاؤه أن يذهب إلى مدينة البصرة لأنّ فيها قليلاً من الشيعة وحذّروه من الذهاب إلى مدينة إصفهان. ولكنه اختار الذهاب إلى مدينة إصفهان ليبلّغ ما كتبه فى أوراقه. فشدّ الرحال إلى إصفهان وتحمّل عناء السفر كالجوع ووجود الحيوانات الضارية والسرّاق والجلاوزة الذين كانوا مأمورين بقتل كلّ من يدعو إلى التشيّع، وشرع بممارسة عمله التبليغى ونشر ما كتبه فى أوراقه حتى استشهد على أثر ذلك.

لا شكّ أنّ مقام هذا الشابّ وعلماء السلف الصالح الذين بجهودهم تحوّلت إصفهان إلى مدينة شيعية سيكون عظيماً جداً يوم القيامة، والمثيب لهم هو مولانا رسول الله والأئمّة الهداة من آله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

إنّ تحمّل المشاقّ والمشاكل فى العمل التبليغىّ يعدّ من البديهيات، فلا ينبغى لنا الخوف من الأذى والمشاكل فى سبيل نشر ثقافة أهل البيت سلام الله عليهم، بل يجب الاقتداء بالسلف الصالح فى نذر أنفسنا للصعوبات والأذى.

فهذا «عطيّة» أحد علماء ومفسّرى الكوفة تحمّل التشريد عشرين سنة خوفاً من بطش الحجّاج، وعاش مع عائلته فى أقسى الظروف، وبعد هذه الفترة من الزمن قبض عليه الحجّاج الملعون فى إحدى مناطق إيران فأمر بجلده أربعمئة سوط ونتفوا لحيته؛ كلّ ذلك بسبب روايته للأحاديث التى تذكر مناقب مولاتنا فاطمة سلام الله عليها.

إنّ صعوبات العمل التبليغى تعدّ من الأمور الثمينة، وهذه المتاعب والآلام لها ثمن عظيم عند الله تعالى، وعاقبة مرارتها هى الحلاوة. وقد دعانا القرآن الكريم وأئمّتنا الهداة إلى الاعتبار بحياة الماضين. وإذا راجعتم صفحات التاريخ لرأيتم أنّ كثيراً من المؤمنين أمثال ذلك الشابّ الكوفى قد تعرّضوا إلى أنواع التعذيب وقضوا نحبهم تحت سياط الجلّاد. أنتم أيضاً سيذهب التعب عنكم، فحذار أن تكونوا من الذين يشعرون بالتقصير والخجل تجاه مولاتنا الصديقة الكبرى سلام الله عليها.

فلا تستصغروا أىّ عمل تبليغىّ، ولا تستهينوا بأىّ مفردة فى هذا الصدد، فلعلّ تفوّهكم بكلمة بسيطة بالظاهر تؤدّى إلى استبصار كثيرين بنور أهل البيت سلام الله عليهم ويتشيّع كثير ممن لا تعرفونهم، حينها يمكن القول: لقد فعلتم جميلاً وحسناً أن صرفتم أيّاماً من عمركم فى تبليغ ونشر علوم أهل البيت سلام الله عليهم، فلتطمئنّ قلوبكم أنّ كلّ ما تحمّلتموه من الآلام والصعوبات وكلّ مساعيكم فى هذا الطريق هى محفوظة عند الله جلّ شأنه وسيرعاكم مولانا بقية الله الأعظم عجّل الله تعالى فرجه الشريف برعايته ودعائه.

(١٢) هكذا تطول الأعمار

جاء فى الروايات الشريفة أنّه فى عصر إمامة مولانا الإمام موسى الكاظم صلوات الله وسلامه عليه خرج أخوان من مدينتهما وهما يريدان مكّة المكرّمة، فاصطحبا الطريق معاً إلى أن وصلا قرية، واختلفا فيها حول شىء ما، فتنازعا وتسابّا وتقاطعا، وأخذ كلّ منهما طريقاً غير طريق الآخر.

فجاء أحدهما واسمه يعقوب ودخل مكّة المكرّمة وحده، وكان مشغولاً بالطواف، فبعث إليه الإمام الكاظم سلام الله عليه رسولاً وقال له: أتريد موسى بن جعفر؟ قال: نعم، قال: اتبعنى.

«فلما رآه الإمام سلام الله عليه قال له: يا يعقوب! قدمت أمس ووقع بينك وبين أخيك شرّ فى موضع كذا وكذا، حتى شتم بعضكم بعضاً، وليس هذا دينى ولا دين آبائى، ولا نأمر بهذا أحداً من الناس، فاتّق الله وحده، لا شريك له، فإنّكما ستفترقان بموت. أما إنّ أخاك سيموت فى سفره قبل أن يصل إلى أهله، وستندم أنت على ما كان منك، وذلك أنكما تقاطعتما فبتر الله أعماركما. فقال له الرجل: فأنا جعلت فداك متى أجلى؟ فقال الإمام: أما إنّ أجلك قد حضر حتى وصلتَ عمّتك بما وصلتها به فى منزل كذا وكذا، فزيد فى أجلك عشرون.

قال: فأخبرنى الرجل ولقيته حاجّاً أنّ أخاه لم يصل إلى أهله حتى دفنه فى الطريق».

هذه القصّة ذاتها تتكرّر فى كلّ زمان ولكلّ الناس، فلا خصوصيّة لهذين الأخوين، وإنّ عاقبة عمل الشرّ خصوصاً عقوق الوالدين وقطع الرحم هى تقريب أجل المرء، وعمل الخير وخصوصاً برّ الوالدين وصلة الرحم ينسئ الأجل، كما ورد ذلك فى الأحاديث الشريفة.

لذا ينبغى لكلّ فرد أن يعزم على عمل الخير مهما كان وبقدر ما يستطيع ويتمكّن، ولا يترك ذلك، سواء كان للوالدين أو الأقارب أو الجيران أو شركاء العمل وغيرهم، ولا يتوانى فى تقديم الخدمة لأىّ أحد من الناس.

يقول الإمام أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه: «وصدقة العلانية فإنّها تدفع ميتة السوء، وصنائع المعروف وتقى مصارع الهوان».

كما أنّ من المهم ترك جميع صور الشرّ من ظلم وإيذاء وما شابه ذلك، لأنّ عمل الشرّ يحيق بالإنسان والعياذ بالله. فعمل الشرّ يبتر عمر الإنسان، وعمل الخير يطيله.

وما يصيب الإنسان أحياناً من بلاء أو مشكلة قد يكون تقديراً من الله تعالى لرفع الدرجة فى الآخرة، وقد يكون لتقصير أو لمعصية أو لظلم أو لقطع رحم. فليحاول الجميع خصوصاً الأحداث والشباب أن يعزموا على ترك الشرّ وإن كان صغيراً، فالعزيمة على ذلك تقلّل من ممارسة عمل الشرّ. واعزموا على عمل الخير وإن كان صغيراً، فالعزم على ذلك يزيد من توفيق عمل الخير. وكلّ ما يصنع بكم ورأيتموه خيراً فاصنعوا مثله لغيركم، وكل ما رأيتموه شراً لكم فاجتنبوا فعله للآخرين.

(۱۳) منهل السعادة

ينشد السعادة كلّ إنسان ويبحث عنها، ويسعى لها كل جدّه واجتهاده، وبعض الناس يعيشون السعادة، وكثير منهم لا يعيشونها. فأين تكمن السعادة؟

إنّ أصل السعادة ومنبعها هو الرضا بما قسم الله جلّ وتعالى. وليست بالمال أو العلم أو الشباب أو صحّة البدن أو فى الوظيفة أو فى الشخصية أو فى العشيرة أو الأقارب الكثيرين، أو فى السمعة الطيبة؛ بدليل أنّ هنالك العديد ممّن توفّرت عندهم هذه الأمور لكن مع ذلك تراهم متعبين نفسياً، أو يقدمون على الانتحار والعياذ بالله.

لذا، فالملاك فى السعادة أن يجد الإنسان نفسه قانعاً بمقدار ما يوجد فى أعماق نفسه من رضا بما قسم الله سبحانه له، سواء كان شاباً أو كبير السن، فتاة أو عجوزاً، متزوجاً أو أعزب، رجلاً ـ أو امرأة، غنياً أو فقيراً، جامعياً أو حوزوياً، وفى أىّ مجال كان. فإذا رضى مئة بالمئة، فهذا سعيد مئة بالمئة، وهكذا.

إنّ الآيات المباركة فى القرآن والأحاديث الشريفة عن المعصومين الأربعة عشر صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين قد أكّدت هذا الأمر كثيراً. ففى محكم التنزيل قال الله تعالى?: لِكَيْلا ـ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ، ?وفى دعاء الإمام زين العابدين سلام الله عليه الذى نقرأه فى أسحار كلّ يوم من شهر رمضان المبارك والمعروف بدعاء أبى حمزة الثمالى الذى لو قرأه المرء مرّة واحدة بتأمّل وتفهّم دقيقين، فإنّه سيرجى عند الانتهاء منه أن يكون مستجاب الدعوة من الله إن شاء الله تعالى نقرأ فى آخر سطر منه العبارة التالية: «ورضّنى من العيش بما قسمت لى».

إنّ امرأة فرعون كانت تعيش مع أسوأ الرجال، حيث كان طاغوتاً وجبّاراً وظالماً، فرضيت بما قسم الله لها، حين قالت كما أخبر عنها قوله تعالى?: رَبِّ ابْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ?فكانت امرأة سعيدة، وصارت نموذجاً للاقتداء والتأسّى. فالله تعالى فى كتابه العزيز يدعو النساء والرجال إلى التعلّم منها، وهذا هو أساس السعادة.

إنّ الرضا بما قسم الله ليس معناه أن لا يسعى الإنسان فى رفع مشاكله أو سدّ نواقص حياته أو دفع معاناته، بل عليه مع ذلك أن يكون قانعاً بما قسمه الله عزّ وجلّ له، حتى يهنأ فى معيشته وحياته.

إنّ الذى يرضى بما قسم الله له لا يتعرّض للأمراض، سواء البدنية منها أو النفسية ولا يقتل نفسه أبداً، وهذا أمر بالغ الأهمية وله آثار إيجابية كبيرة. فينبغى لكلّ مؤمن أن يعزم عليه ويعمل به دوماً، حتى يهنأ ويسعد فى عيشه.

(۱۴) سرّ النجاح

يخاطب الله تعالى نبيّه فى القرآن الكريم بقوله عزّ من قائل:

?فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ.?

وفى آيات أخرى يأمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يتعلّموا من النبىّ ويقتدوا به فى حياتهم ويتّخذوه أسوة لهم؛ قال سبحانه?: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ.?

لو أردنا أن نبحث عن الإنسان الناجح والموفّق فى حياته، فلا ريب أننا سنجده فى ذلك الذى اقتدى بالنبىّ صلى الله عليه وآله وأهل بيته سلام الله عليهم، ولا ـ غرو أن يكون أحسن الناجحين والموفّقين فى الحياة؛ وذلك لأنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله كان المثل الأعلى للإنسان فى قوله وصمته، وسرّه وجهره، وفى فعله وتركه، وفى كلّ أحواله، بل فاق وسما على كلّ الشخصيات فى العالم منذ بدء الخلق وحتى انتهائه، بشهادة المؤمنين به وغيرهم.

لقد ألّف كاتب مسيحيّ كتاباً دوّن فيه أسماء أعظم مئة شخصية في تاريخ العالم أو (المئة الأوائل) كما سمّاهم، وذكر في المقدّمة أنّه جعل الترتيب حسب الأولوية من حيث نجاح الشخصية في حياتها وتحقيقها للأهداف التي كانت تصبو إليها، وليس حسب التسلسل الزمني، فجعل رغم أنّه رجل مسيحيّ اسم نبيّنا أوّل الأسماء إذ عدّه صلى الله عليه وآله الشخصية الأنجح.

فما هو السرّ وراء نجاح النبيّ صلى الله عليه وآله في حياته، رغم كلّ الحروب والضغوط التي تعرّض لها من قومه وغيرهم منذ أن أعلن دعوته حتى استشهاده صلوات الله عليه وآله؟

من الأسباب الرئيسية التي تكمن وراء هذا النجاح الباهر ما ذكره القرآن الكريم في مواطن عديدة؛ منها الآية التي صدّرنا بها الكلام أعني قوله تعالى?: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ ? أي لينه صلى الله عليه وآله.

لقد كان رسول الله ليّناً، ولم يكن فظّاً مع أيّ أحد، ليس فقط كنبيّ في تعامله خلال دعوته، بل كزوج مع زوجته وكأب مع أولاده، وهكذا كقائد مع جنده. فرغم أنّه كان يمثّل القائد الأعلى للقوّات المسلحة وكانت إشارة واحدة منه تكفي لإيقاف القتال أو استمراره، لكنّه لم يستعمل الشدّة في الحديث مع أحد من جنده وأصحابه، بل حتى مع أعدائه، وإنما كان عذب اللسان رحب الجنان دائماً.

أمّا في مجال تبليغ رسالته، فرغم كلّ الضغوط والصعوبات التي تعرّض لها من قومه، ومعارضتهم الشديدة لدعوته، حتى شنّوا عليه الحروب في بدر وأُحُد وغيرهما، وهو من عُرف بينهم قبل ذلك بالصادق الأمين، رغم كلّ ذلك لم يُعهد أنّه صلى الله عليه وآله تعامل بفظاظة مع أحد منهم طيلة حياته المقدّسة، مع أنّه لم يكن حاشاه إنساناً ضعيفاً من حيث القوّة البدنية أو النفسية، فكان يتألّم ويغضب كسائر البشر، بل كان يملك من القوّة البدنية ما يعادل قوّة أربعين رجلاً كما ذكرت الروايات ولكنه كان يحظى بأخلاق عالية جداً، ولذلك كان يعامل المسلمين، بل حتى أعداءه بالمحبّة والأخلاق الحسنة، فكان بأخلاقه العظيمة يكسب أعداءه ويحوّلهم إلى أصدقاء، ويزيد من محبّة أصدقائه له.

لقد عاش النبيّ في قومه أربعين سنة لم يُعرف عنه أنّه آذى أحداً، بل كان الوحيد الذي لُقّب من بين العرب بالصادق الأمين، ولكن ما إن أعلن دعوته حتى بدأت مضايقاتهم له ومقاطعاتهم وحروبهم التي استمرّوا عليها مدّة عشرين عاماً، تحمّل خلالها هو وأصحابه الجوع والشدائد وحوصروا في شِعب أبي طالب، وهاجروا إلى يثرب، وكم من محاولات قاموا بها لقتله صلى الله عليه وآله ولكن الله تعالى حفظه منها ... ورغم كل ذلك استطاع النبيّ أن يبني دولته وينتصر على مشركي مكّة في جميع الحروب التي شنّوها عليه بقوّة الأخلاق قبل قوّة السيف؛ حتى جاء في الروايات أنّه:

«لما دخل النبيّ صلى الله عليه وآله مكّة كانت إحدى الرايات بيد سعد بن عُبادة وهو ينادي: اليوم يوم الملحمة اليوم تسبى الحرمة، أذلّ الله قريشاً. فسمع أبو سفيان، ونادى: يا رسول الله أمرت بقتل قومك! إنّ سعداً قال كذا، وإني أُنشدك الله وقومك؛ فأنت أبرّ الناس وأرحم الناس وأوصل الناس. فوقف النبي صلى الله عليه وآله وقال: بل اليوم يوم المرحمة، أعزّ الله قريشاً. وأرسل إلى سعد وعزله عن اللواء، وقال لعلي عليه السلام: خذ منه الراية وناد فيهم. وأخذ عليّ سلام الله عليه اللواء وجعل ينادي: اليوم يوم المرحمة».

إنّ مطالعة سيرة الرسول صلى الله عليه وآله تكشف لنا أنّه كان بإمكانه أن يقتل أعداء الرسالة ويحقّ له ذلك لكنّه صلى الله عليه وآله مدّ لهم يده الرحيمة وأخرجهم بأخلاقه العظيمة مما هم فيه من هاوية الوثنيّة والشرك؛ لأنّه نبيّ الرحمة واللين، كما عبّر القرآن الكريم.

وبهذه المناسبة أوصي المؤمنين بثلاث وصايا، وهي:

١. إقامة الأفراح خلال أيّام السنة في ذكرى مواليد وأفراح أهل البيت سلام الله عليهم. فضلاً عن إحياء مراسيم الحزن خلال شهري محرم وصفر تطبيقاً لقول الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه: «إنّ الله اطلع إلى الأرض فاختار لنا شيعة ينصروننا ويفرحون لفرحنا ويحزنون لحزننا ويبذلون أنفسهم وأموالهم فينا، أولئك منّا وإلينا».

٢. تقديم الخدمات الاجتماعية، ومن أبرز مصاديقها المساعدة في تزويج الشباب لأنّ حالة الشباب في المجتمعات الإسلامية اليوم لا

يرضى الإمام الحجّة عجّل الله تعالى فرجه الشريف بل يؤلمه جداً، وأداء هذه المسؤولية التى تمثّل تطبيقاً لوصية النبى صلى الله عليه وآله لا تقع على عاتق طبقة أو فئة من المجتمع بل هى مسؤولية الجميع كلّ من موقعه وحسب قدرته.

۳. تحسين الوضع الاقتصادى والمعاشى للمؤمنين من خلال المعونة على المستويات كافّة، مثل افتتاح صناديق قروض بعيدة الأجل لمساعدة المحتاجين فى حلّ مشاكلهم الاقتصادية والمعيشية.

إنّ مسؤولية كل فرد منكم اليوم هى المشاركة فى إنشاء مؤسسات ثقافية تقوم بنشر ثقافة أهل البيت سلام الله عليهم، سواء على الصعيد المالى أو الثقافى أو الدعم المعنوى والتشجيع واستثمار كلّ علاقاته وإمكاناته وصبّها فى هذا المجال.

(۱۵) العمل من أجل إيجاد مجتمع مؤمن

قال الله تعالى فى كتابه الكريم?: أَقِيمُوا الدِّينَ، ?ولا ريب أنّ هذه المسؤولية تقع على عاتق الجميع رجالاً ونساءً، شيباً وشباباً.

تارة يأمرنا الله تعالى بالفروع أو المقدّمات فيقول?: أَقِيمُوا الصَّلاةَ ?أو? كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ?أو? وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ... ?

وتارة يأمرنا بالنتيجة مباشرة فيقول عزّ من قائل?: أَقِيمُوا الدِّينَ.?

وهذا معناه وجوب أداء كلّ ما من شأنه أن يساهم فى إقامة الدين، كالقيام بالفروع والواجبات الشرعية المتقدمة، وكذلك الدروس الحوزوية وبناء المساجد والحسينيات والمدارس، وطبع الكتب ونشرها، والخطابة والتأليف، والتبليغ والإعلام واكتساب المعلومات الصحيحة والعلوم الجديدة، وبكلمة: كلّ عمل تكون نتيجته إقامة الدين.

والدين يشمل الواجبات والأحكام والآداب والأخلاق. ويجب على الجميع العمل من أجل إيجاد مجتمع متديّن؛ كلٌّ حسب ما حباه الله سبحانه من طاقات ومواهب وإمكانات. ومن يقصّر فسيكون مسؤولاً أمام الله تعالى.

صحيح أنّ الشخص بمفرده لا يمكنه إيجاد مقدمات بناء المجتمع المؤمن فى كل مكان، كما لا يمكنه أن يسافر إلى كل البلدان لِيُقيم فيها الدين، فيكون معذوراً عمّا خرج عن قدرته ولكن هذا لا يعفيه من العمل ضمن ما تيسّر له.

قسّ نصرانى يسمّى (سنسن) عاش فى زمن رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يعتنق الإسلام إلى أن مات، وكان عنده ولد واحد يسمّى أعين، اعتنق الإسلام وحفظ القرآن وأضحى أديباً بارعاً، وعقّب عشرة أولاد وبنتاً واحدة اسمها أمّ الأسود، الوحيدة من عائلتها التى أضمحت من المتمسكين بولاية أهل البيت سلام الله عليهم بادئ الأمر.

جاء فى كتب الرجال الشيعية أنّ هذه السيّدة دعت كلّ إخوتها إلى مذهب الحقّ، وبالفعل تشيّعوا جميعهم، وحسن تشيّعهم إلى درجة أصبح بعضهم من كبار ثقات الشيعة من المحدّثين والعلماء.

ترى ما هو الأمر الذى صار سبباً لأن تصل هذه السيدة إلى هذه الدرجة الرفيعة؟

لا شكّ أنّه الإخلاص والاجتهاد والأخلاق الحسنة.

أمّا الإخلاص: فمعناه أن لا يتعلّق قلب الإنسان بالدنيا بل يتعلّق بالله تعالى ونبيه وأهل بيته صلوات الله عليهم، وعند ذاك ستتحوّل عنده مرارة الدنيا إلى حلاوة الآخرة.

وأما الاجتهاد: فيعنى بذل الجُهد وترك الكسل، لأنّ الدنيا دار عمل وعناء ومن لا يعمل ويجدّ فيها لن يحصد فى الآخرة سوى الحسرة والندامة.

وأما الأخلاق: أن يقتدى الإنسان بسيرة النبى صلى الله عليه وآله وأهل بيته سلام الله عليهم، فيتحلّى بالصبر والحلم ودماثة الخلق حتى مع الذين يعاملونه بسوء الخلق.

بهذه الجمل الثلاث تتحوّل الجهود من القوّة إلى الفعل. وكلّ من يلتزم بهذه الأمور الثلاثة أكثر يبلغ درجة من التوفيق أعلى. ومن أراد الحصول على هذه الأمور فلابدّ له من أمر واحد وهو العزم والتصميم بعد التوكل على الله تعالى.

(۱۶) شروط الرقیّ

قال الله تعالی?: وَأَن لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاّ مَا سَعَى ?وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى.?

یقال: إنّ المرحوم صاحب الجواهر کان یتلقّی الـدرس عنـده مئات الطلاب وکان رحمه الله یشـجّعهم علی أیّ اسـتفسار أو إشـکال أو نقد أو اقتراح یلوح فی أذهانهم، وفی الدرس نفسه، لکی تترسّخ المطالب العلمیهٔ فی أذهان الطلاب عبر النقاش والسجال العلمی.

وفی أحـد أیّام الصـیف الحارّهٔ فی النجف الأشـرف، وبعـد أن ألقی الشـیخ (صاحب الجواهر) الـدرس وانتهی منه لم یتلقّ أیّ نقـد أو إشـکال أو اسـتفهام من أیّ من الطلبهٔ؛ فتوجّه إلیهم وقال: ما الذی حدث الیوم؛ إننی لم أسـمع الیوم أیّ نقد ولم یقل أیّ طالب شـیئاً؟! هل کان تدریسی وحیاً منزلاً؟!

قال الطلبـهٔ: الحقیقهٔ أننا لم نسـتطع أن نطالع أمس بسـبب کثرهٔ البعوض وشدّهٔ الحرارهٔ ولم یکن یومذاک مکیفات هواء أو مبرّدات ولا حتّی مراوح کهربائیهٔ.

فـالتفت صـاحب الجواهر وقـال: أجـل، کـان البعوض لیلـهٔ أمس کثیراً وقـد عانیت مثلکم، ومهما عملت للتخلّص منه ومن مضایقته لم أفلـح، ولکن بما أنی کنت ملزماً بالمطالعـهٔ للتحضیـر لـدرس هذا الیوم، لم یهدأ لی بال، وتذکرت أنّ عندنا غرفهٔ فی السـطح مهجورهٔ وأشـبه بمخزن، فقمت بخلع ملابسـی وائتزرت بمئزر وأخـذت کتبی ومصـباحاً وذهبت إلی تلـک الغرفـهٔ وجلست للمطالعـهٔ، ولم أبال لأنواع الحشرات التی کانت موجودهٔ هناک وکانت تمشی علی بدنی.

نعم، بمثل هذا بلغ صاحب الجواهر ما بلغ من المنزلهٔ العلمیهٔ.

لذا یجب علی طالب العلم إن أراد أن یوفّق أن یسـعی ویجدّ ویجتهد ویدرس جیّداً إلی جانب تحلّیه بالإخلاص والتوجّه إلی الله تعالی وأهل البیت علیهم السلام.

لقد تتلمذ عند المرحوم کاشف الغطاء الآلاف ولکن کم منهم بقی اسمه أو مؤلفاته؛ کما بقی اسم وذکر صاحب الجواهر.

إنّ طریق طلب علوم أهـل البیت سـلام الله علیهم جیـد جـدّاً ولکنّه بحاجـهٔ إلی همّـهٔ وعزیمـهٔ، مضافاً إلی التخلّی عن کثیر من الأـمور الأخری التی تهواها النفوس عادهٔ، حتی یتمکّن الشخص من بلوغ المراحل العالیهٔ فیه.

(۱۷) من سمات الأولیاء

فی المـأثور عَنْ عُبَـادَهَٔ الْکُلَیْبِیِّ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِیهِ، عَنْ عَلِیِّ بْنِ الْحُسَـیْنِ عَنْ فَاطِمَـهَٔ الصُّغْرَی عَنِ الْحُسَـیْنِ بْنِ عَلِیٍّ عَنْ أَخِیهِ الْحَسَنِ سـلام الله علیهم قَالَ: رَأَیْتُ أُمِّی فَاطِمَـهَٔ علیها السـلام قَامَتْ فِی مِحْرَابِهَا لَیْلَـهَٔ جُمُعَتِهَا، فَلَمْ تَزَلْ رَاکِعَـهًٔ سَاجِدَهًٔ حَتَّی اتَّضَحَ عَمُودُ الصُّبْـحِ، وَسَـمِعْتُهَا تَـدْعُو لِلْمُؤْمِنِینَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَتُسَـمِّیهِمْ وَتُکْثِرُ الـدُّعَاءَ لَهُمْ، وَلا تَدْعُو لِنَفْسِـهَا بِشَـیْءٍ، فَقُلْتُ لَهَا: یَا أُمَّاهْ، لِمَ لا تَدْعُونَّ لِنَفْسِکِ کَمَا تَدْعُونَّ لِغَیْرِکِ؟ فَقَالَتْ: یَا بُنَیَّ، الْجَارُ ثُمَّ الدَّارُ».

توجـد أدعیـهٔ کـثیرهٔ عن أهـل البیت سـلام الله علیهم صـیغتها أن یبـدأ الإنسـان بالـدعاء لنفسه أوّلاًـ ثم للآـخرین، مثـل: اللهم اغفر لی وللمؤمنین. واللهم اغفر لی ولوالدی، وهکذا.

لکنّ هذا الحدیث المأثور عن مولاتنا فاطمهٔ الزهراء سـلام الله علیها رغم قصره ینبئ عن سرّ خاصّ وأمر مهمّ جداً یرشد إلی الإیثار فی الدعاء.

یمکن للکثیر من الناس أن یسترخصوا من قیمهٔ الدعاء کونه لا یحتاج إلی مال ولا جهود ولا وقت طویل. لکنّ سیّدتنا الزهراء سلام الله علیها تعرف قیمـهٔ الـدعاء وتقـدّر مـدی تأثیره، کیف لا، وهو یعـدّ مصداقاً لواحدهٔ من الوسائل فی التکلّم مع خالق کلّ شـیء، والقادر علی کلّ شیء وهو الله جلّ شأنه، معطی کلّ نعمهٔ وصارف کلّ نقمهٔ. لذلک آثرت سلام الله علیها الدعاء لغیرها علی الدعاء لنفسها.

لاشك أنّ كل واحد منّا بحاجة للدعاء كما فى قوله تعالى ?: قُلْ مَا يَعْبَأَ بِكَمْ رَبِّى لَوْلا دُعَاؤُكُمْ ?وفى الحديث النبوىّ الشريف: «الدعاء مخّ العبادة» والمخّ هنا معناه الأساس، لكن أن يؤثر المرء غيره حتّى فى الدعاء، فهذا من الفضائل الرفيعة والراقية جداً والتى لا نجدها إلاّ عند أهل البيت. فهم سلام الله عليهم علاوة على إيثارهم برزقهم وبالحاجات الدنيوية قد آثروا غيرهم على أنفسهم فى الدعاء أيضاً.

إذاً ينبغى أن نتأسّى بأهل البيت سلام الله عليهم ونتعلّم منهم كيفية إيثار غيرنا على أنفسنا حتى فى الدعاء. فعلى المؤمنين أنّ يؤثروا أرحامهم على أنفسهم، وعلى الأولاد أن يؤثروا الوالدين على أنفسهم، وعلى الوالدين أن يؤثروا أولادهم على أنفسهم، وهكذا الجيران والأصدقاء وزملاء العمل ... علماً أنّ هذا الخصلة من الإيثار تعود على الإنسان بأمرين:

الأوّل: إذا دعوت لغيرك فهناك ملائكة ستدعوا لك بضعف ما دعوت لغيرك ورد فى الحديث الشريف عن أبى عبد الله سلام الله عليه، قال: «دعاء المسلم لأخيه بظهر الغيب يسوق إلى الداعى الرزق، ويصرف عنه البلاء، وتقول له الملائكة: لك مثلاه» فمن يريد الرزق والذرّية الصالحة والتوفيق من الله تعالى فليدعُ بها لغيره حتى تعود عليه بأضعاف كثيرة.

الثانى: كما أنّ الإيثار له ثمرات وآثار إيجابية فى الدنيا، كذلك له درجة رفيعة وأجر عظيم فى الآخرة.

(۱۸) مسؤولية العلماء

إنّ للعلم والعلماء مكانة شامخة فى الإسلام كما نجد ذلك فى قول الله سبحانه?: قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ.? وهذه المكانة السامية تتبعها مسؤولية بحجم وبنسبة ما لها من الشموخ والسموّ.

روى عن الحارث بن المغيرة وهو من أجلاّء وثقات أصحاب الإمام الصادق سلام الله عليه أنّه قال:

لقينى أبو عبد الله الصادق سلام الله عليه فى طريق المدينة فقال: «من ذا، حارث؟» قلت: نعم، قال: «لأحملنّ ذنوب سفهائكم على علمائكم»! فأتيته واستأذنت عليه فدخلت فقلت: لقينى من ذلك أمر عظيم، فقال: «ما يمنعكم إذا بلغكم عن الرجل ماتكرهون، ومايدخل علينا به الأذى أن تأتوه فتؤنّبوه وتعذلوه، تقولوا له قولاً بليغاً؟» فقلت له: جعلت فداك إذاً لايطيعونا، ولايقبلون منّا، فقال: «اهجروهم واجتنبوا مجالستهم».

إنّ هداية الناس واجب شرعىّ مميّز، وواجبنا نحن أهل العلم لاينحصر بأنفسنا فقط بل نحن مسؤولون عن غيرنا أيضاً. وهذا يحتّم علينا حسب قدرتنا وإمكاننا أن نسعى فى تهيئة الأجواء الصالحة لهداية الآخرين. فالأجواء الصالحة تربّى جيلاً صالحاً، والعكس بالعكس أيضاً.

كان فى عصر الإمام الجواد والإمام الهادى سلام الله عليهما أخوان أحدهما تربّى فى أحضان أهل البيت، فصار من الثقات ويعتمد على رواياته كلّ فقهاء الشيعة بدءاً من الشيخ المفيد رضوان الله عليه وإلى علماء عصرنا الراهن ذلكم هو محمد بن فرج الرخجى، بينما الآخر عمر بن فرج الرخجى الذى تربّى فى أحضان حكّام بنى العباس مع المأمون والمعتصم والمتوكّل فكان متناقضاً مع أخيه تماماً حيث لقى منه أهل البيت سلام الله عليهم وشيعتهم مظالم كثيرة، حتّى أودى به سوء فعله أن سلّط الله تعالى عليه من لا يرحمه، ذلك بعد ما عمل ما أثار به غضب المتوكّل فسجنه وصفّده بالحديد ثم قضى عليه. ولبيان مدى خبث هذا الشخص أذكر لكم الرواية التالية:

«عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِنَانٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِى الْحَسَنِ (الهادى) سلام الله عليه فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! حَدَثَ بِآلِ فَرَجٍ حَدَثٌ؟ فَقُلْتُ: مَاتَ عُمَرُ. فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ. حَتَّى أَحْصَيْتُ لَهُ أَرْبَعاً وَعِشْرِينَ مَرَّةً. فَقُلْتُ: يَا سَيِّدِى لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ هَذَا يَسُرُّكَ لَجِئْتُ حَافِياً أَعْدُو إِلَيْكَ. قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَوَ لا تَدْرِى مَا قَالَ لَعَنَهُ اللَّهُ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ أَبِى (الجواد)؟ قَالَ: قُلْتُ: لا. قَالَ: خَاطَبَهُ فِى شَيْءٍ فَقَالَ: أَظُنُّكَ سَكْرَانَ. فَقَالَ أَبِى: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّى أَمْسَيْتُ لَكَ صَائِماً فَأَذِقْهُ طَعْمَ الْحَرْبِ وَذُلَّ الأَسْرِ، فَوَ اللَّهِ إِنْ ذَهَبَتِ الأَيَّامُ حَتَّى حُرِبَ مَالُهُ وَمَا كَانَ لَهُ ثُمَّ أُخِذَ أَسِيراً وَهُوَ ذَا قَدْ مَاتَ لا رَحِمَهُ اللَّهُ وَقَدْ أَدَالَ اللَّهُ عَزّ وَجَلَّ مِنْهُ وَمَا زَالَ يُدِيلُ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ أَعْدَائِهِ».

إذاً علينا أن نعمل ما نهيّئ به الأجواء الصالحة في مختلف الأحوال وبشتّى الأساليب الشرعية، لكيلا نلام بعد ذلك؛ قال تعالى: ?لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ.?

إنّ المطلوب هو الالتزام العمليّ بما نعلمه من الدين ليقتدي بنا الآخرون، والالتزام بالأخلاق العملية واللفظية في ممارسة الهداية مع الناس، كما يفترض بنا ممارسة التبليغ والموعظة والإرشاد والتأليف والتربية لتتوافر أسباب الهداية المرجوّة، لنكون موفّقين وناجحين في إنجاز هذه المهمّة الجليلة إن شاء الله تعالى.

(١٩) شهر رمضان فرصة للتزكية والهداية

قال الله تعالى?: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.?

جاءت كلمة (لعلّ) في القرآن الكريم في موارد متعددة بمعنى الإيجاب، أي أنّ ما بعدها متحقّق. ومن تلك الموارد هذه الآية، فمعناها: إذا صمتم فستصيرون متّقين حتماً.

ولا يخفى أنّ للصوم مراتب، والصائم الذي يبلغ التقوى هو الذي يكون صائماً حقيقة، لا الذي يصفه الإمام عليّ سلام الله عليه بقوله: «كم من صائم ليس له من صومه إلاّ الظمأ والجوع»، بل الذي يصوم وتصوم جوارحه أيضاً. فصوم كهذا لا شك سيكون سبباً لأن يصير إنساناً متّقياً، كما في الحديث عن الإمام الصادق سلام الله عليه: «اذا صمتَ فليصُمْ سمعك وبصرك وشعرك وجلدك».

وكذلك للتقوى مراتب، ومفتاح ذلك كلّه بأيدينا، فإنّ الله تعالى قد خلق فينا القابلية لأن نستفيد من الصوم أكثر، وذلك بأن يكون صومنا في اليوم الثاني من الشهر أفضل من صومنا في اليوم الأوّل، وهكذا.

كان النبيّ صلى الله عليه وآله يستقبل شهر رمضان من كلّ عام بخطبة يوجّه فيها المؤمنين إلى أهميّة هذا الشهر وضرورة الاستفادة منه؛ ولذلك فخُطَب النبي صلى الله عليه وآله وكذلك خُطَب الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه في استقبال شهر رمضان كثيرة، ومنها الخطبة المشهورة التي رواها الإمام أمير المؤمنين عن النبيّ صلى الله عليه وآله، والتي يسأل فيها الإمام عن أفضل الأعمال في هذا الشهر، فيجيبه رسول الله صلى الله عليه وآله بأنّه «الورع عن محارم الله تعالى». فحريّ بنا أن نقرأها ونتدبّر معانيها ونعمل بها ما وسعنا، والله سبحانه وتعالى يعيننا على ذلك.

إنّ الله تعالى يحبّ أن نتقرّب اليه أكثر فأكثر؛ لأنّه يحبّنا أكثر من حبّ الأمّ لابنها كما في بعض الروايات، بل يقول الله تعالى في كتابه الكريم?: إِلاَّ مَن رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ. ?والظاهر أنّ العلّة هنا منحصرة، واللام لام التعليل. اذاً ينبغي لنا أن نستفيد من هذا الشهر العظيم أكثر فأكثر ونزيد من اقتدائنا بأهل البيت سلام الله عليهم.

لقد كان الأئمّة سلام الله عليهم يدعون حتى لأعدائهم؛ فقد روي في المقاتل أنّ الإمام الحسين سلام الله عليه وبعد أن نزلت به كلّ تلك المصائب واستشهد أصحابه وأهل بيته وذُبح طفله الرضيع ... إلى ما غير ما مرّ به من المصائب، شوهد يبكي ومن المعروف أنّ المُقاتِل لا يبكي في ساحة الحرب؛ لأنّ ذلك يعدّ علامة على الضعف والانكسار فلماذا بكى الإمام الحسين سلام الله عليه؟ الجواب: لأنّه كان يرى أنّ هؤلاء الأعداء كلّهم سيكون مصيرهم إلى النار؛ فبكى لحالهم ومصيرهم الأسود!

هؤلاء أئمّتنا فلنكن من المؤتمّين بهم إن شاء الله تعالى، ولنتوسّل بهم في هذا الشهر أيضاً، فإنّ الله قد قرن عطاءهم بعطائه وفضلهم بفضله؛ قال تعالى?: وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْا مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ ?وقال تعالى ?: وَقَالُوا حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ، ?وهذا يعني أنّ الله تعالى يعطي، والنبيّ صلى الله عليه وآله يعطي على نحو التفويض، لأنّ عطاء النبي هو من الله أيضاً، وهكذا الأئمّة الأطهار الذين هم امتداد لجدّهم صلى الله عليه وآله لأنّهم كّلهم نور واحد. ولا يوجد طريق غيرهم يؤدّي إلى الله تعالى؛ حيث قال الإمام الباقر سلام الله عليه: «شرّقا وغرّبا فلا تجدان علماً صحيحاً إلاّ شيئاً خرج من عندنا أهل البيت».

ينقل أنّ الميرزا النائيني ذهب مرّة من النجف الأشرف إلى كربلاء المقدسة ماشياً مع تلامذته. وقبل أن يصلوا إلى كربلاء المقدسة

بحوالی ثمانیة کیلومترات أمطرت السماء بشدّة وابتلّت ملابسهم جمیعاً، ولما وصل المیرزا النائینی إلی کربلاء المقدسة مرض بسبب ذلک حتی أغمی علیه من شدّة الحمّی، ولما رأی الطلاب أنّه فی سکرات الموت أسرع بعضهم لاستدعاء طبیب، فیما ذهب أحدهم إلی قبر الإمام الحسین سلام الله علیه ووقف تحت القبّة ودعا لشفاء الشیخ. وبعد أن تعب عاد إلی المدرسة حیث یرقد الشیخ وکان فی حالة بین الیأس والرجاء من حال الشیخ؛ حیث لا یعرف أهو حیّ أم میّت؟

وعندما وصل إلی المدرسة رأی الشیخ جالساً، فسأله عن صحّته؟ فقال: إنّه بخیر وبصحّة تامّة! وقال: بینما کنت فی تلک الحالة رأیت الموت بأمّ عینی ورأیت ملائکة الموت، ورأیتک أیضاً تحت قبّة الإمام الحسین سلام الله علیه تدعو لی، وأظن أنّ دعاءک هو الذی صار سبباً لشفائی.

وأضاف: أمّا الشیء الغریب الذی رأیته فی تلک الحالة أیضاً، فهو أنّی رأیت الملائکة یأتون الیّ ویأخذون علومی واحداً واحداً، ولم یبق لی إلّا القرآن وروایات أهل البیت سلام الله علیهم، وفی لحظة رأیت أنّی قد شفیت.

أجل إنّ الله سبحانه وتعالی لم یجعل لنا طریقاً صحیحاً إلیه إلّا طریق أهل البیت سلام الله علیهم ولا یقبل منّا غیر هذا الطریق؛ قال تعالی?: وَابْتَغُوا إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ ?فعلینا أن نسعی لرضا الله سبحانه بجلب رضاهم، وأن نعرف کیف نرضیهم. فمن المسائل المهمّة عند أهل البیت سلام الله علیهم هی أن نکون فی کلّ یوم أفضل من الیوم الذی سبقه. وهذا الشهر المبارک هو شهر التزکیة فعلینا أن نزکّی أنفسنا فیه حتی نصیر أمثال زرارة أو علیّ بن مهزیار أو سلمان المحمّدی، وهذا لا یحتاج إلی أکثر من أن نصمّم حتی نوفّق إن شاء الله تعالی.

المسألة الأخری التی ینبغی الالتفات إلیها هو الاهتمام بهدایة الشباب وإرشادهم فی هذا الشهر، فإنّ النفوس تکون مهیّأة أکثر لاستقبال الموعظة، ولا تتصوّروا أنّ هؤلاء الشباب لا یهتدون، بل کثیر منهم إذا وجد الطریق الصحیح سلکه وربما صار من العظماء وصار سبباً لهدایة الآخرین مثل کثیر من أصحاب الرسول الأعظم والأئمّة المیامین صلوات الله وسلامه علیهم أجمعین.

إذاً علینا أن نستثمر فرصة هذا الشهر الکریم من أجل هدایة الشباب عبر تشکیل الجلسات لهم وأن نستمع إلی الشبهات التی تخالجهم فنرفعها، وأن نربّیهم فی هذا الشهر علی شیئین، هما:

۱. العقیدة الصحیحة.

۲. مکارم الأخلاق. فإنّ النبی صلی الله علیه وآله یقول: «إنّما بعثت لأتمّم مکارم الأخلاق».

فلربما اهتدی شابّ واحد وصار فیما بعد سبباً لهدایة المئات. والعکس صحیح أیضاً فربّ شاب فاسد صار سبباً لفساد المئات.

إنّ الانسان السائر فی طریق الله سبحانه تشمله النصرة الإلهیة؛ حیث یقول الله تعالی?: إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِی الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ?فلنزکّ أنفسنا فی هذا الشهر بالعمل الصالح، ولنعمل علی هدایة الشباب وإرشادهم إلی الطریق القویم.

(۲۰) شهر رمضان وتعمیم الثقافة القرآنیة

قال النبی الأکرم صلی الله علیه وآله: «إنّ القرآن شافع مشفّع وماحِلٌ مصدّق» أی یقبل الله تعالی شفاعته ویصدّق شکایته.

للتعاطی مع القرآن الکریم أربع مراتب:

المرتبة الأولی: أن یتعلّم الإنسان القرآن من ناحیة القواعد والحرکات والإعراب والتجوید والقراءة الصحیحة، وتعلیمها للآخرین.

المرتبة الثانیة: التدبّر فی القرآن ومعرفة معانیه.

المرتبة الثالثة: العمل بالقرآن.

المرتبة الرابعة: تطبیقه فی المجتمع.

لاشک أنّ المرتبتین الأخیرتین أرفع من المرتبتین الأولی والثانیة، فمن یعمل بالقرآن ویسعَ لتطبیقه فی المجتمع، فإنّ القرآن سیکون

شافعاً له، لأنّ الله تعالى لا يردّ شفاعة القرآن. أمّا من كان قادراً على ذلك ولم يفعل فإنّ القرآن يشتكى عليه يوم القيامة لأنّه ماحِلٌ مصدّق، كما فى الحديث الشريف المذكور آنفاً.

إنّ القرآن نورٌ، فإذا وصل هذا النور إلى الناس عبر الطريق الصحيح، أى بالحكمة والموعظة الحسنة، فلاشكّ سيؤثّر فيهم. ولكن علينا أوّلاً أن نهيّئ الأجواء بحيث يؤثّر فى الآخرين.

كذلك فإنّ القرآن هو الغذاء الروحىّ للإنسان، وكما أنّ الغذاء المادّى بحاجة إلى إناء نظيف يقدّم فيه ليرغب فيه الآخرون، كذلك الغذاء الروحىّ لابدّ له من وعاء نظيف مؤثّر.

ذهب أحد الأشخاص إلى أحد المراجع وقال له: لقد نصحت فلاناً ولكنه لم يقبل نصيحتى. فأرسل المرجع بطلب ذلك الشخص وسأله: لماذا لم تقبل نصيحة هذا الرجل؟ فقال: سله كيف نصحنى؟ وتبين أنّ الطريقة التى نصحه فيها لم تكن صحيحة.

إنّ الأنبياء والأئمّة سلام الله عليهم ما كانوا ينصحون أحداً بالضرب والشدّة، وإنّما كانوا ينصحون بالأخلاق الحسنة.

إنّ شهر رمضان هو ربيع القرآن، أى ربيع المراتب الآنفة كلّها من القراءة والتدبّر والعمل، إذاً ينبغى استثمار هذا الشهر المبارك فى تعلّم القرآن والعمل على تطبيق أحكامه حتى يكون المجتمع كلّه قرآنياً. وعلينا أن نسعى فى تعميم ثقافة القرآن بقدر الإمكان، من خلال تشجيع الآخرين على الحضور فى الجلسات القرآنية التى تنعقد فى هذا الشهر، وكلّ من يعمل أكثر فحسناته ستكون أكثر. والله تعالى يقول فى كتابه الكريم?: وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ.?

(۲۱) الدعاء مفتاح لحلّ المشكلات

بعض المشاكل التى يواجهها الإنسان مقدّرة له، ولا سبيل للخلاص منها، وليس أمامه إلاّ الصبر عليها وشكر الله على كل حال، ولكن مع ذلك لا ينبغى الجزع واليأس ولا ترك الدعاء والتضرّع، فإنّ الله تعالى يحبّ دعاء عبده المؤمن.

حدّث الشيخ الفاضل العالم الثقة الشيخ باقر الكاظمى المجاور فى النجف الأشرف آل الشيخ طالب نجل العالم العابد الشيخ هادى الكاظمى قال: كان فى النجف الأشرف رجل مؤمن من أهل العلم ذا نيّة صادقة يسمّى الشيخ محمد حسن السريرة، وكان مصاباً بالسُّعال، فإذا سعل يخرج من صدره مع الأخلاط دم، وكان مع ذلك فى غاية الفقر والاحتياج، لا يملك قوت يومه، يخرج فى أغلب أوقاته إلى البادية إلى الأعراب الذين يقطنون فى أطراف النجف الأشرف، ليحصل على قوت ولو شعير، ولم يكن على مبتغاه كفاية، رغم شدّة رجائه، وكان رغم ذلك قد تعلّق قلبه بامرأة من أهل النجف، وقد طلبها من أهلها وما أجابوه إلى ذلك لقلّة ذات يده، وقد أضحى فى همّ وغمّ شديدين من جهة ابتلاءاته.

فلما اشتدّ به الفقر والمرض وأيس من تزويج البنت، عزم على ما هو معروف عند أهل النجف الأشرف من أنّه من أصابه أمر فواظب على الذهاب إلى مسجد الكوفة أربعين ليلة الأربعاء، لا بدّ أن يرى صاحب الأمر عجّل الله فرجه من حيث لا يعلم و يقضى له مراده.

قال الشيخ باقر الكاظمى قدّس سرّه: قال الشيخ محمد: فواظبت على ذلك أربعين ليلة الأربعاء فلما كانت الليلة الأخيرة التى تزامنت مع ليلة شتاء مظلمة، مع هبوب رياح شديدة مع بعض الأمطار هبّت ريح، وأنا جالس فى الدكّة فى باب المسجد وكانت الدكّة الشرقية المقابلة للباب الأوّل تكون على الطرف الأيسر، عند دخول المسجد، ولا أتمكّن الدخول فى المسجد من جهة سعال الدّم، ولا يمكن قذفه فى المسجد، وليس معى شىء أتّقى فيه عن البرد، وقد ضاق صدرى، واشتدّ علىّ همّى وغمّى، وضاقت الدنيا فى عينى، وأفكّر أنّ الليالى قد انقضت، وهذه آخرها، وما رأيت أحداً ولا ظهر لى شىء بعد، وقد تعبت هذا التعب العظيم، وتحمّلت المشاقّ والخوف فى أربعين ليلة، أجىء فيها من النجف الأشرف إلى مسجد الكوفة، ويكون لى اليأس من ذلك.

فبينما أنا أفكّر فى ذلك، وليس فى المسجد أحد أبداً وقد أوقدت ناراً لأسخن عليها قهوة جئت بها من النجف الأشرف، لا أتمكّن من تركها لتعوّدى بها وكانت قليلة جداً إذا بشخص من جهة الباب الأوّل متوجّهاً إلىّ فلمّا نظرته من بعيد تكدّرت وقلت فى نفسى: هذا

أعرابی من أطراف المسجد، قد جاء إلیّ لیشرب من القهوة وأبقی بلا قهوة فی هذا اللیل المظلم، و یزید علیّ همّی وغمّی.

فبینما أنا أفكّر إذا به قد وصل إلیّ وسلّم علیّ باسمی وجلس فی مقابلی، فتعجّبت من معرفته باسمی، وظننته من الذین أخرج إلیهم فی بعض الأوقات من أطراف النجف الأشرف، فصرت أسأله من أی العرب یكون؟ قال: من بعض العرب، فصرت أذكر له الطوائف التی فی أطراف النجف الأشرف، فیقول: لا لا، وكلّما ذكرت له طائفة قال: لا لست منها.

فأغضبنی وقلت له: أجل أنت من طُریطرة مستهزئاً وهو لفظ بلا معنی، فتبسّم من قولی ذلك، وقال: لا علیك من أینما كنت، ما الذی جاء بك إلی هنا؟ فقلت: وأنت ما علیك السؤال عن هذه الأمور؟ فقال: ما ضرّك لو أخبرتنی. فتعجّبت من حسن أخلاقه وعذوبة منطقه، فمال قلبی إلیه، وصار كلّما تكلّم ازداد حبّی له، فعملت له السبیل من التتن، وأعطیته، فقال: أنت اشرب فأنا ما أشرب، وصببت له فی الفنجان قهوة وأعطیته، فأخذه وشرب شیئاً قلیلاً منه، ثم ناولنی الباقی وقال: أنت اشربه. فأخذته وشربته، ولم ألتفت إلی عدم شربه تمام الفنجان، ولكن یزداد حبّی له آناً فآنا.

فقلت له: یا أخی أنت قد أرسلك الله إلیّ فی هذه اللیلة تؤنسنی أفلا تروح معی إلی أن نجلس فی حضرة مسلم علیه السلام ونتحدّث؟ فقال: أروح معك، فحدّث حدیثك.

فقلت له: أحكی لك الواقع أنا فی غایة الفقر والحاجة، مذ شعرت علی نفسی ومع ذلك، معی سعال أتنخّع الدّم، وأقذفه من صدری منذ سنین، ولا أعرف علاجه وما عندی زوجة، وقد علق قلبی بامرأة من أهل محلّتنا فی النجف الأشرف، ومن جهة قلّة ما فی الید ما تیسّر لی أخذها.

و قد غرّنی هؤلاء الملاّئیة وقالوا لی اقصد فی حوائجك صاحب الزمان وبت أربعین لیلة الأربعاء فی مسجد الكوفة، فإنّك تراه، ویقضی لك حاجتك وهذه آخر لیلة من الأربعین، وما رأیت فیها شیئاً؛ وقد تحمّلت هذه المشاقّ فی هذه اللیالی فهذا الذی جاء بی هنا وهذه حوائجی.

فقال لی وأنا غافل غیر ملتفت: أما صدرك فقد برئ، وأما المرأة فتأخذها عن قریب، وأما فقرك فیبقی علی حاله حتی تموت.

وأنا غیر ملتفت إلی هذا البیان أبداً. فقلت: ألا تروح إلی حضرة مسلم؟ قال: قم، فقمت وتوجّه أمامی، فلمّا وردنا أرض المسجد فقال: ألا تصلّی صلاة تحیّة المسجد، فقلت: أفعل، فوقف هو قریباً من الشاخص الموضوع فی المسجد، وأنا خلفه بفاصلة، فأحرمت للصلاة وصرت أقرأ الفاتحة.

فبینما أنا أقرأ وإذا یقرأ الفاتحة قراءة ما سمعت أحداً یقرأ مثلها أبداً، فمن حُسن قراءته قلت فی نفسی: لعلّه هذا هو صاحب الزمان وذكرت بعض كلمات له تدلّ علی ذلك، ثم نظرت إلیه بعد ما خطر فی قلبی ذلك، وهو فی الصلاة، وإذا به قد أحاطه نور عظیم منعنی من تشخیص شخصه الشریف، وهو مع ذلك یصلّی وأنا أسمع قراءته، وقد ارتعدت فرائصی، ولا أستطیع قطع الصلاة خوفاً منه فأكملتها علی أیّ وجه كان، وقد علا النور من وجه الأرض، فصرت أندبه وأبكی وأتضجّر وأعتذر من سوء أدبی معه فی باب المسجد، وقلت له: أنت صادق الوعد وقد وعدتنی الرّواح معی إلی مسلم.

فبینما أنا أكلّم النور، وإذا بالنور قد توجّه إلی جهة مسلم، فتبعته فدخل النور الحضرة، وصار فی جوّ القبّة، ولم یزل علی ذلك ولم أزل أندبه وأبكی حتی إذا طلع الفجر، عرج النور.

فلما كان الصباح التفتّ إلی قوله: أما صدرك فقد برئ، وإذا أنا صحیح الصدر، ولیس معی سعال أبداً وما مضی أسبوع إلاّ وسهّل الله علیّ الزواج من البنت من حیث لا أحتسب، وبقی فقری علی ما كان كما أخبر صلوات الله وسلامه علیه وعلی آبائه الطاهرین».

(۲۲) هكذا تحبط الصدقات

دخل رجل علی محمد بن علیّ بن موسی الرضا سلام الله علیهم وهو مسرور، فقال له الإمام: ما لی أراك مسروراً؟

قـال: يـا ابن رسول الله، سـمعت أبـاك يقول: أحقّ يوم بـأن يسـرّ العبـد فيه يوم يرزقه الله صـدقات ومبرّات وسـدّ خلاّـت من إخوان له مؤمنين، وإنّه قصـدنى اليوم عشـرة من إخوانى [المؤمنين] الفقراء لهم عيالات، قصـدونى من بلـد كذا وكذا، فأعطيت كلّ واحد منهم، فلهذا سرورى.

فقال محمد بن على (الجواد) سلام الله عليه: «لعمرى إنك حقيق بأن تسرّ إن لم تكن أحبطته أو لم تحبطه فيما بعد».

فقال الرجل: وكيف أحبطته وأنا من شيعتكم الخُلّص؟

قال: «هاه، قد أبطلت برّك بإخوانك وصدقاتك».

قال: وكيف ذاك يا ابن رسول الله؟

قال له محمد بن على سلام الله عليه: اقرأ قول الله عزّ وجلّ ?: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ والأذى.?

قال: يابن رسول الله! ما مننت على القوم الذين تصدّقت عليهم ولا آذيتهم.

قال له محمـد بن على سـلام الله عليه: إنّ الله عزّ وجلّ إنّما قال?: لا تُبْطِلُوا صَـدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ والأذى ?ولم يقل لا تبطلوا بالمنّ على من تتصـدّقون عليه، وبالأـذى لمن تتصـدّقون عليه، وهو كـلّ أذى، أفـترى أذاك للقوم الـذين تصـدّقت عليهم أعظم، أم أذاك لحفظتك وملائكة الله المقرّبين حواليك، أم أذاك لنا؟

فقال الرجل: بل هذا يا ابن رسول الله.

فقال: فقد آذيتنى وآذيتهم وأبطلت صدقتك.

قال: لماذا؟ قال: لقولك (وكيف أحبطته وأنا من شيعتكم الخُلّص) ويحك، أتدرى من شيعتنا الخُلّص؟ قال: لا.

قال: شـيعتنا الخُلّص حزقيل المؤمن، مؤمن آل فرعون وصاحب يس الـذى قال الله تعالى فيه?: وَجاءَ مِنْ أَقْصَـى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْـعى? وسلمان وأبو ذر والمقداد وعمار، أسوّيت نفسك بهؤلاء؟ أما آذيت بهذا الملائكة، وآذيتنا؟

فقال الرجل: أستغفر الله وأتوب إليه، فكيف أقول؟

قال: قل: أنا من مواليكم ومحبّيكم، و معادى أعـدائكم، وموالى أوليائكم. فقال: كذلك أقول، وكذلك أنا يا ابن رسول الله، وقد تبتُ من القول الـذى أنكرتَه، وأنكرتْه الملائكـة، فما أنكرتُم ذلك إلاّ لإنكار الله عزّ وجلّ. فقال محمد بن على بن موسـى الرضا سـلام الله عليه: الآن قد عادت إليك مثوبات صدقاتك وزال عنها الإحباط».

(۲۳) هنا تكمن السعادة

كلّ الـذين وفـدوا إلى هـذه الحياة إنّما وفـدوا من أجل الامتحان، لا فرق فى ذلك بين الشـيخ والشابّ والرجل والمرأة والغنىّ والفقير والعالم والجاهل ... قال الله تعالى فى كتابه الكريم?: لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ.?

لقـد تحدّث الله تعالى عن امرأة فرعون بعبارات قد يقلّ نظيرها؛ قال سـبحانه?: وَضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.?

فالأمر العادىّ أن يكون قدوة الناس ومَثَلَهم رجلاً لا امرأة، ولكن الله تعالى جعل فى هذه الآية امرأة فرعون التى هى من سـيّدات النساء عنـد الله تعالى بعـد السـيدة فاطمـة الزهراء قـدوة ومثلاً للمؤمنين والمؤمنات؛ فإنّ المفهوم من هـذه الآية أنّ الله جلّ شأنه يأمر المؤمنين والمؤمنات أن يقتدوا بهذه السيدة الفاضلة، فلماذا وكيف وصلت إلى هذا المقام الرفيع؟

إنّ الإجابـة عن هـذا السؤال تنطوى فى عبارة من دعاء أبى حمزة الثمالى الذى علّمه إيّاه الإمام السـجاد سـلام الله عليه والذى نقرأه فى أسـحار شـهر رمضان المبارك ... هـذا الدعاء العميق المحتوى، العالى المضامين، الذى له خصوصـية خاصّة بين مجموع ما وردنا من أدعية عن المعصومين سـلام الله عليهم؛ بحيث يمكن القول بجرأة لو أن أحداً قرأه مرّة واحدة من أوّله إلى آخره بالتفات وتأمّل وتدبّر

معانيه حقاً، يكون مستجاب الدعوة عند الانتهاء منه؛ أى أنّ قلبه يكون مستعداً لدرجة أنّ الله تعالى لا يردّ حاجته فلقد جاء فى الجزء الأخير من هذا الدعاء قوله: «ورضّنى من العيش بما قسمت لى»، وهذا بالضبط هو ما تجلّى فى امرأة فرعون وصار سبباً لأن تكون قدوة ومثلًا للمؤمنين والمؤمنات.

عموماً لا يمكن أن توجد علاقة مباشرة بين الراحة والسعادة، ولا بين العناء والشقاء. فربّ شخص يكون محصوراً بين أنواع المصاعب والمتاعب ولكنه مع ذلك يشعر بالرضا ولا يكون متبرّماً. كما يمكن أن يكون شخص متمتعاً بأنواع المتع الدنيوية ولكنه مع ذلك لا يعيش حياة سعيدة.

ينبغى الالتفات إلى أنّ سبب السعادة والرضا يتلخّص فى ترجيح الرضا الإلهى على كلّ شيء وإن كان فى ظلّ أنواع المحن والمصائب والمشاكل والمصاعب والحرمان من كلّ ما عداه.

ومن هنا نفهم قول العقيلة زينب سلام الله عليها عندما توجّه إليها الطاغى ابن زياد بالقول: كيف رأيت صنع الله بكِ؟ فقالت: ما رأيت إلّا جميلًا!

ولعلّه لا ـ يمكن تصوّر وضع أصعب من الوضع الذى كانت فيه امرأة فرعون، ولكنّها رغم ذلك كانت راضية برضا الله تعالى فى ظل كلّ الظروف الصعبة، ولم يخالجها أدنى اعتراض على ما قدّر الله سبحانه لها.

لا ـ ينبغى أن نعبّس أو تضيق صدورنا أو نحزن بسبب تموّجات الحياة، بل يجب أن نعمل بوظيفتنا فى كلّ الأحوال سواء الصعبة أو السهلة وأن نعتبر ذلك امتحاناً إلهياً لنا.

إنّ فى القرآن الكريم آية مفعمة بالأمل للإنسان، وتسدّ الطريق بوجه كلّ يأس أو خيبة، وهى قوله تعالى?: إِلَّا مَن رحِمَ رَبُّکَ وَلِذَلِکَ خَلَقَهُمْ.?

لا شك أنّ الرضا بالتقدير الإلهى لا يعنى أبداً أن لا نخطو من أجل حلّ المشاكل ورفع النواقص بأن نحجم عن الاستفادة من الوسائل والأسباب الظاهرية والدعاء والتوسّل وغير ذلك، بل المقصود من الرضا بالتقدير الإلهى هو التسليم إزاء الأمور الخارجة عن إرادتنا. فإذا كنّا كذلك فإن تقلّبات الحياة ومصاعبها لن تثنينا أو تعصرنا ولا نصاب بالإحباط والكآبة؛ ومن هنا أيضاً نفهم وصف المؤرّخين للإمام الحسين سلام الله عليه فى يوم عاشوراء أنّه كان يزداد وجهه إشراقاً كلّما سقط شهيد من أسرته وأصحابه.

ليست سعادة الدنيا فى أمور زائلة كالثروة أو البيت الواسع وغيرهما بل بامتلاك قلب واسع مطمئنّ؛ راض عن قسم الله تعالى، كيف كانت، فلكلّ واحد منّا تقديرات خاصّة فى الحياة، وكلّ فرد يواجه مشكلات ونواقص، فواحد فقير وآخر مريض وثالث عقيم وهكذا.. إنّما المهمّ أن نسعى لأن نكون راضين بقضاء الله عزّ وجلّ فى كلّ حال.

(۲۴) التبليغ والمنبر الحسينى

نقرأ فى الزيارة عبارة «اللهمّ اجعلنى عندك وجيهاً بالحسين عليه السلام فى الدنيا والآخرة». هذه العبارة موجودة فى زيارة الإمام الحسين ليوم عاشوراء، الذى عُدّ من الأحاديث القدسية.

تتمتّع زيارة عاشوراء باعتبار ووثاقة كبيرين، وليس لأحد التنكر لذلك، لأنّ ذلك يعنى فى الواقع التنكّر لزيارة وارث، وزيارة الأربعين، والزيارة الجامعة، وزيارة الإمام الحسين فى يوم عرفة، وزيارة رسول الله صلى الله عليه وآله وعدد من الزيارات الأخرى، فجميع هذه الروايات تدخل ضمن نسق واحد.

أما زيارة عاشوراء فتعدّ من الأدعية العميقة الغور والعظيمة الأهمية، وهى تعدّ من النعم والألطاف الإلهية التى منّ الله بها على عباده، حيث رواها أئمّتنا المعصومون سلام الله عليهم، وعلى الرغم من أنّهم يتكلّمون بلسان الله سبحانه وهذا بالضبط هو معنى العصمة ولكن مع ذلك فإنّ زيارة عاشوراء تعتبر فى الواقع زيارة خاصّة.

تبيّن العبارة المذكورة آنفاً والمقتبسة من زيارة عاشوراء كم أنّ الإنسان حقير مقابل عظمة الله جلّ شأنه، حيث يعترف بحاجته الماسّة إلى ربّه وأن لا وزن له ولا قيمة من دون الله، ويعلم علم اليقين أنّه لا يملك ما يقدّمه فى حضرة معبوده سواء كان قولاً جميلاً أم عملاً رزيناً، وفى الحقيقة إنّا لا نتوافر على أهلية التحدّث إلى الله أو أن ننطق بكلمة «يا الله»، وإذا كنّا نملك شيئاً من هذا فإنّما هو منّة من الله وفضل حبانا بهما سبحانه فأذن لنا بدعائه كما فى المنقول «وأذنت لى فى دعائك»، ولولا هذه الأدعية والزيارات، لما استطاعت عقولنا أن تحيط بهذه المعانى الراقية، ولولا لطف أهل البيت وكرمهم سلام الله عليهم، لما استوعب العرفاء والحكماء والفلاسفة هذه المعانى العجيبة والمضامين السامية.

نحن جميعاً نُعتَبر دعاة إلى فكر أهل البيت سلام الله عليهم ومدرستهم، وهذا يفسّر أهمية الدور الذى نضطلع به، وهى أهمية نابعة من أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله نفسه كان مبلّغ الولاية، حيث خاطبه الله تعالى بقوله?: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ،? وكذلك الإمام الصادق والإمام المهدىّ سلام الله عليهما هما مبلّغان، ومن هذا المنطلق فإنّنا نُعتبر من مبلّغى أهل البيت سلام الله عليهم والسائرين على نهجهم، وهى نعمة أنعم الله بها علينا. ربّما يتعب الإنسان من عمله أو يصيبه الكلل و الندم، لكنّ المبلّغ الذى يرتبط بأهل البيت سلام الله عليهم ويكون فى خدمتهم لا يكلّ ولا يملّ من عمله.

لذا ترانا فى خطابنا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسائر المعصومين نستخدم عبارة «يا وجيهاً عند الله»، فالوجاهة والكرامة عند الله هى مقام جدّ عالٍ، وعندما نقرأ هذه العبارة المهمّة من زيارة عاشوراء يجب أن نلتفت إلى غور معناها ونحيط بعمق محتواها، وأن نعلم بأنّ لامتلاك الوجاهة عند الله شروطاً ليست باليسيرة.

شروط الوجاهة الربانية

وأحد هذه الشروط هو أن نمتلك صفة العفو والمسامحة إذ إنّ الإمام الحسين سلام الله عليه كان تجسيداً حيّاً لهذه الصفة العظيمة ونحن باعتبارنا دعاة إلى نهج الإمام ينبغى أن نتحلّى بهذه الصفة، وأن نتخلّى عن كثير من الأشياء فى سبيل النهج الحسينىّ الذى اخترناه لأنفسنا.

إنّ مبلّغ الإمام الحسين سلام الله عليه يجب أن يتحلّى بصفة العفو فى المجالات السياسية والاجتماعية والأسرية، وأن يتحمّل الصعوبات والشدائد فى مسيرة التبليغ لمدرسة أهل البيت سلام الله عليهم، لأنّ الإمام الحسين سلام الله عليه ضحّى بدمه الزكى من أجل تحقيق أهداف دين جدّه صلى الله عليه وآله النبيلة.

جاء فى إحدى زيارات سيّد الشهداء سلام الله عليه: «وبذل مهجته فيك ليستنقذ عبادك من الجهالة وحيرة الضلالة».

لقد تحمّل أشرف الأوّلين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وآله فى سبيل تبليغ الرسالة الإسلامية شتّى أنواع الأذى، وصبر على جميع الصعاب وكان نهجه فى ذلك الصفح والعفو عن المسىء، ونحن أيضاً ينبغى أن نقتفى أثر رسول الله صلى الله عليه وآله وسيّد الشهداء والإمام الصادق سلام الله عليهما وأن نصبر على الأذى.

لا شكّ فى أنّ الرسول الأكرم والإمام أمير المؤمنين والسيدة الزهراء والإمام الحسن المجتبى عليهم أفضل الصلاة هم أعلى مرتبة من الإمام الحسين سلام الله عليه إلّا أنّ إرادة الله التكوينية والتشريعية شاءت أن يكون لهذا العبد الصالح مقاماً ومكانة لم يخصّ الله بها أحداً من عباده غيره.

لقد بقى نور مجالس العزاء الحسينية وهّاجاً على الرغم من تلك المضايقات والمتاعب. إنّ ذكرى عاشوراء بقيت حيّة فى الأذهان ومتجذّرة فى الضمائر رغم التصدّى لها ومحاربتها من قبل أعداء أهل البيت سلام الله عليهم، حتى عدّوا نقل فضائل سيّد الشهداء سلام الله عليه جريمة لا تغتفر فى بعض مقاطع التاريخ.

ينقل لنا التاريخ أنّ رجلًا ظالماً من عمّال بنى العباس يدعى نصر وكان من بطانة المتوكّل العباسى والمقرّبين منه، روى حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله فى باب فضيلة الإمام سيّد الشهداء سلام الله عليه، وعندما تناهى ذلك إلى علم المتوكّل أمر بجلده ألف

جلدة.

وفى عصرنا الراهن، حاربت الحكومات المتعاقبة فى العراق بعض مظاهر العزاء الحسينى ومنعته، فكان يُرَشّ الملح والفلفل على جروح المعزّين الحسينيين، ولكن كانت النتيجة أن باتت اللعنات تلاحق أولئك الطغاة، بينما ظل شعاع عاشوراء ينير الدرب نحو العلا.

لقد عُذّب الكثيرون بسبب إحيائهم لمجالس العزاء الحسينية وأُحرقوا وشُرّدوا وقُتّلوا لكن بقى اسم الإمام الحسين سلام الله عليه خالداً لم تمحه هذه الممارسات الظالمة. ولم تنفرج هذه الشدّة إلّا فى السنتين الأخيرتين عقب سقوط حكم البعث فى العراق حيث أتيحت الفرصة للزائرين لزيارة العتبات المقدّسة، وحسب الإحصاءات التى نشرتها الجهات الأجنبية، فقد تشرّف حوالى ۱۲ مليون زائر من إيران فقط بزيارة كربلاء المقدّسة.

وينقل أحد خطباء المنبر الحسينى بتعجّب وشغف عن إقامة مجالس العزاء الحسينية فى إحدى المدن القريبة من القطب الشمالى التى زارها لأجل التبليغ، حيث يروى أنّ صوت مراسيم العزاء كانت تداعب الآذان حيث كان عدد قليل من المعزّين يحيون شعائر العزاء الحسينية فى طقس قارص، شديد البرودة والانجماد.

ويأبى الله إلّا أن يستمرّ ذِكر أبى عبد الله، وأن يتمّ نوره فى القلوب؟. لِيَهلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ. ?فقد قضت حكمة الله أن يهلك المتوكّل العباسى وأضرابه عن بيّنة وأن يحيا شهداء كربلاء حياة خالدة وأبدية وعن بيّنة أيضاً. ولو لم تكن عاشوراء، أنّى لنا أن نتعرّف على حقيقة عمر بن سعد أو زهير بن القين الذى قيل عنه بأنّه كان عثمانى الهوى؟

كما ينقل التاريخ بأنّ شمر وحبيب بن مظاهر كانا رفيقين ومن عشيرة واحدة، لكن واقعة كربلاء هى التى فرّقتهما، وكشفت للملأ عن حقيقة كلّ منهما، فلولا عاشوراء لما علمنا بأىّ من هذه الأمور.

وفى ذلكم عبرة

لقد كان الشيخ جعفر الشوشترى أحد مراجع التقليد فى عصره حيث له رسالة عملية بعنوان (منهج الرشاد)، وهى رسالة فريدة من حيث تبويب الموضوعات وتصنيفها، وقد علّق عليها صاحب العروة والآخوند ذات مرّة وهو عائد إلى طهران من زيارة كانت له إلى مدينة مشهد المقدّسة صعد المنبر فى إحدى المدن فى طريق عودته، وذلك نزولاً عند رغبة ثلّة من المؤمنين. وفى إحدى خطبه التى اعتبرها البعض مؤثّرة للغاية قال الشيخ الشوشترى: عندما عزمت على المجىء إلى هنا لفت انتباهى دابّة من الدوابّ بعد ما أفرغت حمولتها فى المكان المقصود، وذلك عندما وقع نظرى على عينيها وكأنّ لسان حالها يقول لى: يا شيخ جعفر، لقد أدّيتُ ما أنيط بى من واجب على أحسن وجه، ونقلتُ الحمل إلى المنزل المقصود، فهل أدّيت ما عليك من مسؤولية؟ هل نقلت الحمل إلى مقصده؟

فلا بدّ لنا أن نتدبّر فى قول رسول الله صلّى الله عليه وآله: «كلّكم راع وكلكم مسؤول عن رعيّته». فكلّنا مسؤول، لأنّ مهمّة التبليغ مناطة بالجميع، لكن القسط الأكبر منه يتحمّله أهل العلم، والجميع بدءاً من مرجع التقليد حتى التلميذ يتحمّل مسؤولية إزاء واقعة عاشوراء ونشر الثقافة الحسينية. حاولوا أن توظّفوا هذه المناسبة بشكل أكبر من السنوات السابقة، وكذلك حاولوا أن توسّعوا من صدركم وصبركم على الشدائد والصعاب، واعلموا أنّ الإمام الحسين سلام الله عليه فى غنى عن تبليغنا وكتاباتنا وخدماتنا، بل نحن والعالمين جميعاً بحاجة إلى كرمه ولطفه صلوات الله عليه.

إنّ من أهمّ واجبات المبلّغين والدعاة هو الاهتمام بشريحتى الناشئة والشباب، كما أنّ من وصايا المغفور له أخى أعلى الله مقامه فى مثل هذه المناسبات هى: حاولوا أن ترسّخوا الثقافة الحسينية فى ضمير الشباب، فالإمام الصادق سلام الله عليه فى خطابه إلى أبى جعفر الأحول (مؤمن الطاق) يقول: «عليك بالأحداث فإنّهم أسرع إلى كلّ خير».

(۲۵) حسن الخلق يحوز خير الدارين

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «حَسِنُ الخُلق ذهب بخير الدنيا والآخرة».

إنّ المرء فی أیّ مجال کان وفی أیّ بلـد وفی أیّ مرتبة فهو مردّد بین الخیر والشّـر، إذ إنّ فی الإنسان دافعاً الی الخیر وهو العقل ودافعاً نحو الشـر وهی النفس الأمّارة بـالسوء. فإذا کان المرء حسن الخلق فإنّ دافع الخیر عنـده یغلب دافع الشـرّ وسـیکون نصـیبه خیر الـدنیا والآخرة، بخلاف سیّئ الخلق فهو لا دنیا له ولا آخرة.

أمّا کیف یکون الإنسان حسن الخلق، فهـذا یرجع إلی کلمـة واحـدة یمکن لکلّ إنسان أن یبـدأ بالعمل بها من هـذه اللحظـة ومن هذا المکان الی آخر حیاته. والکلمة هی ما ورد فی حدیث لمولانا الإمام الرضا سلام الله علیه حیث قال: «إنما هی عزمة».

فأیّ إنسان عزم عزماً أکیداً علی أن یکون خلوقاً فإنّه یوفّق لذلک.

وحسن الخلق هو أن تکون صادقاً فی الکلام، صابراً عند المکاره، تلقی الناس دائماً ببشر الوجه وطلاقته، وأن تحلم عمّن یسیئ إلیک، وإلی غیر ذلک من محاسن الأخلاق.

یروی عن الامام الباقر صـلوات الله وسلامه علیه، أنّه قد اعترضه شخص نصرانیّ وقال له والعیاذ بالله: أنت بقر! فأجابه سلام الله علیه: بل أنا باقر.

وهـذا هو الحلم. فاذا انتقصک شـخص ما، فعلیک أن تحلم، عنـدها تحوز علی خیر الـدنیا وخیر الآخرة، وهـذا بحاجـة الی العزم الذی تکون نهایته التوفیق.

وهـذه سُـنّة الحیـاة. فطـالب العلم إذا عزم علی أن یکون حسن الخلق فسیصـبح عالمـاً، والکـاسب إذا عزم علی ذلـک سیصـبح تـاجراً، والزوج سیکون محبوباً عند زوجته، وهکذا الزوجة.

بعبارة إخری: إنّ حسن الخلق یکون محبوباً عند الله تعالی وعند الناس کافّة.

فمن الخطأ تصوّر وجوب ردّ السـیّئة بالسـیّئة. أجل إنّه جائز فی الحـدود الشـرعیة کما فی قوله تعالی?: فَمَنِ اعْتَدَی عَلَیْکُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَیْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَی عَلَیْکُمْ. ?ولکنه لیس بواجب أو مستحبّ.

إنّه من یرید التوفیق وخیر الدنیا و خیر الآخرة والمحبّة عند الله عزّ وجلّ وعند الناس ینبغی له أن یردّ السـیئة بالإحسان والحلم. فقد ورد فی أحوال النبیّ الأکرم صـلی الله علیه وآله أنّ إحدی زوجاته اتّهمته تهمة عنیفة فی قضیة قذف زوجته ماریة القبطیة، فلم یقابلها صلّی الله علیـه وآلـه بالمثـل ولـم یجبهـا، بـل إنّـه صـلّی الله علیـه وآلـه اکتفی بنفی التهمـة عنـه فقـط؛ علمـاً أنّ هـذه الروایـة نقلت عن أحد المعصومین سلام الله علیهم ولم ینقلها غیرهم من سائر الناس، لأنّ الرسول الأعظم صلی الله علیه وآله لم ینقلها لأحد من الناس. فینبغی تعلّم الفضائل هذه والخلق الحسن من رسول الاسـلام صـلوات الله وسـلامه علیه، والقرآن الحکیم یقول?: لَقَدْ کَانَ لَکُمْ فِی رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ.?

لقـد رأیت الکثیر ممن اتّصف بـالخلق الحسن من العلماء وغیرهم من سائر الناس کانوا موفّقین فی حیاتهم وکانوا محبوبین عنـد الناس ولم یلقوا صعوبة فی حیاتهم.

إنّ أیّ فرد من أفراد الأسـرة اذا کان حسن الخلق فإنّه سیکون محبوباً عند الجمیع وسیقبل الله عزّ وجلّ أعماله، وإذا مات فسیترحّم علیه الناس، أمّا صاحب الخلق السیّئ فإنّه سیکون علی العکس من ذلک تماماً.

لذا ینبغی لکم أن تعزموا علی التحلّی بالأخلاق الحسنة، لتنالوا خیر الدنیا وخیر الآخرة.

(۲۶) الثقافة هی الاساس

قال الله تعالی?: قُلْ هَلْ یَسْتَوِی الَّذِینَ یَعْلَمُونَ وَالَّذِینَ لا یَعْلَمُونَ.?

إنّ صـیغة الآیة الاستفهامیة إنّما ترید الإشارة بوضوح إلی حقیقة الإجابة التی لا یختلف فیها اثنان، باعتبار أنّ العلم والعلماء أرقی منزلة من الجهل والجهّال.

إنّ مسألة الثقافة من أهمّ المسائل فى كلّ أَمّة وحضارة. وقد يصحّ ما يقال بأنّ العالَم يدور على عجلة الاقتصاد والسياسة، ولكن الأصحّ من ذلک هو القول بأنّ الثقافة هى التى توجّه الاقتصاد والسياسة. فبقدر ما يحمل الفرد من ثقافة وعلم فى كلا المجالين، فإنّه لا يَخسر ولا يُغلَب.

إنّ الثقافة الصائبة وحدها القادرة على مواجهة وتصحيح ما نراه من ثقافة ضحلة فى عالم اليوم، لأنّ القوّة أو المال أو غير ذلک يعجز عن مواجهة الثقافات وتغييرها، إذ لا يقارع الثقافة إلّا الثقافة. فقد يهزم التاجر زميله التاجر، والسياسىّ نظيره، ولكن الفكر والثقافة لا يهزمان بالمال أو القوّة السياسية أو العسكرية، بل لابدّ لمن أراد خوض الميدان الثقافى الهادف إلى التغيير أن يكون متسلّحاً بسلاح الفكر والثقافة. ومن هنا كان العمل الثقافى من أهمّ الأعمال فى المجتمع، فهو يمثّل البناء التحتىّ لغيره من الأعمال.

إنّ من المغالطات المعروفة، الخلط بين وحدة الموقف السياسى ووحدة العقيدة، فتصوَّر الكثير من المسلمين بأنّ الوحدة بين الشيعة وغيرهم تعنى فرض عقيدة واحدة على الجميع، فى حين أنّ هذا الأمر شىءٌ مستحيل وخاطئ، إذ الاختلافات العقائدية من شأنها أن تُحلَّ بالحوار فقط، وصولاً ـ إلى الحقّ وليس من الضرورة أن يتمّ الاتّفاق على كلّ المعتقدات، فإنّ الاختلاف سنّة الحياة، وقد قال تعالى ?: وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ.?

لو تطرّقنا إلى تفسير جانب من جوانب قوله سبحانه?: لِيَهْلِکَ مَنْ هَلَکَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ?باعتبار أنّ الدليل هو الأمر الوحيد القادر على إحداث التغيير الجذرى فى قناعة هذا الإنسان أو ذاک، فإنّنا سنجد أنّ الآية الشريفة تريد تأكيد ضرورة أن يعرف من هلک أنّه إنّما هلک لاختياره طريق الضلالة، وأن يعرف من يحيا أنّه إنّما حىّ لاختياره طريق الهداية، فالمهمّ أن يكون الإنسان عارفاً بما اختار، فلا يهلک وهو جاهل بالأمر، وكذلک لا يكفى للمرء أن يكون على الطريق الصواب، بل يريد الله منه أن يكون عارفاً بأنّه على صواب، وأن يكون اختياره له عن دليل وبيّنة.

ولا يعنى تغيّر الإنسان بسبب فكرة أو كلمة ضرورة أن يحدث التحوّل المعلن لديه دفعةً واحدة، لأنّ تغيير المواقف والعقائد والإعلان عنه ليس بالأمر الهيّن، فهو يغيّر تاريخه، بل ونوعية وجوده. ولكن الفكرة النيّرة تهزّ الإنسان المنصف الواعى وتدفعه إلى مزيد من البحث؛ وصولاً للحقيقة الكاملة، وإذا اتّضحت له البيّنة آمن، إلّا أن يكون معانداً، والمعاندون قليلون، أمّا ما نراه فى عامّة الناس من عدم الاهتداء إلى نور الحقّ فهو التعصّب الناشئ من الجهل وعدم انكشاف البيّنة، الأمر الذى يحتاج إلى وسائل وفرص كفيلة بذلک.

وهناک جملة من الأمثلة على نفوذ الثقافة الحقّة القائمة على البيّنة والبرهان فى كثير من الأشخاص الذين كانوا يعيشون فى بيئة عُرفت بعدائها للحقّ والحقيقة مثل ابن مروان بن الحكم الذى كان يسمّى بسعد الخير رغم ما هو معروف من بطلان منهج أبيه، ومثل علىّ ابن المسمّى صلاح الدين الأيّوبى الذى ارتكب ما ارتكب من مجازر رهيبة بحقّ الفاطميين والشيعة تحت مظلّة مقاومة الهجمات الصليبية.

وخلاصة القول: لمّا كان العمل الثقافى يعدّ من أهمّ الأعمال، بل أهمّها، فإنّ ذلک يستوجب توفّر ثلاثة شروط، لضمان نجاحه وتحويله إلى عمل مثمر، وهذه الشروط هى:

۱. التأكّد بأنّ فكر أهل البيت عليهم السلام هو النور والمشعل الوضّاء والبيّنة، وأنّ هنالک الملايين من البشر محرومون منه، وأنّ مهمّة إيصاله إلى هذا الكمّ الهائل ليس بالمهمّة السهلة، ممّا يستدعى مضاعفة الجهود لنشر ثقافة هذا النور لتحرير الناس بمن فيهم المفكّرون والمثقّفون من ظلمات الجهل.

۲. إذا أردنا لأعمالنا أن تحقّق أهدافها، فلابدّ أن تكون مطابقة للطريق الذى رسمه الشرع لنا، وإلّا فسيكون مَثلنا مثل ذلک السائق الذى لا يتقيّد بالعلامات المرورية، ثمّ يتبيّن لنا أنّ المسافة التى قطعناها بعد مدّة طويلة لم تكن هى المطلوبة، وأنّه ينبغى علينا العودة إلى نقطة البداية لتصحيح المسار.. وبتعبير أدقّ: إنّ على العاملين فى السلک الثقافى عموماً أن يعرضوا على الناس عين ما يريده أئمّة أهل البيت سلام الله عليهم، فهم أعلام الهداية وأنوارها.

۳. ضرورة العمل وفق أنجح الأساليب وأجمل التعابير، تماماً كما هو الحال بالنسبة لأساليب الأدعية الواردة عن أئمّتنا المعصومين سلام

الله عليهم، حيث روعة البلاغة والفصاحة وجمال التعبير، فضلاً عن سموّ المعنى.

(۲۷) التبليغ رسالة العلماء

ورد فی إحدی زیارات الإمام الحسین سلام الله علیه التی رواها الأعاظم، عن کامل الزیارات للمرحوم ابن قولویه القمّی عن الإمام الصادق سلام الله علیه:

«أشهد أنّک طهر طاهر مطهّر من طهر طاهر مطهّر، طهُرَت وطهُرتْ بک البلاد وطهرت أرض أنت بها وطهر حرمک».

عشرة ألفاظ من مادّة «طهر» استعملها الإمام الصادق سلام الله علیه فی هذه الجملة فی مخاطبة جدّه الإمام الحسین سلام الله علیه. ونسبة الطهر إلی الإمام إذا قصد منها العصمة، فهذا یعنی أنّ هناک خصوصیة للإمام الحسین سلام الله علیه فی هذا المجال لا یشارکه فیها إلّا أخوه الإمام الحسن سلام الله علیه لانفرادهما بأبوین معصومین طاهرین؛ فأمّا جدّهما رسول الله صلّی الله علیه وآله وإن کان أفضل وأطهر الأولین والآخرین ولکنّ أباه وأمّه لم یکونا معصومین وإن کانا طاهرین لکن العصمة هی أعلی درجات الطهارة. وهکذا الحال بالنسبة إلی أبیهما أمیر المؤمنین علیه السلام فإنّ أبویه کانا طاهرین غیر معصومین أیضاً. أما بالنسبة لسائر الأئمة المعصومین من ذریة الإمام الحسین علیه السلام فکانوا معصومین من جهة الآباء أیضاً ولکن أمّهاتهم کنّ طاهرات غیر معصومات. فتنحصر صفة عصمة الآباء والأمّهات فی الإمام الحسن والإمام الحسین علیهما السلام فقط.

ولذلک یخاطب الإمام الصادق سلام الله علیه جدّه الإمام الحسین سلام الله علیه بقوله: «أشهد أنّک طهر طاهر مطهَّر من طهر طاهر مطهَّر». وإثبات العصمة لهؤلاء الطاهرین المطهرین الأربعة عشر مما تسالم علیه الشیعة الإمامیة.

والبحث فی هذه القطعة لا ـ یخلو من أهمیة رفیعة لأنها عبارة فریدة لم یرد مثیل لها فی حقّ أحد غیره، لما فیها من نکات مهمّة لم تبحث بعد، سواء من الناحیة اللغویة والبلاغیة أو من الناحیة العقائدیة.

إنّ للطهارة مراتب سامیة فلنجعلها نصب أعیننا ونبذل جهدنا من أجل تحقیقها فی ذواتنا، وإذا کان شهر محرّم الحرام خیر فرصة لاتّخاذ مثل هذا القرار فلننتهز هذه الفرصة، ولنتذکر أنّ الطهارة قابلة للتأثّر، ویمکن أن تتلوّث بسرعة بالذنب والمعصیة تماماً کالماء الطاهر الذی ینفعل ویتلوّث إن لاقته النجاسة، والذنوب نجاسات، فلا تدعوها تلوّث طهارتکم.

دخل علی المیرزا الکبیر فی أحد الأیّام رجل علم عادی ولکنّ المیرزا نهض من مکانه واستقبله استقبالاً حافلاً وقبّل ما بین عینیه، فتعجّب الطلاب الذین کانوا یحضرون المجلس! لأنّ المیرزا کان لا یقوم لکل أحد یومذاک بسبب شیخوخته، فضلاً عن ذلک فهذا الشخص الوافد لم یکن یحظی بدرجة علمیة مهمّة، وعندما استقرّ المجلس توجّه أحد الطلبة بسؤال المیرزا عن هذا الشخص الذی قام من أجله وکرّمه، فقال: إنّه من الذین أخشی أن أغبطهم یوم القیامة. قیل: وکیف ذاک؟ قال: لقد کنّا ندرس سویة فی بحث الخارج، وفی أحد الأیّام تناهی إلی سمعه أنّ هناک قری فی العراق تحتاج إلی من یبصّرها بأمور دینها، فأهلها أناس أمیّون لا یعرفون کثیراً عن أحکام الإسلام، فشعر بالمسؤولیة وترک الدرس والرقیّ العلمی وتوجّه لإجابة نداء الواجب الذی أحسّ به تجاههم، وبدأ بتعلیم أطفالهم القراءة والکتابة ثم تعلیم الکبار أحکام الدین حتی وُفّق أخیراً إلی رفع مستواهم وبناء مراکز علمیة ودینیة وعبادیة لهم.

فالرتبة العلمیة لا تعنی کل شیء، بل الرسالة التی ینهض بها العلماء هی التی ینبغی الاهتمام بها، فلیعرفوا قدر ما یقومون به، ولیعبئوا أنفسهم من أجل القیام بهذه المهمّة علی أحسن وجه.

(۲۸) نشر مبادئ أهل البیت

قال الله تعالی?: أَنْ أَقِیمُوا الدِّینَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِیهِ.?

مفردة? أَقِیمُوا ?تعنی الثبات، فمثلاً، أداء الصلاة یختلف عن الالتزام بروح الصلاة والثبات علیها، ففی زیارة الإمام الحسین سلام الله

عليه وردت هذه الفقرة (أشهد أنك قد أقمت الصلاة) أي إنّه قد التزم روح الصلاة وثبت عليها؛ وجعلها قائمة في نفسه والمجتمع.

لا ريب أنّ الخطاب القرآنيّ موجّه إلى عامّة الناس وسائر المسلمين والمتدينين، ليبيّن لهم أنّ (أقيموا الدين) عبارة عن هيئة ومادّة، إذا ما جرى التفكيك أو الفصل بينهما، أصبحت أمراً ومادّة متعلّقة بأمر.

ولكن ما الدين؟ القرآن الكريم يقول?: إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ، ?ما يعني أنّ المستحبّات والمكروهات وأخلاقيات وآداب الإسلام وغيرها من التشريعات الإسلامية هي قوام دائرة الأمر (أقيموا)، ويجب أن نلاحظ بدقّة أنّ القرآن الكريم لم يقل (أقيموا الواجبات) بل قال (أقيموا الدين) أي كلّ ما يقع ضمن دائرة الدين.

لكن من المؤكّد أنّ أهل العلم لهم خصوصيتهم، ويتعيّن عليهم إبلاغ الناس بمسائل الحلال والحرام وأصول الدين وفروعه ... وفي هذا الصدد روى عن الإمام جعفر الصادق سلام الله عليه، أنه قال لواحد من خيرة أصحابه وأعوانه، وهو الحارث بن مغيرة: «لأحملنّ ذنوب سفهائكم على علمائكم».

فإنّ كلمة (علماء) لا تعني مراجع التقليد فحسب، بل إنّ الخطاب يشمل كل من يمتلك علماً في أيّ مجال، وبالطبع فإنّه كلّما ازداد العلم، كانت المسؤولية أكبر وأثقل. ويجب أن نعلم بأنّ الناس إذا ما قارفوا الذنوب كأن يكون الفرد المسلم لا يصلّي، ولا يؤدّي واجباته ووظائفه الدينية فإنّ ذنوبهم تقع على عواتقنا، إلّا إذا عجزنا حقاً عن القيام بشيء حيالها، وأعذرنا الله عزّ وجلّ.

إنّ الله سبحانه وتعالى قد جعل لأهل العلم منزلةً ومقاماً رفيعاً عنده، وإنّ صلاة العالم وعباداته الأخرى، تفضل صلاة العابد بألف ضعف، فكان من الطبيعي طبقاً لهذا المقام أن تتضاعف مسؤولية العالم أمام الله عزّ وجلّ.

من هنا لا ـ بدّ من الإشارة إلى بعض المواطن في التاريخ الإسلامي، تتعلّق بالمصاعب والمعاناة التي تحمّلها الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله على طريق تبليغ الرسالة الإسلامية السمحاء، فبعد أن بُعث صلى الله عليه وآله بالرسالة، اعتلى جبل الصفا، ثم جبل المروة، ودعا الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد، غير أنّ المشركين راحوا يرمونه بالحجارة، حتى أدموا بدنه الشريف، فبادرت إليه ملائكة السماء تلتمس منه الأمر لإبادة المشركين، إلاّ ـ أنّ الرسول الأ ـ كرم صلى الله عليه وآله لم يقبل، وقال: «اللهم أهد قومي».. وعلى أثر استقامة رسول الله صلى الله عليه وآله في قوله وعمله، وبعد مضيّ نحو إحدى وعشرين سنة من بدء دعوته، دخل أكثر هؤلاء ـ المشركين، أو أبنائهم إلى الإسلام.

إنّ النبي صلى الله عليه وآله لم يدعُ على أولئك المشركين بالويل والثبور، ذلك لأنّه صلى الله عليه وآله رحمة، وكان يقول: (بُعثتُ رحمةً). والله عزّ وجلّ يأمرنا في كتابه الحكيم أن نتعلّم من نبيّه صلى الله عليه وآله كما يجب أن نعلم أن أكثر الناس ليسوا معاندين. نعم، قد يكونون متعصّبين، إلّا أنهم ليسوا بالضرورة معاندين.

فمثلاً يُذكر أنّ العيّاشي كان كاتباً سنّياً متعصّباً، لكنه لم يكن معانداً، فلما بصّره بعض الشباب الشيعة بالحقيقة، اختار مذهب أهل البيت سلام الله عليهم، بحيث أنّه عندما ورث من أبيه (۳۰۰ ألف) من المسكوكات الذهبية أي ما يربو على طن واحد من الذهب بحساب اليوم بذل كل هذه الثروة في خدمة المذهب الحقّ، وربّى أفراداً مثل (الكشي) الذي لاقى كتابه الموسوم ب «رجال الكشي» فائق السمعة في تصنيفه لعلماء الشيعة في مجال الحديث والرواية.

فلنستفد في هذا الشهر المبارك أكثر من ذي قبل، ولنعمل الى جنب إصلاح الذات، لهداية أولئك الذين لا يعلمون، ولنفعل كلّ ما باستطاعتنا عمله، من إقامة مجالس أهل البيت سلام الله عليهم وعقد جلسات القرآن، أو حتى حثّ الأفراد للمشاركة في مثل هذا النوع من أعمال الخير، لأجل ترسيخ دعائم الدين؛ امتثالاً لهذا الأمر الإلهي (أقيموا الدين).

(۲۹) وصايا عامّة للمبلّغين

۱. إحياء أمر أهل البيت سلام الله عليهم بتعريف المؤمنين مبادئهم؛ فقد جاء عن الإمام الرضا سلام الله عليه: «رحم الله عبداً أحيا أمرنا».

وإيصال نورهم وهم مصباح الهداية للعالم والناس كافّة لإخراجهم من الظلمات إلى النور؛ عن أبى خالد الكابلى قال: سألت أبا جعفر الباقر عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ ?: فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِى أَنزَلْنَا ?فقال: «يا أبا خالد! النور والله نور الأئمّة من آل محمد إلى يوم القيامة، وهم والله نور الله الذى أنزل، وهم والله نور الله فى السماوات والأرض».

۲. تعريف مبادئ وقيم النهضة الحسينية المقدّسة للعالم. فقد جاء عن النبىّ صلى الله عليه وآله: «إنّ الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة».

وتشجيع الناس على إقامة الشعائر الحسينية بأحسن وجه، فإن إحياءها تعظيم لشعائر الله سبحانه وإحياء لأمر أهل البيت صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

۳. التعامل الأخلاقى الحسن مع الجميع، والتحلّى بالأخلاق الفاضلة فى أداء العمل، لأنّ الكلام إذا قيل بخُلق رفيع كان أثره أكبر وأعمق، قال الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه: «من حسّن خلقه كَثُر محبّوه وأنست النفوس به».

۴. محاسبة النفس كلّ يوم، فإن المبلّغ إذا هذّب نفسه وزكّاها استطاع التأثير أكثر. قال الإمام على بن أبى طالب سلام الله عليه: «ثمرة المحاسبة صلاح النفس».

۵. الجدّ والاجتهاد فى هداية الناس كافّة. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا علىّ ... وأيم الله لئن يهدى الله على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت».

۶. الاهتمام الوافر بالشباب والأحداث، وعقد جلسات خاصة بهم وتعليمهم أصول الإسلام وعقائده وأحكامه وآدابه وأخلاقه وتعريفهم بسيرة النبى الأكرم صلّى الله عليه وآله والمعصومين من أهل بيته سلام الله عليهم، والإجابة عن مختلف الأسئلة التى تجول فى خاطرهم وذلك بأسلوب حديث وسهل وجميل. وتشجيع الشباب على إقامة النشاطات والفعاليات الدينية والثقافية والاجتماعية فى سبيل إحياء أمر أهل البيت سلام الله عليهم. وحفظهم من خطر الغزو العقائدى والتيارات المنحرفة والفئات الضالّة والأخلاق الفاسدة. فإنّ الإمام¬الصادق عليه السلام يقول: «عليك بالأحداث فإنهم أسرع إلى كل خير».

۷. تأكيد ضرورة اهتمام الآباء والأمهات بأولادهم بنات وبنين وتنشئتهم على التمسّك بحبّ وولاية الأئمة الهداة الأطهار، وحفظهم من خطر الغزو العقائدى والثقافى.

۸. التأهّب للأمر، والتهيّؤ للأسئلة المتنوعة والإجابة على أسئلة الناس بصدر رحب، وعدم التبرّم حتى من الأسئلة الساذجة أو السفيهة أحياناً. وتحمل الصعاب والأذى مهما كانت اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وآله.

۹. خدمة الناس والسعى فى حلّ مشاكلهم وقضاء حوائجهم قدر المستطاع. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «خير الناس من نفع، ووصل، وأعان».

۱۰. السعى لبذر الكلمة الطيّبة فى كلّ مكان ومع كلّ إنسان، والاقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله فى ذلك، فلقد كان صلّى الله عليه وآله يستغلّ كلّ الفرص للتبليغ ويدع التفرّغ للعبادات المستحبّة إلى الأوقات التى لا فرصة للتبليغ فيها لمنتصف الليل.

۱۱. كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم، وذلك بأن تكون أعمالكم وتصرفاتكم مطابقة لما تدعون إليه. قال الإمام جعفر الصادق سلام الله عليه: «كونوا دعاة للناس بالخير بغير ألسنتكم، ليروا منكم الإجتهاد والصدق والورع».

۱۲. الدعاء لتعجيل فرج مولانا المفدّى الإمام المهدى المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف، والدعاء للمؤمنين والمؤمنات كافة.

۱۳. الإخلاص فى العمل، فمن يخلص فى عمله أكثر، ينل درجات أرفع عند الله عزّ وجلّ.

۱۴. عليكم بالتواضع، فإن مفتاح الموفقية هو تقبّل الكلام الحق وطرد التكبر والأنانية.

۱۵. دراسة سيرة العلماء والفقهاء الشيعة عبر التاريخ، والبحث عن الأساليب التى جعلت من بعض علماء الشيعة كالشيخ الصدوق والمفيد والطوسى والأنصارى و ... رضوان الله تعالى عليهم خالدى الذكر.

۱۶. الاقتداء بسيرة أهل البيت سلام الله عليهم الأخلاقية، ليكون هذا الاقتداء مصداقاً طيباً لما تحملون من علم.

۱۷. إحياء القلب بطاعة الله عزّ وجلّ.

۱۸. الانتفاع من الوقت كلّه فى طلب العلم، لأن العلم لا نهاية له، والله تعالى خاطب نبيه صلّى الله عليه وآله ب? وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً.?

۱۹. الاستعانة بمختلف وسائل الإعلام والتقنية الحديثة فى نشر الإسلام وتعريف العالم بواقعه الأصيل، وحقيقته الصادقة.

۲۰. الاهتمام بالكيفية دون الكمية. أى الاهتمام بنوعية الدراسة وإتقانها.

۲۱. الاهتمام بالخطابة والكتابة لأنّها من لوازم الشخصية العلمية والقيادة الناجحة. ولأجل تنمية ذلك ينبغى التوجّه إلى النقاط التالية:

أ تقبّل النقد البنّاء.

ب البحث عن مدرسين أو دورات للخطابة والكتابة.

ت تخصيص جزء من الوقت لحفظ النصوص.

(۳۰) وصايا عاشورائية لعامّة المؤمنين

•أولى مهامّ محبّى أهل البيت سلام الله عليهم إعلان شأن عاشوراء وثقافتها.

•يجب أن نبقى على جذوة ملحمة عاشوراء متّقدة على الدوام.

•علينا أن نعلم بأنّ الفضل فى اشتراكنا فى إحياء الشعائر الحسينية يعود لآبائنا وأجدادنا.

•لنعلم أن ما ينفق ويبذل فى سبيل الإمام الحسين سلام الله عليه هو الأفضل.

•على الإنسان أن يوظّف نفسه من أجل خدمة الإمام الحسين سلام الله عليه.

•لا يمكننا أن ندّعى الانتماء لمدرسة عاشوراء، مالم نبذل الغالى والنفيس فى سبيل تحقيق أهدافها السامية.

•لنتعرّف على ماذا قدّمه الإمام الحسين سلام الله عليه لنا، حتى نسلك طريقه ونتبع أثره.

•إذا كنتم لا تستطيعون بناء الحسينيات، فشجّعوا الآخرين على ذلك.

•على المؤمنين أن يضيئوا مصباح الهداية الحسينى فى بيوتهم عبر إقامة الشعائر المصغّرة.

•لنحاول أن لا يحرم أىّ شاب من المشاركة فى الحسينيات والشعائر الحسينية.

•لنحاول تجنيب الحسينيات عن أن تكون مسرحاً للخلافات والنزاعات، ولنجعل منها أماكن للاجتماعات الطيّبة والوحدة والوئام.

•علينا أن نحذر ونحتاط، فلا نسىء إلى شىء من قضايا سيد الشهداء عليه السلام.

•أبسط ما يمكن القيام به فى إطار إيصال صوت الإمام الحسين سلام الله عليه للعالم جمع مقدار من المال وتغطية تكاليف موقع على الانترنت.

•اسعوا إلى أن يكون أحد أبنائكم خادماً للإمام الحسين سلام الله عليه.

•ما أحسن الجمع بين أمر التطبير والتبرّع بالدم، ففى يوم عاشوراء يكون التطبير، وفى يوم ولادته سلام الله عليه يكون التبرّع بالدم.

•ليكن يوم أربعين الحسين سلام الله عليه يوم جمع كلمة المؤمنين والحذر من فتنة الأعداء والمنافقين.

أسأل الله تعالى لكم ولكلّ العاملين المخلصين التوفيق منه جلّ وعلا، بحقّ محمد وآله الطاهرين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فهارس الكتاب

فهارس الكتاب

فهرس الآيات

?قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِیَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ/۳۲ ?۷۰

?وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِیَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ/۱۷۵ ?۲۲

الأنفال

?الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا/۲ ?۲۱۴

?إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ/۲۹ ?۲۲۵

?قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ /... ۳۸ ?۸۴

?لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ/۴۲ ?۲۳۱، ۲۸۰، ۳۰۱، ۳۰۷

التوبة

?فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِی الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ/۳۸ ?۲۰۶

?فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا/۸۲ ?۲۰۲

?وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ/۱۰۱ ?۲۴۱

يونس

?لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ/۱۴ ?۲۹۴

هود

?وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ/۱۱۸ ۱۱۹ ?۱۰۰، ۱۰۵، ۱۸۲، ۲۸۲، ۲۹۶، ۳۰۷

يوسف

?إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّیَ/۵۳ ?۱۹۱

الرّعد

?أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ/۲۸ ?۶۹، ۷۳، ۸۱

?فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِی الأَرْضِ/۱۷ ?۲۵۶

النحل

?مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ/۹۶ ?۲۲۸

طه

?طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى/۱ ۲ ?۸۶

?وَقُل رَّبِّ زِدْنِی عِلْماً/۱۱۴ ?۹۷، ۳۱۹

?وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا/۱۳۱ ? ۱۲۹

النّور

?وَمَن لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُورٍ/۴۰ ?۲۱، ۲۶

الفرقان

?قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّی لَوْلا دُعَاؤُكُمْ/۷۷ ?۱۴۶

الشعراء

?يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ* إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ/۸۸ ۸۹ ?۵۹

القصص

?قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِی أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَکَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا/۷۸ ?۱۰۵

الأحزاب

?يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِکَ وَبَنَاتِکَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ /... ۵۹ ?۸۴

?لَقَدْ کَانَ لَکُمْ فِی رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ/۲۱ ?۲۳۷، ۲۶۵، ۳۰۵

?الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ/۳۹ ?۸۳

يس

?وَجاءَ مِنْ أَقْصَی الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعی/۲۰ ?۲۹۳

الصافات

?فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ/۱۴۲ ?۱۲۱

ص

?قَالَ فَبِعِزَّتِکَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ/۸۲ ۸۳ ?۱۸۳

الزمر

?قُلْ هَلْ يَسْتَوِی الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ/۹ ?۲۷۸، ۳۰۶

?وَبَدَا لَهُم مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ/۴۷ ?۱۳، ۱۶، ۱۷۸

غافر

?إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِی الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ/۵۱ ?۲۸۵

?يَعلَمُ خَائِنَةَ الأعيُن /... ۱۹ ?۴۱

الشوری

?أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ/۱۳ ?۲۳۰، ۲۳۳، ۲۶۹، ۳۱۳

الجاثية

?قُل لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُون /... ۱۴ ?۸۴، ۱۳۰

الأحقاف

?إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ/۱۳ ?۲۳۹

الفتح

?وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا/۲۹ ?۲۴۲

الحجرات

?إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ/۱۳ ?۱۰۴

?إِنَّ فِی ذَلِکَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ/۷۵ ?۲۱۱

الذاريات

?وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ/۵۶ ?۹

النجم

?وَأَن لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى/۳۹ ?۱۸۲، ۲۷۳

فهرس الأحاديث

«أ»

فهرس المصادر

القرآن الكريم

نهج البلاغة

«أ»

إحياء علوم الدين لمحمد بن محمد الغزالى، أبو حامد / ت ۵۰۵ ه / ط. دار المعرفة بيروت.

الاختصاص لأبى عبد الله محمد بن النعمان العكبرى، المفيد / ت ۴۱۳ ه / ط. جماعة المدرسين قم.

إرشاد القلوب للشيخ أبى محمد الحسن بن أبى الحسن محمد الديلمى / من أعلام القرن الثامن / ط. منشورات الرضى قم.

الإستبصار للشيخ أبى جعفر محمد بن الحسن الطوسى / ت ۴۶۰ ه / ط. دار الكتب الإسلامية قم.

أسرار الشهادة للشيخ آغا بن عابد الشيروانى الحائرى الدربندى / ت ۱۲۸۵ ه / ط. دار ذوى القربى قم.

أعلام الدين فى صفات المؤمنين للشيخ أبى محمد الحسن بن أبى الحسن محمد الديلمى / من أعلام القرن الثامن الهجرى / ط. مؤسّسة آل البيت عليهم السلام قم.

إعلام الورى بأعلام الهدى لأمين الإسلام الشيخ أبى على الفضل بن الحسن الطبرسى / ت ۵۴۸ ه / ط. مؤسّسة آل البيت عليهم السلام قم.

الأمالى لشيخ الطائفة أبى جعفر محمد بن الحسن الطوسى / ت ۴۶۰ ه / ط. دار الثقافة قم.

«ب»

بحار الأنوار للعلامة محمد باقر بن محمد تقى، الملقب بالشيخ المجلسى / ت ۱۱۱۱ ه / ط. مؤسّسة الوفاء بيروت.

البداية والنهاية لأبى الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقى / ت ۷۷۴ ه / ط. دار احياء التراث العربى بيروت.

«ت»

تاج العروس لمحب الدين أبى الفيض السيّد محمد مرتضى الحسينى الزبيدى / ت ۱۲۰۵ ه / ط. مكتبة الحياة بيروت.

تاريخ مدينة دمشق لأبى القاسم على بن الحسن بن هبة الله، المعروف بابن عساكر / ت ۵۷۱ / ط. دار الفكر بيروت.

تحف العقول لأبى محمد الحسن بن على بن الحسين بن شعبة الحرّانى / من أعلام القرن الرابع الهجرى / ط. مؤسّسة النشر الإسلامى قم.

التحفة السنية للسيّد عبد الله نور الدين بن نعمت الله / ت ۱۰۱۹ ه / مخطوط.

تفسير الإمام العسكرى منسوب الى الإمام الحسن بن على العسكرى عليهما السلام.

تفسير القمّى لأبى الحسن على بن ابراهيم القمّى / ت ۳۲۹ ه / ط. مؤسّسة دار الكتب قم.

تفسير مجمع البيان لأمين الإسلام أبى على الفضل بن الحسن الطبرسى / ت ۵۴۸ ه / ط. مؤسّسة الأعلمى بيروت.

تفسير الميزان للسيّد محمد حسين الطباطبائى / ت ۱۴۰۲ ه / ط. مؤسّسة النشر الإسلامى قم.

تهذيب الأحكام للشيخ أبى جعفر محمد بن الحسن الطوسى / ت ۴۶۰ ه / ط. دار الكتب الإسلامية طهران.

التوحيد للشيخ أبى جعفر محمد بن على بن الحسين بن بابوية القمّى، الصدوق / ت ۳۸۱ ه / ط. جامعة مدرسين قم.

«ج»

جامع الرواة للعلامة محمد بن على الأردبيلى / ت ۱۱۰۱ ه / ط. مكتبة المحمدى قم.

جامع السعادات للشيخ محمد مهدى النراقى / ت ۱۲۰۹ ه / ط. مطبعة النعمان النجف الأشرف.

«خ»

خصائص الأئمة لأبى الحسن محمد بن الحسين بن موسى الموسوى، الشريف الرضى / ت ۴۰۶ ه / ط. مجمع البحوث الإسلامية، الأستانة الرضوية المقدّسة مشهد.

الخصال للشيخ أبى محمد بن على بن الحسين بن بابويه القمّى، الصدوق / ت ۳۸۱ ه / ط. جماعة المدرسين قم.

خلاصة عبقات الأنوار للسيّد حامد الحسينى النقوى / ت ۱۳۰۶ ه / ط. مؤسّسة البعثة قم.

«ر»

روضة الواعظين للعلامة محمد بن الفتّال النيسابورى / ت ۵۰۸ ه / ط. منشورات الرضى قم.

«س»

سعد السعود لرضى الدين أبى القاسم على بن موسى بن طاووس / ت ۶۶۴ ه / ط. الحيدرية النجف الأشرف.

«ش»

شجرة طوبى للشيخ محمد مهدى الحائرى / من أعلام القرن الرابع عشر الهجرى / ط. المكتبة الحيدرية قم.

شرح الأخبار للقاضى أبى حنيفة النعمان بن محمد التميمى المقرى / ت ۳۶۳ ه / ط. مؤسّسة النشر الإسلامى قم.

شرح نهج البلاغة لعزّ الدين عبد الحميد بن أبى الحديد المعتزلى / ت ۶۵۶ ه / ط. دار إحياء الكتب العربية بيروت.

«ص»

الصحيح من السيرة للسيّد جعفر مرتضى العاملى / معاصر / ط. دار الهدى بيروت.

«ع»

عدة الداعى لأحمد بن فهد الحلّى / ت ۸۴۱ ه / ط. حكمت قم.

عوالى اللئالى للشيخ محمد بن على بن ابراهيم الاحسائى، المعروف بابن أبى جمهور / ت ۸۸۰ ه / ط. سيّد الشهداء عليه السلام قم.

عيون الحكم والمواعظ للشيخ أبى الحسن على بن محمد الواسطى / من أعلام القرن السادس الهجرى / ط. دار الحديث قم.

«غ»

غرر الحكم للآمدى الشيخ أبى الفتح عبد الواحد بن محمد بن عبد الواحد / ت ۵۱۰ ه / ط. مكتبة الإعلام الإسلامى قم.

الغيبة للشيخ أبى جعفر محمد بن الحسن الطوسى / ت ۴۶۰ ه / ط. مؤسّسة المعارف الإسلامية قم.

«ف»

الفرج بعد الشدّة للقاضى أبى على الحسن بن أبى القاسم التنوخى / ت ۳۸۴ ه / ط. منشورات الرضى قم.

الفصول المختارة لأبى عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبرى، المفيد / ت ۴۱۳ ه / ط. دار المفيد بيروت.

فضائل الأشهر الثلاثة للشيخ أبى جعفر محمد بن على بن الحسين بن بابويه القمّى الصدوق / ت ۳۸۱ ه / ط. دار المحجة البيضاء بيروت.

فلاح السائل لرضى الدين أبى القاسم على بن موسى بن طاووس / ت ۶۶۴ ه / ط. الحيدرية النجف الأشرف.

«ق»

القاموس المحيط للشيخ نصر الهورينى / ت ۸۱۷ ه /.

«ك»

الكافى للشيخ أبى جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق الكلينى / ت ۳۲۸ ه / ط. دار الكتب الاسلامية طهران.

كمال الدين وتمام النعمة للشيخ أبى جعفر محمد بن على بن الحسين بن بابويه القمّى، الصدوق / ت ۳۸۱ ه / ط. مؤسّسة النشر الإسلامى قم.

كنز العمّال للعلامة علاء الدين على المتقى بن حسام الدين الهندى / ت ۹۷۵ ه / ط. مؤسّسة الرسالة بيروت.

كنز الفوائد للعلامة أبى الفتح محمد بن على الكراجكى / ت ۴۴۹ ه / ط. مكتبة الصطفوى قم.

«ل»

لسان العرب للعلامة أبى الفضل جمال الدين بن منظور / ت ۷۱۱ ه / ط. دار إحياء التراث العربى قم.

اللمعة البيضاء للمولى محمد على بن أحمد التبريزى الأنصارى / ت ۱۳۱۰ ه / ط. دفتر نشر الهادى قم.

«م»

مجمع الزوائد للحافظ نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى / ت ۸۰۷ ه / ط. دار الكتب العلمية بيروت.

مجموعة ورّام للأمير الزاهد أبى الحسين ورّام بن أبى فراس الأشترى / ت ۶۰۵ ه / ط. دار الكتب الاسلامية طهران.

مدينة المعاجز للسيّد هاشم بن سليمان البحرانى / ت ۱۱۰۷ ه / ط. مؤسّسة المعارف الاسلامية قم.

المزار للشيخ محمد بن مكّى العاملى، المعروف بالشهيد الأوّل / ت ۷۸۶ ه / ط. مدرسة الإمام المهدى عجّل الله تعالى فرجه الشريف قم.

مستدرک سفینة البحار للشیخ علی النمازی الشاهرودی / ت ۱۴۰۵ ه / ط. مؤسّسة النشر الاسلامیة قم.
مستدرک وسائل الشیعة للمیرزا حسین النوری الطبرسی / ت ۱۳۲۰ ه / ط. مؤسّسة آل البیت علیهم السلام لإحیاء التراث قم.
المستدرک علی الصحیحین لأبی عبد الله الحاکم النیسابوری / ت ۴۰۵ ه / ط. دار المعرفة بیروت.
مستند الشیعة للمولی أحمد بن محمد مهدی النراقی / ت ۱۲۴۵ ه / ط. مؤسّسة آل البیت علیهم السلام لإحیاء التراث مشهد.
مسند الربیع للربیع بن حبیب بن عمرو الفراهیدی / من أعلام القرن الثانی الهجری / ط. الأزهار البارونیة بیروت.
مشکاة الأنوار لأبی الفضل علی الطبرسی / من أعلام القرن السادس وأوائل السابع الهجریین / ط. المکتبة الحیدریة النجف الأشرف.
مصباح المتهجد لأبی جعفر محمد بن الحسن بن علی الطوسی / ت ۴۶۰ ه / ط. مؤسّسة فقه الشیعة بیروت.
مصباح الزائر للسیّد رضی الدین أبی القاسم علی بن موسی بن طاووس / ت ۶۶۴ ه /
معجم البلدان لشهاب الدین أبی عبد الله، یاقوت الحموی / ت ۶۲۶ ه / ط. دار إحیاء التراث العربی بیروت.
معدن الجواهر لأبی الفتح محمد بن علی الکراجکی / ت ۴۴۹ ه / ط. مهر أستوار قم.
مکارم الأخلاق للشیخ رضی الدین أبی نصر الحسن بن الفضل الطبرسی / ت ۵۴۸ ه / ط. منشورات الشریف الرضی قم.
من لا یحضره الفقیه للشیخ أبی جعفر محمد بن علی بن الحسین بن بابویه القمّی، الصدوق / ت ۳۸۱ ه / ط. جماعة المدرسین قم.
مناقب آل أبی طالب لمشیر الدین أبی عبد الله محمد بن علی بن شهر آشوب المازندرانی / ت ۵۸۸ ه / ط. الحیدریة النجف الأشرف.
منتخب الأنوار للسیّد بهاء الدین بن عبد الکریم النیلی النجفی / ت ۸۰۳ ه / ط. مؤسّسة الإمام الهادی علیه السلام قم.
منیة المرید للشیخ زین الدین بن علی العاملی، المعروف بالشهید الثانی / ت ۹۶۵ ه / ط. مکتب الإعلام الإسلامی قم.

«ن»

نوادر المعجزات لأبی جعفر محمد بن جریر بن رستم الطبری / ت أوائل القرن الرابع الهجری / ط. مؤسّسة الإمام المهدی عجل الله تعالی فرجه الشریف قم.

«و»

وسائل الشیعة للشیخ محمد بن الحسن الحرّ العاملی / ت ۱۱۰۴ ه / ط. مؤسّسة آل البیت علیهم السلام لإحیاء التراث قم.

«ی»

ینابیع المودّة للشیخ سلیمان بن ابراهیم القندوزی الحنفی / ت ۱۲۹۴ ه / ط. أُسوة قم.

پی نوشتها

() بحار الأنوار للمجلسی: ج۱ ص۲۰۴ باب۴، مذاکرة العلم ومجالسة العلماء، ح۲۴.

() کنز الفوائد للکراجکی: ص۱۳ الفصل الأوّل، مختصر الکلام فی أنّ للحوادث أوّلاً.

() مستدرک سفینة البحار للنمازی: ج۹ ص۲۸، باب فضل کتابة الحدیث وروایته.

() بحار الأنوار: ج۱ ص۱۸۵ باب۱، فرض العلم، ... ح۱۰۲.

() سورة الذاریات، الآیة: ۵۶.

() فلاح السائل لابن طاووس: ص۱۲۷.

() حقّاً لو أنّ هذا التعبیر لم یرد عن رسول الله صلّی الله علیه وآله وعلی لسانه، لما أمکن لأیّ عالِم غیر أئمّة أهل البیت سلام الله علیهم أن یتفوّه بمثله أبداً؛ إذ کیف یکون النوم مع أنّ النائم لا یعمل شیئاً خیراً من الصلاة، وهی رأس العبادات وأهمّها؟ =

= نعم، لو کانت الصلاة باطلة، کان عدمها خیراً من وجودها، والنوم ترکٌ أی عدم، ولکنّ الحدیث لم یقیّدها بالبطلان أو عدم القبول

وما أشبه، بل فضّل النوم إن كان مع علم، على مطلق الصلاة صحيحة أو باطلة إذا كانت مع جهل (منه دام ظله).

() للشيخ المولى مهدى النراقى (ت: ۱۲۰۹ه). وهو كتاب أخلاقىّ.

() للعلاّمة الحجّة فخر المحققين المولى الشيخ محمد باقر المجلسى قدس سره (۱۰۳۷ ۱۱۱۰ه)، وهو موسوعة قد جمع المؤلّف فيها ما وقع عليه من أخبار الأئمة المعصومين سلام الله عليهم، لذلك أسماه: بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار.

() هو: الفقيه الشيخ عبد الكريم محمد جعفر المهرجردى اليزدى الحائرى (ت ۱۳۵۵ ه)، مؤسّس الحوزة العلمية فى مدينة قم المقدّسة.

() ولذلك فإنّ الناقل الأوّل للقصة يحتمل أن يكون الشيخ أو ضيفه.

() سورة الزمر، الآية: ۴۷.

() راجع تفسير مجمع البيان للطبرسى، مورد تفسير الآية.

() فإنّ الكلينى على حدّ تعبير بعض العلماء يروى هذا الحديث عن علىّ بن إبراهيم، عن أبيه إبراهيم بن هاشم، فالسلسلة تقتصر على هؤلاء الثلاثة فقط وهم: الكلينى، وعلىّ بن إبراهيم، وأبوه إبراهيم الذى ينقل القصّة التى شهدها بنفسه فى مجلس الإمام الجواد سلام الله عليه.

() يعنى: الإمام الجواد سلام الله عليه.

() الكافى للكلينى: ج۱ ص۵۴۸ ح۲۷.

() سورة الزمر، الآية: ۴۷.

() هذا بيت القصيد وشاهدنا من هذه القصّة.

() كمال الدين وتمام النعمة: ص۵۰۷ ح۳۷.

() روضة الواعظين للنيسابورى: ص۱۱، فى فضل العلم.

() مصباح الشريعة المنسوب للإمام الصادق سلام الله عليه: ص۱۶.

() سورة النور، الآية: ۴۰.

() منية المريد للشهيد الثانى: ص۱۰۱، الفصل الثانى: فى ما روى عن النبى صلى الله عليه وآله فى فضل العلم.

() سورة الأعراف، الآية: ۱۷۵.

() الفصول المختارة للمفيد: ص۱۰۷.

() يحدث أحياناً كثيرة أن يختلف العلماء فى لفظ الحديث، كما هو الحال فى حديث «طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة». فقد كان أحد العلماء الماضين رحمه الله يقول: إنّ لفظ «ومسلمة» غير موجود فى نصّ الحديث، ولكنّى وجدتُ روايات تتضمّن هذا اللفظ، (منه دام ظله) انظر: مشكاة الأنوار لعلى الطبرسى: ص۲۳۶؛ عدّة الداعى لابن فهد الحلّى: ص۶۳.

() غوالى اللآلى للأحسائى: ج۱ ص۲۹۲ ح۱۶۳.

() سورة النور، الآية: ۴۰.

() لقد اعتاد أهل العلم إذا اجتمعوا وطُرحت مسألة علمية سواء فى الفقه أو الأصول أو النحو أو المنطق والعلوم الأخرى أن يدلى كلّ منهم بدلوه ليبيّن وجهة نظره. فلو ذكر حديث مثلاً، قال أحدهم: إنّه غير وارد، وقال آخر: إنّ سنده غير صحيح، أو إنّ فى سنده فلاناً، أو يقول آخر: إنّه موثّق، وهكذا.

() نهج البلاغة: ج۲ ص۱۱ خ۱۲۹.

() مشكاة الأنوار للطبرسى: ص۵۶۳، الباب التاسع: فى ذكر المواعظ.

() درس البحث الخارج: هو مرحلة عليا من الدراسات الحوزويّة.

() وسائل الشيعة للحر العاملى: ج۵ ص۱۹۱ باب۴۴، باب جواز تقدّم المصلّى عن مكانه، ح۴. وابن طاب: نوع من تمر المدينة. والعرجون: عذق النخلة اليابس.

() هو: أُستاذ الشيخ جعفر كاشف الغطاء الذى تلمذ عليه شريف العلماء، أُستاذ الشيخ الأنصارى وزميله (محلّ الاعتبار فى القصّة).

() سؤال وجواب للسيّد اليزدى: ص۴۷. (فارسى).

() وسائل الشيعة: ج۵ ص۱۹۱ باب۴۴ ح۵.

() سكن شريف العلماء فى مدينة كربلاء المقدّسة، وكانت كربلاء فى ذلك العصر على ما رُوى تحتضن أكبر حوزة علمية للشيعة على وجه الأرض، وبعد وفاة شريف العلماء انتقلت الحوزة إلى مدينة النجف الأشرف، وكان الشيخ الأنصارى ممّن هاجر إليها.

() اقتباس من قوله تعالى?: يَعلَمُ خَائِنَةَ الأعيُن ? ... سورة غافر، الآية ۱۹.

() انظر مصباح الشريعة: ص۱۶. وخلاصة عبقات الأنوار: ج۱ ص۱۱۴.

() انظر الاختصاص للمفيد، ص۳۴۱، من وصايا لقمان الحكيم لإبنه.

() ألفية ابن مالك: ج۲ ص۱۱.

() بحار الأنوار للمجلسى: ج۱۴ ص۳۱۹ ح۲۰.

() اقتباس من قوله تعالى?: بَلِ الإنسانُ عَلى نَفسِهِ بَصيرَة ?سورة القيامة، الآية: ۱۴.

() سورة الطلاق، الآية: ۷.

() سعد السعود لعلى بن طاووس الحلّى: ص۷۸.

() راجع الاختصاص للشيخ المفيد: ص۳۳۶، بعض وصايا لقمان الحكيم لإبنه سلام الله عليهما.

() إشارة إلى قوله تعالى?: وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ?سورة الحشر، الآية: ۱۹.

() هو: الشيخ الأجلّ زين الدين بن على بن أحمد بن محمد بن جمال الدين العاملى الجبعى. قال فيه الحرّ العاملى: أمره فى الثقة والعلم والفضل والزهد والعبادة والورع والتحقيق وجلالة القدر وعظم الشأن وجمع الفضائل والكمالات أشهر من أن يُذكر، ومحاسنه وأوصافه الحميدة أكثر من أن تحصى وتحصر، ومصنّفاته كثيرة مشهورة. روى عن جماعة كثيرين جدّاً من الخاصّة والعامّة فى الشام ومصر وبغداد وقسطنطينية وغيرها. =

= وذكره السيد مصطفى بن الحسين الحسينى التفرشى فى كتاب الرجال، وقال فيه: وجه من وجوه هذه الطائفة وثقاتها، كثير الحفظ، نقيّ الكلام، له تلاميذ أجلّاء، وله كتب نقيّة جيّدة، منها: شرح شرائع المحقق الحلى. قُتل لأجل التشيع فى قسطنطينية سنة ۹۶۶ ه. أمل الآمل للحرّ العاملى: ج۱ ص۸۵.

() وهو: كتاب فى علم الأخلاق، أسماه مؤلّفه الشهيد الثانى: منية المريد فى آداب المفيد والمستفيد. حرىّ بطلبة العلم مطالعته، لما فيه من مطالب ثمينة فى أبحاث العلم.

() منية المريد لشهيد الثانى: ص۱۶۲، ۱۶۳.

() الكافى للكلينى: ج۵ ص۶۳، باب كراهة التعرض لما لا يطيق، ح۶.

() الكافى: ج۲ ص۳۷۵، باب مجالسة أهل المعاصى، ح۴.

() سورة الشعراء، الآيتان: ۸۸ ۸۹.

() مستدرك الوسائل للنورى: ج۱۱ ص۱۸۷ ب۶ ح۱.

() سورة الصف، الآيتان: ۲۳.

() انظر مجموعة ورّام لأبى فراس الأشترى: ج۲ ص۱۳۵.

وفى مجمع الزوائد للهيثمى: ج۱ ص۱۸۵: إنّ أناساً من أهل الجنة ينطلقون إلى أناس من أهل النار، فيقولون: لِمَ دخلتم النار؟! فوالله، ما دخلنا الجنّة إلا بما تعلّمنا منكم. فيقولون: إنا كنّا نقول ولا نفعل.

() إرشاد القلوب للديلمى: ج۱ ص۱۲۸.

() سورة آل عمران، الآية: ۱۴۴.

() المدفون فى مقبرة تُعرف ب «مقبرة ابن بابويه» فى قم المقدّسة، وهو شيخ القميين، ووالد الشيخ الصدوق. له رسالة حوت أحكاماً وسنناً وآداباً، قد تناولتها الكتب المعتبرة عندنا.

() سورة الصف، الآية: ۳.

() قول لبعض الحكماء. راجع تاج العروس للزبيدى: ج۶ ص۴۹ «مادّة آفة».

() سورة الرعد، الآية: ۲۸.

() راجع التبيان للطوسى: ج۶ ص۲۴۹، مورد تفسير سورة الرعد، الآية ۲۸.

() راجع الكافى: ج۳ ص۴۶۸، باب من حافظ على صلاته أو ضيّعها.

() أحد العلماء المعروفين فى النجف، توفّى قبل أكثر من نصف قرن.

() سورة الأعراف، الآية: ۳۲.

() عن أبى اسحاق الخزاعى، عن أبيه، قال: دخلت مع أبى عبد الله عليه السلام على بعض مواليه يعوده، فرأيت الرجل يكثر من قول: آه. فقلت له: يا أخى، اذكر ربّك واستغث به!!

فقال أبو عبد الله عليه السلام: إنّ «آه» اسم من أسماء الله عزّ وجلّ. فمن قال: آه، فقد استغاث بالله تبارك وتعالى. معانى الأخبار للصدوق: ص۳۵۴، باب: معنى قول المريض: آه.

() سورة المائدة، الآية: ۱۰۵.

() كتاب فقهىّ كامل من كتاب الطهارة إلى كتاب الديات، وهو بحجم «الشرائع» تقريباً.

يُحكى: أنّ أحد مدارس طهران قد اشترط واقفها على طالب العلم الذى يُعطى حجرة فيها، أن يعنى بكتاب القواعد للعلاّمة الحلّى. أى يكون جزءاً من اهتماماته وضمن منهاجه سواءً درساً أو تدريساً أو مباحثة أو شرحاً.

وعندما سئل الواقف عن سبب اشتراطه هذا الشرط، قال: رأيت أنّ هذا الكتاب الجيد مهمل والطلبة كلهم متّجهون إلى الشرائع، فأحببت أن أروّج له ليكون كالشرائع.

وهكذا يأتى اليوم بعد مرور ستّمائة سنة أو أكثر ليروّج للقواعد عن طريق وقف مدرسة وإعطاء امتياز ساكنيها لمن يهتمّ بهذا الكتاب.

() هو: الشيخ محمد حسن النجفى، المتوفّى سنة ۱۲۶۶ ه.

() سورة الرعد، الآية: ۲۸.

() سورة الأحزاب، الآية: ۳۹.

() سورة الأحزاب، الآية: ۵۹.

() سورة الأنفال، الآية: ۳۸.

() سورة الجاثية، الآية: ۱۴.

() سورة الكافرون، الآية: ۱.

() سورة طه، الآيتان: ۱ ۲.

() راجع تفسير الميزان للطباطبائى: ج۱۸ ص۳۱۰، مورد تفسير سورة الحجرات، الآية: ۴.

() الكافی للكلينی: ج۲ ص۵۲۴ ح۱۰.

() وهی بدعة ابتدعها معاوية بن أبی سفيان بعد استشهاد أمير المؤمنين سلام الله عليه وصيّرها سنّة ألزم بها رقاب الناس وأشربهم زعافها.

() مستدرك الوسائل للنوری: ج۴ ص۱۰۰ ب۲، تأكّد استحباب الخشوع فی الصلاة، واستحضار عظمة الله، ح۱۷.

() وسائل الشيعة، ج۴ ص۱۹۶، باب جواز تأخير المغرب حتی يغيب الشفق، بل بعده لعذر، وكراهته لغير عذر، ح۱۰.

() بحار الأنوار، ج۳۷ ص۲۰۴، نصّ خطبة النبیّ صلی الله عليه وآله فی يوم الغدير.

() اشارة لفقرة من فقرات الزيارة الجامعة الكبيرة.

() الكافی: ج۲ ص۷۸ ح۱۴.

() شرح الأخبار للقاضی النعمان: ج۳ ص۲۳۱.

() سورة آل عمران، الآية: ۹۲.

() سورة الإنسان، الآية: ۸.

() راجع تفسير نور الثقلين للحويزی: ج۴ ص۳۰، مورد تفسير سورة الدهر، الآية ۸.

() انظر شرح نهج البلاغة للمعتزلی: ج۴ ص۱۱۰.

() عيون الحكم والمواعظ للواسطی: ص۲۱۸ ب۴ ف۳.

() رُوی أنّ النبی صلّی الله عليه وآله قال لرجل جاءه يستعدی علی والده: «أنت ومالك لأبيك» انظر الاستبصار للطوسی: ج۳ ص۴۸ رقم۲.

() الكافی: ج۴ ص۷ ح۱، فضل صدقة السرّ.

() كما ورد فی كثير من الأدعية والأوراد. انظر مفاتيح الجنان للقمی، دعاء كميل مثلاً.

() من الأمثال العربية.

() سورة هود، الآية: ۱۱۸ ۱۱۹.

() هو: الميرزا محمد حسن الشيرازی الذی أفتی بتحريم التنباك أيّام ناصر الدين شاه حينما عقد معاهدة مع إحدی الشركات الأجنبية حول التنباك وكانت تضرّ بالأمّة الإيرانية. توفّی عام ۱۳۱۲ه.

() صاحب الفتوی المشهورة فی ثورة العشرين ضدّ الاحتلال الانجليزی للعراق عام ۱۹۲۰م، توفّی عام۱۳۳۸ه.

() لقوله صلّی الله عليه وآله: إذا مات ابن آدم، انقطع عمله الا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، وصدقة جارية، وعلم ينتفع به، غوالی اللئالی للاحسائی: ج۱ ص۹۷، الفصل السادس، ح۱۰.

() انظر مكارم الأخلاق للطبرسی: ص۴۶۸، الفصل الخامس، من وصية رسول الله صلّی الله عليه وآله لأبی ذرّ.

() سورة الحجرات، الآية: ۱۳.

() بحار الأنوار: ج۱۶ ص۲۱۰ باب ۹ مكارم أخلاقه صلی الله عليه وآله.

() سورة هود، الآيتان: ۱۱۸۱۱۹.

() سورة القصص، الآية: ۷۸.

() من لا يحضره الفقيه للصدوق: ج۴ ص۴۰۴ رقم ۵۸۷۲.

() قال تعالی?: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ ?سورة المائدة، الآية: ۸۲.

() عن أنس بن مالك قال: صحبت رسول الله صلی الله عليه وآله عشر سنين، وشممت العطر كلّه فلم= = أشمّ نكهة أطيب من نكهته،

وكان إذا لقيه أحد من أصحابه قام معه فلم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذى ينصرف عنه، وإذا لقيه أحد من أصحابه فتناول بيده ناولها إياه فلم ينزع عنه حتى يكون الرجل هو الذى ينزع عنه، وما أفرج ركبتيه بين جليس له قطّ، وما قعد إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله رجل قطّ فقام حتى يقوم. مكارم الأخلاق للطبرسى: ص۱۷.

() روى عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: لولا أنى أكره أن يقال: إنّ محمداً استعان بقوم حتى إذا ظفر بعدّوه قتلهم، لضربت أعناق قوم كثير. الكافى للكلينى: ج۸ ص۳۴۵ ح۵۴۴، لولا قول الناس لضرب النبى صلّى الله عليه وآله أعناق جمع من الصحابة!

() للتفصيل راجع مناقب أمير المؤمنين سلام الله عليه للكوفى: ج۲ ص۳۴۲، كلام أمير المؤمنين سلام الله عليه حول قتاله مع أعدائه.

() راجع بحار الأنوار: ج۷۱ ص۱۵۴، أبواب آداب العشرة.

() عيون الحكم والمواعظ للواسطى: ص۴۳۷.

() غرر الحكم للتميمى: ص۳۲۹ رقم ۴۸۳۱، توبيخ النفس.

() روضة الواعظين للنيسابورى: ص ۳۸۰، مجلس فى ذكر حسن الخلق.

() الامالى للطوسى: ص ۴۸۱، المجلس السابع عشر، رقم ۱۹.

() شعب الإيمان للبيهقى: ج۶ ص ۳۵۱ رقم۸۴۷۵.

() تحف العقول للحرّانى: ص۴۲، من قصار كلماته صلى الله عليه وآله.

() انظر مستدرك الوسائل للنورى: ج۱۱ ص۱۷۷ ح۱۲۶۸۲.

() الكافى: ج۵ ص۵۵، باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ح۲۰.

() روى أنّه: كان عمرو بن قيس قد تأخّر إسلامه، فلمّا بلغه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله فى الحرب أخذ سيفه وترسه، وأقبل كالليث العادى يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله، ثم خالط القوم، فاستشهد، فمرّ به رجل من الأنصار فرآه صريعاً بين القتلى، فقال: يا عمرو! وأنت على دينك الأوّل؟ قال: لا والله، إنّى أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله، ثم مات، فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله: يا رسول الله، إنّ عمرو بن قيس قد أسلم وقتل، فهو شهيد؟ قال: إى والله، شهيد، ما رجل لم يصلّ لله ركعة دخل الجنّة غيره. تفسير القمّى: ج۱ ص۱۱۷، مورد تفسير سورة آل عمران، الآية: ۱۲۲ فى بيان معركة أحد، شهادة حمزة عليه السلام.

() راجع أسرار الشهادة للرشتى: ج۲ ص۲۱۰۲۱۹ المجلس السابع فى ذكرى شهادة جمع من=

= أصحاب سيد الشهداء روحى فداه.

() سورة الصافات، الآية: ۱۴۲.

() تفسير القمّى: ج۱ ص۴۹، مورد تفسير سورة الأنبياء، الآية: ۸۷.

() الكافى للكلينى: ج۸ ص۳۴۵ ح۵۴۴.

() ورد فى بحار الأنوار: ج۷۲ ص۴۰۱ باب ۸۷ باب التقية والمدارة، ح۴۲، عن تفسير الإمام العسكرى سلام الله عليه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الأنبياء إنّما فضّلهم الله على خلقه بشدّة مداراتهم لأعداء الله»....

() وهى ماء بين الطائف ومكّة، وهى إلى مكّة أقرب. انظر معجم البلدان للحموى: ج۲ ص۱۴۲.

() راجع أعلام الورى للطبرسى: ج۱ ص۲۳۵، غزوة حنين.

() مناقب آل أبى طالب، للمازندرانى: ج۱ ص۵۱، فصل فيما لاقى صلّى الله عليه وآله من الكفّار.

() فروع الكافى للكلينى: ج۶ ص۴۴۴، باب اللباس ح۱۵.

() روضة الواعظين للنيسابورى: ص۳۸۰، مجلس فى ذكر حسن الخلق.

() سورة طه، الآية: ۱۳۱.

() سورة الجاثية، الآية: ۱۴.

() الكافی: ج۲ ص۱۴۰، باب الكفاف، ح۴.

() سورة آل عمران، الآية: ۹۲.

() سورة آل عمران، الآية: ۲۶.

() الثغاء: صوت الشاة والمعز وما شاكلها. لسان العرب لإبن منظور: (مادّة ثغا).

() انظر تاريخ مدينة دمشق لإبن عساكر: ج۴۷ ص۳۹۶.

() مستدرك الوسائل: ج ۹ ص۱۶ ح۱.

() بحار الأنوار: ج۱ ص۱۵۴ ب۴ ح۳۰، فی الوصية الطويلة للإمام الكاظم سلام الله عليه إلی هشام بن الحكم.

() مستدرك الوسائل: ج۹ ص۳۴ ح۲۲.

() نهج البلاغة: ج۴ ص۱۱، الكلمات القصار، رقم ۴۰.

() روی عن لقمان أنّه قال:

ما إن ندمت علی سكوت مرة ولقد ندمت علی الكلام مرارا.

أعلام الدين للديلمی: ص۸۸.

() وسائل الشيعة: ج۱۵، ص۱۹۷.

() نهج البلاغة: ج۴ ص۱۰۵، باب الحكم القصار، رقم ۴۵۶.

() خرج بالبصرة زمن المأمون العباسی، وقد أحرق دور بنی العباس، فسمّی بزيد النار. راجع سرّ السلسلة العلويّة لأبی نصر البخاری: ص۳۷، أولاد الإمام أبی إبراهيم موسی بن جعفر الكاظم سلام الله عليه.

() عيون أخبار الرضا سلام الله عليه للصدوق: ج۱ ص۲۵۹ باب قول الرضا سلام الله عليه لأخيه زيد، ح۴.

() بحار الأنوار: ج۷۲ ص۲۷۵.

() انظر شجرة طوبی للحائری: ج۲ ص۳۹۷، تعليق المؤلف علی قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ما شیء أحق بطول الحبس من اللسان.

() سورة الفرقان، الآية: ۷۷.

(۱) فضائل الأشهر الثلاثة للصدوق: ص۷۷ رقم ۶۱، والأمالی له: ص۱۵۳ رقم ۴، المجلس العشرون.

(۱) نهج البلاغة: ۳ج ص۷۰ رقم۴۵. من كتاب له سلام الله عليه إلی عثمان بن حنيف.

(۱) من قصيدة للشافعی. راجع كشف الخفاء للعجلونی: ج۱ ص۴۰.

(۱) الكافی: ج۲ ص۳۴۵، باب ذی اللسانين، ح۶.

(۱) بحار الأنوار: ج۶۰ ص۳۲۹، الأخبار الدلّة علی وجود الجنّ والشياطين.

() غوالی اللآلی: ج۴ ص۹۷ رقم ۱۳۶.

() فضائل الأشهر الثلاثة للصدوق، ص۷۷ رقم۶۱ والأمالی له، ص۱۵۳ رقم۴ المجلس العشرون.

() فی قوله صلی الله عليه وآله: «ومن تلا فيه آية من القرآن، كان له أجر من ختم القرآن فی غيره من الشهور». راجع الخطبة موضع الاستشهاد.

(۲) وسائل الشيعة: ج۴ ص۲۸۶ ب۶۰ ح۷، من شك قبل خروج الوقت...

() بحار الأنوار: ج۳۲ ص۳۳۱ ب۸، حکم من حارب علياً عليه السلام.

() الكافی: ج۴ ص۵۷۵ ح۲. كامل الزيارات لإبن قولويه: ص۳۶۲ باب۵۴، ثواب من زار الحسين بن علی سلام الله عليهما، ح۲.

() يؤيّده قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «فنحن صنائع الله، والخلق كلهم صنائع لنا». انظر اللمعة البيضاء للتبريزی: ص۶۴.

() روى القندوزی بسنده عن الإمام الصادق سلام الله عليه قوله ...: «وبنا يمسك السماء أن تقع على الأرض إلّا بإذنه، وبنا ينزل الله الغيث وتنشر الرحمة، وتخرج بركات الأرض، ولولا ما على الأرض منّا لساخت بأهلها». انظر ينابيع المودّة: ج۳ ص۳۶۰ رقم۳.

(۱) راجع الكافی: ج۱ ص۱۶۸ ۴۲۸، كتاب الحجة.

() الكافی: ج۱ ص۴۴ ح۴.

() تهذيب الأحكام: ج۱۰ ص۴۹. جامع الرواة للأردبيلی: ج۲ ص۵.

أقول: ومزار الفضل بن شاذان فی نيسابور، وقد وفّقت مراراً لزيارته. وتقع نيسابور على طريق مشهد، فحریّ بالذاهبين إلى مشهد لزيارة الإمام الرضا سلام الله عليه أن يعرّجوا على نيسابور لزيارة الفضل. بل إنّه حتى لو كان مزاره فی مكان آخر لاستحقّ أن تُشدّ الرحال لزيارته.

() روی: أنّ شخصاً قدِم إلى الإمام الصادق سلام الله عليه للتوبة وقال للإمام: «جُعلت فداك إنی كنت فی ديوان هؤلاء القوم فأصبت من دنياهم مالاً كثيراً وأغمضت فی مطالبه. فقال أبو عبد الله سلام الله عليه: «لولا أنّ بنی أمية وجدوا مَن يكتب لهم ويجبی لهم الفیء ويقاتل عنهم ويشهد جماعتهم لما سلبونا حقّنا، ولو تركهم الناس وما فی أيديهم ما وجدوا شيئاً إلّا ما وقع فی أيديهم. قال: فقال الفتى: جُعلت فداك فهل لی مخرج منه؟ قال: إن قلت لك تفعل؟ قال: أفعل. قال: فاخرج من جميع ما كسبت فی ديوانهم فمَن عرفت منهم رددت عليه ماله ومَن لم تعرف تصدّقت به وأنا أضمن لك على الله الجنة». فأطرق الفتى طويلا ثمّ قال له: قد فعلت جُعلك فداك» فهذا واحد ممن صار ابن أبی حمزة سبباً فی هدايتهم. بحار الأنوار: ج۴۷ ص۳۸۲ ح۱۰۵.

() مناقب آل أبی طالب للمازندرانی: ج۳ ص۴۴۹، باب إمامة علی بن موسى الرضا سلام الله عليه.

() المقمعة: وهی سياط تعمل من حديد، رؤوسها معوجّة. لسان العرب لابن منظور، ج۸ ص۲۹۴ «مادّة قمع». ولكن قد يكثّف الله تلك النار حتى يكون لها سمك، والله أعلم، فهذه أيضاً من مقادير أموره.

() مستطرفات السرائر لابن إدريس الحلّی: ص۵۹۸.

() الغيبة للطوسی: ص۲۹۰ رقم ۲۴۷.

() الأنوار البهية للقمی: ص۱۵۹، فصل فی مكارم أخلاقه أی، الإمام جعفر الصادق سلام الله عليه.

() راجع الكافی: ج۱ ص۲۱۹، باب عرض الأعمال على النبی صلى الله عليه وآله والأئمة سلام الله عليهم.

() هو: أبو معتب الحسين بن منصور البيضاوی، المعروف ب «الحلاّج». له دعاوی باطلة، ومقالات مشهورة. كان يعدّ نفسه أحد الأبواب للناحية المقدّسة فی الغيبة الصغرى، وصدر توقيع من الناحية المقدّسة فی تكذيبه. روضات الجنّات للخوانساری: ص۲۲۵.

() هو: أحمد بن هلال، المعروف ب «الهلالی» وفيه خرج توقيع الإمام عليه السلام من الناحية المقدّسة، يقول فيه إلى قوّامه بالعراق، قائلاً: «احذروا الصوفی المتصنّع». انظر اختيار معرفة الرجال للطوسی: ج۲ ص۸۱۶ رقم ۱۰۲۰.

() ويكنّى ب «أبی محمد». وهو أوّل من ادّعى مقاماً لم يجعله الله فيه. انظر الغيبة للطوسی: ص۳۹۷ رقم ۳۶۸.

() تقدّم شیء عنه تحت عنوان: مهمّات رجل الدين.

() راجع كتاب الغيبة للطوسی: ص۶۳۶۷.

() الكافی: ج۲ ص۲۹۴، باب الرياء، ح۷.

() سورة البيّنة، الآية: ۵.

() نهج البلاغة: ج۴ ص۳۵ رقم ۱۴۵.

() إنّ عمل الملائكة حفظ ما يكون من أعمال حسنة أو سيئة فقط، لا ـ مراقبتها من حيث النيّة والقصد؛ قال تعالى?: وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ? كِرَامًا كَاتِبِينَ ?سورة الانفطار، الآية: ۱۰ ۱۱ وعن النبى صلى الله عليه وآله ...: «فيقول الله تعالى: أنتم حفظة عمل عبدى، وأنا رقيب على ما فى نفسه» ... مستند الشيعة للنراقى: ج۲، ص۴۶، اعتبار قصد القربة.

() كان الصفّارون فى تلك الأيّام أكثر ما يستعملون المطرقة والمقصّ، فإذا ما ثقبت الأوعية النحاسية كالقدور والطسوت والأوانى جىء بها إلى الصفّار، فيقصّ قطعة من الصفر بمقدار فتحة الثقب ثم يلحم أطرافها بمحيط الفتحة. وكان يتّفق أحياناً أنّ الصفّار عنده قطعة أصغر من الفتحة بقليل، فكان يستكثر أن يقصّ قطعة بحجم الفتحة بحيث لا تسدّها جميعاً، بل يستعمل قطعة صغيرة للترقيع وإن كانت أقلّ من الفتحة بحيث لا تسدّها تماماً ثم يسدّ الثقب المتبقّى بالطّرق على القطعة وأطرافها لكى تتمدّد وتتّصل بأطراف الفتحة، حتى إذا طلاها لا يكاد يبين الخلل وتبدو القطعة متّصلة بالكامل. ولكن اللحام كان ينفتح بسرعة حالما يعرض على النار؛ بسبب رقّة أطراف القطعة الملتحمة، فضلًا عن كونها أصغر من المطلوب.

() سورة الزمر، الآية: ۴۷.

() نهج البلاغة: ج۱ ص۵۷ رقم ۲۰.

() التوحيد للصدوق: ص۳۵۳، باب الإستطاعة، ح۲۴.

() كان الشيخ جعفر الشوشترى رحمه الله من كبار مراجع التقليد، وكان أعاظم الفقهاء أمثال السيد محمد كاظم الطباطبائى اليزدى صاحب العروة الوثقى أصدروا تعليقات على رسالته العملية، الأمر الذى يكشف أنّه كان له قطاع واسع من المقلّدين بعد الشيخ الأنصارى رضوان الله عليه فهو كان من المعاصرين للشيخ الأنصارى وعاش بعده.

نقل عن الشيخ جعفر الشوشترى رحمه الله أنّه قال للناس ذات مرّة من على المنبر: أيها الناس لقد بُعث الأنبياء كلّهم ليأمروا الناس بالتوحيد وأن يجعلوا أعمالهم خالصة له ولا يشركوا فيها أحداً غيره. أما أنتم فأعمالكم كلّها لغير الله، فهل أطلب منكم أن تشركوا الله على الأقلّ، وذلك بأن تجعلوا لله نصيباً من أعمالكم فإنّكم لم تعملوها لله أبداً ولم تشركوه حتى بنسبة من نواياكم!

ولا ـ شكّ أنّه كان يمزح معهم ويستعمل الأسلوب الساخر لتقريب المعنى إلى الأذهان وللتأثير عليهم وحثّهم على الإخلاص، لا أنّه كان يريد الشرك حقيقة؛ بل كان المعنى الكنائى والمجازى هو المقصود، وهو أن يراجعوا أنفسهم وهم مسلمون مؤمنون بالله، ليقلّلوا من نسبة الشرك ويزيدوا فى إخلاصهم.

() انظر الكافى للكلينى: ح۲ ص۴۴۰ ح۱.

() منتخب الأنوار للنجفى: ص۱۶.

() انظر القاموس المحيط للفيروزآبادى: ح۲ ص۱۰۸.

() عيون الحكم والمواعظ للواسطى: ص۱۳۶، الفصل ۱۱.

() سورة هود، الآية: ۱۱۹.

() سورة النجم، الآية: ۳۹.

() سورة ص، الآية: ۸۲ ۸۳.

() سورة البينة، الآية: ۵.

() نوادر المعجزات للطبرى: ص ۶۰ رقم۲۶.

() بحار الأنوار: ج۶۲ ص۸۹، أبواب الصيد والذباحة.

() سورة الأنعام، الآية: ۱۴۹.

() اللمعة البيضاء للتبريزي: ۳۳۱. واللمّة: الهمّة والخطرة تقع في القلب.

() مشكاة الأنوار للطبرسي: ص۱۶۹.

() سورة يوسف، الآية ۵۳.

() الكافي: ج۲ ص۱۰۳، باب حسن البشر، ح۲.

() الفرج بعد الشدّة للقاضي التنوخي: ج۲ ص۳۷۲.

() نهج البلاغة: ج۴ ص۱۱ رقم ۴۰.

() منية المريد للشهيد الثاني: ص۲۶۴.

() راجع كتاب التمحيص للإسكافي ص۷۴ رقم ۱۷۱.

() بحار الأنوار: ج۷۵ ص۷۳ باب ۱۶ جمع من جوامع كلمه عليه السلام، ح۴۱.

() سورة البقرة، الآية: ۲۰۶.

() سورة التوبة، الآية: ۸۲.

() الكافي: ج۲ ص۷۸ ح۱۴.

() التحفة السنيّة للجزائري: ص۵۱.

() جامع السعادات للنراقي: ج۲ ص۲۸۴.

() التحفة السنيّة: ص۵۱.

() جامع السعادات: ج۲ ص۲۸۴.

() الكافي: ج۲ ص۸۵ ح۵.

() سورة التوبة، الآية: ۳۸.

() تحف العقول للحرّاني، ص۴۵.

() مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب: ج۱ ص۳۸۱.

() أبو يزيد، طيفور بن عيسى بن آدم بن عيسى بن علي، من مشايخ الصوفية، توفّي سنة ۲۶۱ ه، ذهب بعض الشيعة والسنّة إلى أنّه شيعي، وآخرون إلى أنّه سنّي، كان معاصراً للإمامين العسكريين عليهما السلام.

() راجع البداية والنهاية لابن كثير: ج۱۱ ص۴۱، ترجمة أبو زيد البسطامي.

() غوالي اللآلي للأحسائي: ج۴ ص۱۱۳ رقم ۱۷۴.

() سورة الحجرات، الآية: ۷۵.

() نهج البلاغة: ج۱ ص۱۵۱ رقم۸۷.

() مثل قول أمير المؤمنين سلام الله عليه في صفة المؤمن: «إن ضحكك لم يخرق، وإن غضب لم ينزق، ضحكه تبسّم». الكافي للكليني: ج۲ ص۲۲۶، باب المؤمن علاماته وصفاته، رقم۱.

() روضة الواعظين للنيسابوري: ص۴۱۹.

() كما في قوله تعالى?: الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ? سورة آل عمران، الآية: ۱۹۱.

وروى عن الإمام الرضا سلام الله عليه أنّه قال: «ليست العبادة كثرة الصلاة الصوم، إنّما العبادة التفكّر في أمر الله عزّ وجلّ». الكافي: ج۲ ص۵۵ ح۵.

() وقلب الإنسان بمثابة بيته، ولا ـ بدّ من اقتلاع جذور النتن من البيت، لتسهل فيما بعدُ عمليةُ الإصلاح والتحلّی بالجمال والفضيلة والطهارة.

فالفرد الحسود لن ينفعه ندمه علی مراقبة هذا وذاك، ولن ينفعه استغفاره ربّه مادام لم يقتلع جذور الحسد من قلبه، كذلك الحال بالنسبة للمتكبّر والفاسد والمجرم؛ مالم يقتلعوا جذور الفساد والشرّ والرذائل من قلوبهم، وإن كانت للأعمال الظاهرة أثراً علی القلب ولكنّه أثر قليل. = = فالمطلوب الإلفات المباشر إلی القلب ليستطيع أن ينظر الی ملكوت السماوات والأرض. فبإصلاح القلب واستشعار الحزن وتجليب الخوف يزهر مصباح الهدی فی قلب الإنسان.

() التحفة السنيّة للجزائری، ص۸۸، باب تطهير السرّ عمّا سوی الله.

() سورة الأنفال، الآية: ۲.

() سورة النازعات، الآية: ۴۰ ۴۱.

() شرح نهج البلاغة للمعتزلی: ج۴ ص۱۰۵.

() الكافی: ج۲ ص۳۳۵، باب اتباع الهوی، ح۱.

() نهج البلاغة: ج۱ ص۹۲ رقم۴۲.

() وهما مدفونان فی النجف الأشرف، فی الروضة الحيدرية المقدّسة قرب باب القبلة.

() خصائص الأئمة للسيد الرضی: ص۱۰۵، من كلامه سلام الله عليه القصير فی فنون البلاغة.

() وسائل الشيعة: ج۷ ص۱۳۷ باب۵۹، أنه يكره أن يقال اللهم إنی أعوذ، ح۸۹۳۹.

() وكان مرقد الإمامين العسكريين سلام الله عليهما آنذاك فی حجرة صغيرة وكان شيعة أهل البيت ومحبّوهم يأتون لزيارتهما، أمّا عامّة الناس فكانوا يأتون ويقرؤون الفاتحة.

() سورة النحل: الآية ۹۶.

() سورة الشوری: الآية ۱۳.

() سورة آل عمران: الآية ۱۹.

() سورة الأنفال: الآية ۴۲.

() سورة الأحزاب الآية ۲۱.

() يؤيّده قوله صلّی الله عليه وآله: «ما أوذی نبیّ مثلما أوذيت». الصحيح من السيرة، للعاملی: ج۳ ص۳۳.

() انظر مناقب آل أبی طالب للمازندرانی: ج۱ ص۵۱، فصل فيما لاقی من الكفار.

() تفسير القمّی: ج۲ ص۲۲۸، مورد تفسير سورة ص، الآية: ۴.

() سورة الأحقاف الآية ۱۳.

() انظر مكارم الأخلاق: ص۱۷، فی تواضعه وحيائه صلی الله عليه وآله.

() سورة البقرة، الآية: ۱۹۴.

() سورة التحريم، الآية: ۴.

() إحياء علوم الدين للغزالی: ج۲ ص۴۲، الباب الثالث فی آداب المعاشرة وما يجری فی دوام النكاح.

() انظر إحياء علوم الدين: ج۲ ص۴۳، كتاب آداب النكاح. وفی كنز العمّال للهندی: ج۱۳ ص۶۹۶ رقم ۳۷۷۸۲، قالت: أقصد!

() سورة التوبة: الآية ۱۰۱.

() وهو المقطع الأخير من الآية ۲۹ فی سورة الفتح التی ذكرت صفات أصحاب رسول الله صلی الله عليه وآله.

() مستدرك الوسائل: ج۱۷ ص۲۴۹ باب۴، عدم جواز القضاء والافتاء بغير علم و، ... ح۱۷.

() الإرشاد للمفيد: ج۲ ص۷۲، ملاقاة الحسين سلام الله عليه لزهير بن القين.

() الأمالى للصدوق: ص۷۶۶، المجلس۹۵، ح۴.

() غرر الحكم ودرر الكلم: ص۳۲۲.

() تفسير أطيب البيان: ج۱۳ ص۲۲۵.

() تفسير الإمام العسكرى سلام الله عليه: ص ۳۴۰ ح۲۱۶.

() معدن الجواهر للكراجكى: ص۴۲، باب ذكر ما جاء فى أربعة.

() سورة الرعد: الآية ۱۷.

() الفصول المختارة للمفيد: ص۱۳۵ وص۲۲۴.

() إرشاد القلوب للديلمى: ج۲ ص۲۳۱، فى فضائل ومناقب أمير المؤمنين سلام الله عليه و...

() راجع مدينة المعاجز للبحرانى: ج۶ ص۲۴۲ ح۵۲، التاسع والعشرون إخباره بالغائب والآجال.

() راجع تحف العقول للحرّانى: ص۲۹۹، فى قصار كلمات الإمام أبى جعفر الباقر سلام الله عليه.

() نهج البلاغة: ج۱ ص۲۱۵، من خطبة لأمير المؤمنين سلام الله عليه، رقم ۱۱۰.

() سورة الحديد، الآية ۲۳.

() سورة التحريم، الآية ۱۱.

() سورة آل عمران، آية ۱۵۹.

() سورة الأحزاب، الآية ۲۱.

() روى عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «أُنزلت علىّ هريسة، فأكلت منها، فزاد الله فى قوتى قوّة أربعين رجلاً فى البطش». انظر مستدرك الوسائل: ج۱۶ ص۲۵۵ باب ۲۵۵ رقم۱، استحباب أكل الهريسة.

() شجرة طوبى للحائرى: ج۲ ص۳۰۳.

() غرر الحكم ودرر الكلم: ص ۱۱۷ ح ۲۰۵۰.

() سورة الشورى، الآية: ۱۳.

() سورة الأنعام، الإِيۀ: ۷۲.

() سورة البقرة، الآية: ۱۸۳.

() سورة آل عمران، الآية: ۹۷.

() راجع تاريخ آل زرارة لأبى غالب الرازى، وفيه تفصيل أحوال وسير بنى أعين خاصّة. وقد أشار سماحة السيد دام ظله فيما سبق إلى ذلك.

() سورة النجم، الآيتان: ۳۹ و۴۰.

() وسائل الشيعة: ج۷ ص۱۱۲ باب۴۲، استحباب اختيار الإنسان الدعاء للمؤمن على الدعاء لنفسه، ح۸۸۸۴.

() راجع مستدرك سفينة البحار للنمازى: ج۳ ص۲۸۳۳۳۲، فى الدعاء.

() سورة الفرقان، الآية: ۷۷.

() عدّة الداعى لإبن فهد الحلى: ص۲۹، الباب الأوّل فى الحثّ على الدعاء.

() ثواب الأعمال للصدوق: ص۱۵۳، ثواب دعاء المسلم لأخيه بظهر الغيب.

() سورة الزمر، الآية: ۹.

() أعلام الدين فی صفات المؤمنين، للديلمی، ص۲۳۶.

() أصول الكافی: ج۱ ص۴۹۶، باب مولد أبی جعفر محمد بن علی الثانی سلام الله عليهما، ح۹.

() سورة الأنفال، الآية: ۴۲.

() سورة البقرة، الآية: ۱۸۳.

() وسائل الشيعة: ج ۱ ص۷۲ باب ۱۲، بطلان العبادة المقصود بها الرياء، ح۱۶۱.

() فروع الكافی: ج۴ ص۸۷ باب أدب الصائم، ح۱.

() راجع روضة الواعظين للنيسابوری: ص۵۰۳، مجلس فی ذكر الرجاء وسعة رحمة الله تعالی، وفيه: قال صلّی الله عليه وآله: والذی نفسی بيده، إنّ الله تعالی أرحم بعبده من الوالدة المشفقة بولدها.

() سورة هود، الآية: ۱۱۹.

() سورة المائدة، الآية: ۱۱۹.

() سورة التوبة، الآية: ۵۹.

() الكافی للكلينی: ج۱ ص۳۹۹، باب: إنّه ليس شی من الحقّ فی يد الناس إلا ما خرج من عند الأئمة سلام الله عليهم، ح۳.

() سورة المائدة، الآية: ۳۵.

() مستدرك وسائل الشيعة، ج۱۱ ص۸۷ باب ۶، استحباب التخلّق بمكارم الأخلاق، ح۱.

() سورة غافر، الآية ۵۱.

() أصول الكافی: ج۲ ص۵۹۸، كتاب فضل القرآن، ح۲.

() سورة المطففين، الآية: ۲۶.

() بحار الأنوار: ج۵۳ ص ۲۴۰، الحكاية الخامسة عشرة.

() تفسير الإمام العسكری سلام الله عليه: ص۳۱۴.

() سورة يونس: الآية: ۱۴.

() سورة التحريم: الآية: ۱۱.

() راجع اللهوف فی قتلی الطفوف لإبن طاووس: ص۹۴.

() سورة هود: الآية: ۱۱۹.

() قال عبد الله بن عمار بن عبد يغوث فی وصفه للإمام الحسين عليه السلام: ما رأيت مكثوراً قط قد قُتل ولده وأهل بيته أربط جأشاً منه. انظر مثير الأحزان لابن نما: ص۵۴، المقصد الثانی: فی وصف موقف النزال وما يقرب تلك الحال.

() راجع مصباح المتهجد للطوسی: ص۵۷۷ رقم۶۶، دعاء كل ليلة من شهر رمضان.

() سورة المائدة: الآية: ۶۷.

() راجع بحار الأنوار: ج۹۹ ص۲۴۷، مقطع من دعاء التوسل.

() انظر مصباح المتهجد للطوسی: ص۷۸۸ رقم۱۲، زيارة أخری فی يوم عاشوراء.

() سورة البيّنة، الآية: ۴۲.

() بحار الأنوار للمجلسی: ج۷۲ ص۳۸ ح۳۶.

() المرجع الراحل آية الله العظمی السيد محمد الحسينی الشيرازی قدس سره.

() وسائل الشيعة للعاملى: ج۱۶ ص۱۸۷ باب۱۹، استحباب الدعاء إلى الايمان والاسلام مع رجاءالقبول، ... ح۴.

() الخصال للصدوق: ص۴۲ باب الاثنين، معرفة التوحيد بتحصلتين، ح۳۴.

() انظر بحار الأنوار: ج۶۸ ص۲۵۹ باب۷۳ رقم ۳، والعزمة (بفتح العين) هى صيغة مبالغة ومعناها: العزم الأكيد.

() انظر مناقب آل أبى طالب للمازندرانى: ج۳، ص۳۳۷، باب إمامة أبى جعفر الباقر عليه السلام.

() سورة البقرة، الآية: ۱۹۴.

() راجع تفسير الميزان للطباطبائى: ج۱۵ ص۱۰۳، مورد تفسير سورة النور، الآية: ۱۱. والمستدرك على الصحيحين للحاكم: ج۴ ص۳۹، ذكر سرارى رسول الله صلّى الله عليه وآله. ومجمع الزوائد للهيثمى: ج۹ ص۱۶۱، باب فضل ابراهيم بن رسول الله صلّى الله عليه وآله.

() سورة الأحزاب، الأية: ۲۱.

() سورة الزمر، الآية: ۹.

() سورة هود: الآية: ۱۱۸.

() سورة الأنفال، الآية: ۴۲.

() من زيارة الإمام الحسين سلام الله عليه فى أوّل رجب والنصف من شعبان رواها أيضاً ابن قولويه فى كامل الزيارات: ص۱۰۱. والشهيد الأوّل فى المزار: ص۱۴۴، زيارته سلام الله عليه فى أوّل يوم من رجب ... وغيرهما.

() سورة الشورى، الآية: ۱۳.

() سورة آل عمران، الآية: ۱۹.

() الكافى: ج۸ ص۱۶۲ ح۱۶۹.

() إشارة إلى قوله صلّى الله عليه وآله: ركعتان يصلّيهما العالم أفضل من ألف ركعة يصلّيها العابد. مكارم الأخلاق للطبرسى: ص۴۴۱، الفصل الثالث فى موعظة رسول الله صلّى الله عليه وآله لعلى سلام الله عليه.

() راجع الخرائج والجرائح للراوندى: ج۱ ص۱۶۲ رقم ۲۵۲.

() انظر مناقب أمير المؤمنين سلام الله عليه للكوفى: ج۱ ص۴۸۶ رقم ۳۹۳.

() وسائل الشيعة: ج۲۷ ص۹۲، باب وجوب العمل بأحاديث النبى صلى الله عليه وآله و، ... ح۳۳۲۹۷.

() سورة التغابن، الآية: ۸.

() أصول الكافى: ج۱ ص۱۹۴، باب أن الأئمة نور الله عزّ وجلّ، ح۱.

() مدينة المعاجز للسيد هاشم البحرانى: ج۲ ص۳۲۷ ح۱۱۶.

() غرر الحكم ودرر الكلم للآمدى: ص۲۵۵ ح۵۳۷۵.

() مستدرك وسائل الشيعة: ج۱۲ ص۱۵۴، باب وجوب محاسبة النفس و، ... ح۹۵.

() مجموعة ورام: ج۲ ص۲۷۷، باب ذكر جمل من مناهى رسول الله صلى الله عليه وآله.

() الفروع من الكافى: ج۸ ص۹۱، حديث الرياح.

() مستدرك وسائل الشيعة: ج۱۲ ص۳۹۰، باب استحباب نفع المؤمنين، ح۱۴۳۷۶.

() أصول الكافى: ج۲ ص۷۸، باب الورع، ح۱۴.

() سورة طه، الآية: ۱۱۴.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جهابذة هذه المدينة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لَم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجی الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فی مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلى التَّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فی المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التی يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فی آكناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فی أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَى.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائیّ و اليدویّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَةِ

المكتب الرّئيسیّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد"/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفتَرَق "وفائی"/"بناية "القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتي: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - في حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.


مرکز القائمیه اصفهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹